المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

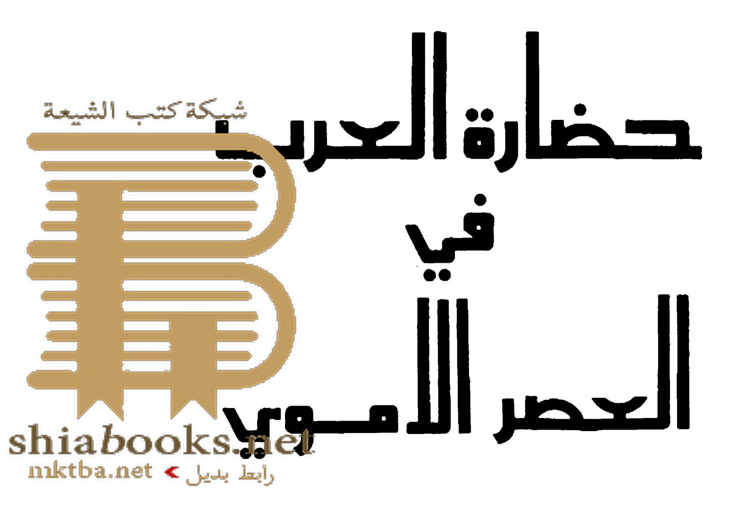
د. حسين الحاج حسن

حضارة العرب في العصر الاموي

حضارة العرب في العصر الأموي

د. حسين الحاج حسن

حضارة العرب في العصر الأموي



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1414 هـ - 1994م



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمرا - شارع اميل اده - بناية سلام

هاتف : 802296- 802407- 802428

ص. ب : 113/6311 - بيروت - لبنان

تلكس : 20680- 21665 LE M.A.J.D

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد.

فقد أصطلح المؤرخون على تقسيم التاريخ العربي الى محطات أو مراحل تاريخية على ضوء الأحداث المصيرية التي كانت تشكل منعطفات مهمة في حياة العرب، إلا أنني أرى أن هذا التقسيم الاصطلاحي هو في الواقع شكلي محض، لأن تلك المراحل التاريخية كانت مترابطة الحلقات فيما بينها؛ ففي نهاية كل مرحلة كانت تكمن أسباب نشوء المرحلة التالية.

والدولة الأموية نشأت نتيجة تفاعلات سابقة بدأت في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان ثم تفاقمت وأدت الى النتائج الدامية في عهد معاوية سنة 41 هـ.

والدولة العباسية نشأت كذلك نتيجة تفاعلات كثيرة تراكمت منذ العصر الأموي وهي ترجع في جذورها حسب رأي بعض المؤرخين الى سنة 98 هـ أي خلال خلافة عمر بن عبد العزيز حيث بدأ التحضير السري للدعوة العباسية على يد محمد بن علي العباسي. والحضارة العربية كغيرها من الحضارات الأخرى تتواصل وتتفاعل وفي هذا التفاعل والتبادل بينها شبه لما يجري بين الكائنات الحية. وهو دليل جديد على دينامية الحضارة. ذلك أن من خصائص المستجدات الحضارية أنها لا تنحصر ضمن الحدود التي تظهر فيها، بل تخترق حدود هذه المواطن وتنتشر في ما حولها، ويكون مدى انتشارها تابعاً لقوة نفاذها ولاستعداد

غيرها لتقبلها من جهة أخرى. وهذا الفعل الانتشاري هو من أهم ميزات العناصر الحضارية. فالحضارات حسب رأي علماء الاجتماع تتواصل وتتبادل وتتفاعل وهذه الخاصة الأساسية من خواصها مستمدة من كيانها الانساني والاجتماعي. لأن من طبيعة الانسان أن يُقلِّد ويُقلَّد، ويأخذ ويعطي وبهذا التبادل تنشأ حضارة المجتمع وتزهر وتثمر، ومن هذا التبادل والتفاعل والتلاقح تظهر الأحداث التاريخية والمنجزات الحضارية.

ودراسة الحضارة العربية هي الدراسة المثمرة حقاً في تاريخ العرب، لأن تاريخ الأمة هو تاريخ حضارتها وتقدمها وليس تاريخ حروبها وفتوحاتها فحسب.

والحضارة العربية على نفاستها وعظم قدرها، خاض في غمارها كثير من الباحثين لكن لم يفلح في معاناة البحث فيها إلا نفر قليل، وذلك لما كانوا يعانون من متاعب، وما يلاقون من مشاق، وما كان لهم أن يلموا بأطرافها إلا إذا جمعوا شتات الكتب ونظروا في آثار الأولين حتى يتمكنوا استخلاص ما يريدون وتحقيق ما يبغون.

والحضارة العربية لا تقوم بمظاهرها بل بنظامها وقيمها. وقد تكون بعض هذه المظاهر متشابهة في الحضارات المختلفة كنظام الحكم الفردي في الحضارات الشرقية القديمة، أو كنظام الاقطاع في الحضارات التاريخية أو كبعض العادات والتقاليد المتماثلة التي نشأت من الاتصال بين أصحابها. لكن هذا التماثل لا يأتي كاملاً ومطابقاً.

وقد اختلف الباحثون في تقدير المظاهر الحضارية من حيث دلالتها على الحضارة بوجه عام. فمنهم كأصحاب النظرية الماركسية وأمثالها من أولى النظام الاقتصادي المقام الأول واعتبره المفتاح الذي يؤدي به الى الصميم.

ومنهم من نسب هذه المظاهر للقدرات التقنية والاتجاهات الفكرية والعقائد الدينية مثل أوغست كونت وماكس فيبر وأمثالهم. ومنهم من رد هذا الأمر للعادات والتقاليد أو للعلم وهكذا.. والباحث المنصف في تاريخ الأمم ونهضات الشعوب يقف حيال تاريخ الأمة العربية موقف المتأمل المعجب، لما وصلت اليه هذه الأمة العريقة في حضارتها الزاهرة التي أظلت البلاد الواقعة تحت ظلالها الوارفة والتي نعمت بالحرية والأمن والسلام، من تعاليم رشيدة وسياسة حميدة، وعناية بالعلوم

الجليلة والمعارف الكريمة على اختلافها. وقد حج إلى معاهدهم الكثير من طلاب الحكمة وعشاق الفلسفة، يدل على ذلك الآثار الشاهدة بمآثرهم والناطقة بحضارتهم في بلاد الشام ومصر، وما بين النهرين، والأندلس، وايران، وأفغانستان وغيرها من البلاد.

وإن ما يفيده الطلاب مني مما ألقيه عليهم من محاضرات في الحضارة العربية إنما هو ضوء مصباح ينير لهم طرق البحث والتنقيب للوصول الى الغاية المنشودة. وإني لأرجو مخلصاً أن يكون أخوتنا الطلاب عند حسن ظننا بهم حتى يكون لنا منهم في المستقبل القريب رجال يحملون الرسالة ويؤدون الامانة إن شاء الله تعالى الذي نسأله ليسدد خطانا ويحقق أهدافنا إنه سميع مجيب.

شمسطار

حسين الحاج حسن

الفصل الأول

تفاعل وتواصل الحضارات

الحضارة سجل لتطور العقل البشري ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة الانسانية من اجتماعية واقتصادية وعمرانية ووسائل معيشته ومعتقداته الدينية، وفنونه الجميلة وعلومه وآدابه ووسائل جهاده المستمر وكفاحه الدائم مع الطبيعة من أجل البقاء.

وفي كل حضارة إرث حضاري تتركه وراءها، وهو مشاع كالشمس والهواء، يمكن لكل أمة أن تفيد منه، كما يمكن لكل حضارة نامية أن تتفاعل معه وتجعله لبنة في بناء صرحها الحضاري العتيد.

والتفاعل بين الحضارات أمر طبيعي وهو مظهر من مظاهر انفتاح كل حضارة على التاريخ، وعدوى تقاليد الشعوب وعاداتها؛ ويكون على أشده حين تكون الحضارة الناشئة في دور التلقي والاقتباس. وبعد تجاوز هذا الدور تصل الشعوب المتحضرة الى دور الهضم والتمثيل حيث يتحول كل ما أخذته الى دم جديد نشيط يساعدها في عملية الخلق والابداع. ومن السبل الرئيسية التي حصل فيها تواصل الحضارات وتفاعلها.

أ ـ الغزوات والحروب والفتوحات

عندما يغزو مجتمع مجتمعاً آخر، سواء غلبه أو غلب على يده فسوف يحدث بينهما تبادل في العلوم والمعارف، وتفاعل في العادات والتقاليد، لكن هذين العاملين يضيقان أو يتسعان بحسب المدة التي يستغرقها الاحتلال والمآل الذي يؤدي إليه.

فإذا كان الغزو عارضاً قصير المدى عاد المجتمعان الغالب والمغلوب الى

مواطنهما وأحوالهما القديمة، وكان أثر التفاعل ضئيلاً ومحدوداً. أما إذا نتج عنه تغلب مجتمع على مجتمع، واستقرار فريق كبير من أبنائه فيه، استتبع ذلك تخالط وتزاوج نجم عنهما تبادل وتفاعل بين المجتمعين. والمجتمع المغلوب يقتدي دائماً بالمجتمع الغالب قال ابن خلدون:

«المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده»[1] وذلك لاعتقاده أنه يمثل الكمال الخالص وتابع قائلاً: «وتأمل في هذا سر قولهم العامة على دين الملك فإنه من بابه إذ الملك الغالب لمن تحت يده والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الأبناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم»[2].

والغالب القوي بخشونة عيشه وشجاعته وعصبيته وعقيدته الدينية، عندما يسيطر على مجتمع مترف متنعم. والترف والتنعم من توابع الحضارة - يبادر الى تقليده في معايشه وإلى أخذ مظاهر الترف والحضارة عنه.

وأهل الدول يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون»[3].

ويمضي ابن خلدون في التمثيل على ذلك فيقول:

«ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا في ذلك العهد في شيء من الحضارة. فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً ومثال ذلك كثير فلما فتحوا تلك الدول قبلهم واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليهم أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله فبلغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثى».

---

(1) المقدمة ص 147.

(2) المصدر نفسه ص 172.

(3) المقدمة ص 172.

يبدو لنا أن تأثر الغالب بالمغلوب وأخذه عنه، هو عند ابن خلدون، أهم من تأثر المغلوب بالغالب، لأنه في نظره سبيل الأمم في سيرها الطبيعي من البداوة، فالملك، فالحضارة. وقد نجد من جانب آخر شواهد عديدة لتفوق الغالب حضارياً على المغلوب، أبرزها:

حملات الاسكندر المقدوني التي نجم عنها غرس الحضارة اليونانية في أصقاع العالم القديم الدانية والقاصية.

وفتوح رومة التي أدت الى توطد العمران الروماني والنظم الرومانية في البلاد التي سيطرت عليها. وعلى أية حال سواء أكان الأثر الأكبر للغالب أم للمغلوب، فالذي يهمنا هو تبادل المؤثرات وتفاعل الحضارات.

ب ــ الرحالة

ومن سبل تفاعل الحضارات أيضاً انتقال الأشخاص من مجتمع الى مجتمع آخر على اختلاف أغراضهم ومهامهم وحاجاتهم. فثمة رحالون يجوبون البلاد الغريبة إرضاءً لحب المغامرة أو رغبة في ازدياد المعرفة؛ ثمة آخرون ينتقلون من بلد إلى بلد عبر الصحارى والبحار حاملين معهم السلع والبضائع ساعين وراء الكسب المادي[1].

وهناك المؤمنون المبشرون يضربون في الأرض ويسعون في مناكبها مدفوعين بقوة خفية لنشر رسالتهم الدينية.

وثمة رجال علماء يرحلون الى مراكز العلم ويسعون الى ميادين جديدة يفيدون فيها ويستفيدون. وغير هؤلاء وأولئك فئات أخرى عديدة يهاجرون الى منازل أخرى تحفزها شتى الدوافع والأهداف قد يؤلف هؤلاء الأفراد جاليات لها صلة بموطنها القديم وبموطنها الجديد أيضاً وعن طريق هذه الاقامة الدائمة أو المؤقتة يحصل تبادل المؤثرات وتلاقح الأفكار، وتناقل العادات والتقاليد وسواها من عناصر نشوء الحضارات. وسوف نعطي أمثلة واقعية من التاريخ أولاً: انتقال قوافل الصليبيين من شتى أقطار الغرب الى البلاد المقدسة.

ومرور هذه القوافل في البلاد البيزنطية، واحتلالها لمناطق عربية واستقرار

---

(1) راجع حضارة العرب في العصر الجاهلي للمؤلف: فصل الأسواق عند العرب ودورها الحضاري.

بعض أبنائها في هذه المناطق. فقد حدث من جراء ذلك تفاعل وتبادل بين الحضارة الغربية والحضارة البيزنطية من جهة، وبينها وبين الحضارة العربية من جهة أخرى. ومن هذه السبل الرئيسية سرت مؤثرات الحضارة العربية الى الغرب حيث كان لها وقعها البارز في تنبيه المجتمع الغربي وحدوث نهضة فاعلة في مطلع العصر الحديث.

والحضارة كما هو معلوم أخذ وعطاء وتبادل وتفاعل، فبعد أن أخذت الحضارة الغربية من الحضارة العربية وتفاعلت معها، عادت من الغرب الى الشرق بثوب جديد وأفكار جديدة عن طريق السياسيين الحاكمين أو عن طريق التجار المغامرين، فنزلوا في البلاد العربية واستقروا فيها فترة طويلة مما أسهم بنصيب وافر في بعث نهضة خيرة في مختلف البلاد الشرقية.

يقابل هذا الانتقال من الغرب الى الشرق، انتقال الشرقيين الى الغرب رغبة في كسب المعرفة وطلباً للعلم، أو بدافع العمل والعيش بصورة أفضل وأرحب. فعند رجوع هؤلاء الى موطنهم الأول يحملون معهم أفكاراً وعادات وأساليب جديدة في العيش تفعل فعلها في حياتهم الخاصة والعامة. ودليلنا الواضح في هذا المجال ما فعله الأدب العربي المهجري من اللبنانيين والسوريين الذي كان له أثره في النهضة الفكرية والعلمية والأدبية في البلاد العربية عامة وفي لبنان خاصة.

هذه النهضة المباركة تأثرت بالأشياء المادية المصنوعة في المجتمعات الغربية التي استفاد منها العرب إفادة عملية كما استفادوا منها بمحمولاتها الحضارية. لذا كانت التجارة سبيلاً ناجحاً واسع الأفق من سبل التبادل الحضاري بين الشعب العربي والشعوب الأخرى فالعاج والذهب والأفاوية والتوابل والعطور وسواها من حاجات الترف، كانت تنقل الى بلدان البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة من الهند وغيرها، وبديلاتها التي كانت تعود من هذه البلدان الى الشرق كانت تحمل معها آثار حضارة شعوبها. فمن خلال هذه السلع حدث تبادل ثقافي وتفاعل حضاري ظهر أثره في محطات تجارية هامة كمكّة وتدمر والبتراء ومأرب، حيث أصبحت مدناً مزدهرة لا من الناحية المادية التجارية فحسب بل من نواح أهم وهي التلاقي الثقافي والتلاقح الفكري والتفاعل الحضاري.

وإذا تدرجنا الى العصور الوسيطة وجدنا المصنوعات الجلدية والنحاسية والفضية والنسيجية وغيرها تحمل من البلدان العربية وأقطار الشرق الى المدن

والبلاد الغربية وتحمل معها بذور الازهار والاثمار وحضارة بلدانها وشعوبها. فالورق والسكر والبارود وسواه كان له أثر فعال في تطور الحياة الغربية، فالتبديل التجاري نجم عنه التلقيح الفكري والتبديل الحضاري. ولا نغالي إذا قلنا إن لتاريخ التجارة دوراً هاماً من أخصب الميادين لتبادل المؤثرات وتفاعل العادات وتواصل الحضارات بين شعوب الأرض كافة.

وأما في العصر الحديث فالدلائل كثيرة ويكفي أن ننظر إلى أسواقنا لنرى المصنوعات الغربية التي تغزونا من كل جانب وتفعل فينا تبدلاً وتحويلاً في كل نواحي حياتنا، فالسيارة والطائرة والإذاعة المسموعة والشاشة المرئية والسينما والثلاجة والهاتف لها ولأمثالها أثر واقعي في أوضاعنا الاقتصادية ومسلكياتنا الاجتماعية وأخلاقنا وتصرفاتنا وغير ذلك في أوضاعنا الظاهرة. إن هذه المصنوعات الحديثة تمثل وجهاً بارزاً من وجوه الحضارة الغربية التي نتأثر بها لما تحمله من مضمون حضاري حتى المواد الخام غير المصنعة لها نتائجها الحضارية «فالبترول» الذي يتدفق من بعض مناطقنا قد نجم عنه امتداد واضح لنفوذ الغرب فأثر تأثيراً بيناً في حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأخلاقية وأحدث تبدلاً حضارياً بوجه عام.

ومن سبل التفاعل الحضاري المادي الى سبل تفاعل من نوع آخر له خطورته في الحياة الحديثة، وبصورة خاصة في حياة الشعوب التي خضعت لسيادة الدول الغربية، نعني به «الاستعمار الحديث» ففيه غزو مكشوف وتسلط مفضوح على ثروات الشعوب المستضعفة. وذلك لأسباب اقتصادية وأطماع سياسية، وسيطرة على المواد الخام وعلى تسويق البضائع والمصنوعات. وقصدنا هنا الوجه الحضاري فحسب.

تعددت أنواع الاستعمار وتنوعت أشكاله واختلفت طرقه وأساليبه. فمنه ما يرمي الى استغلال موارد البلد المستعمر والاستيلاء على أسواقه. ومنه ما يوهم الناس بأن له رسالة «تمدينية» كانوا يفرضونها بشتى الوسائل على الشعوب التي يحكمون. ومنه ما كان يطمع المستعمر في ما هو أبعد من الحكم والاستغلال والتمدين فيحتلون البلدان احتلالاً دائماً ويوطنون قسماً من شعبهم فيها، ويحولونها الى جزء من «الوطن الأم» كما كانت فرنسا تحلم بأن تفعل بالجزائر، وكما فعلت ايطاليا بليبيا. وأفظع من هذا كله ما حدث في فلسطين السليبة حيث تعاونت

الصهيونية العالمية مع الدول المستعمرة على تشجيع هجرة اليهود من مواطنهم واحتلالهم لأراضي هذا البلد العربي العريق، ثم إقامتهم دولة فيه، وإجلاء سكانه عنه، واغتصاب حقوقهم المشروعة وممتلكاتهم التي عمروها بعرق جبينهم.

وإن كل تأثير لا يخلو من تأثر بشكل معين والى حد معين، والمستعمر يحمل حضارته وينشرها في البلاد المستعمرة بأجهزة الحكم وطرق الادارة واللغة التي يفرضها على البلاد ويجعلها اللغة الرسمية، والشركات التجارية، والمشروعات الاقتصادية، والمدارس التعليمية، والبعوث العلمية التي ينظمها الى بلده وغير ذلك من الصلات بين بلده ومستعمرته هذا التفاعل الحضاري بين المستعْمِر والمستعْمَر كان يجري معظمه من الأول الى الثاني وكان يفرض فرضاً بمحاولات ظاهرة وخفية لتبديل المقومات الحضارية الأصيلة وذلك بغية توطيد نفوذ المستعمر وسيطرته. وليس من بلد خضع للاستعمار وبقي وضعه الحضاري على ما كان عليه، بل لا بد من أنه قد تأثر بالحضارة الغربية الحديثة، وإن خسر بعض مقوماته الحضارية الأصيلة ومن سبل التبادل الحضاري الرئيسية، الكتاب، الكلمة المكتوبة واختراع الحرف كان من أعظم الابداعات الانسانية لأنه يسّر التعبير عن الفكر وسهّل نقله بين أبناء البشر في المجتمع الانساني. فكان هذا فتحاً مباركاً للاختراعات والابداعات كصنع الورق والطباعة والتصوير بأشكاله فزادت بلا ريب امكانات نشر الأفكار فجاء الهاتف الذي ينقل الكلام من أدنى زاوية الى أبعد زاوية من بقاع العالم والحاكي الذي يحفظ الصوت وينقله، والشاشة المرئية التي تنقل الصوت والصورة معاً بلمح البصر.

فكان لهذه المستحدثات أثرها البالغ في انتشار الفكر، فلم يعد يخلو منها أشد الناس عزلة في بوادي الأرض ومجاهلها فهي القادرة على النقل السريع الذي أزال فواصل المكان والزمان. بالاضافة الى إمكانها الجمع بين أكثر من وسيلة واحدة من وسائل التعبير.

ومن ميزات هذه المستحدثات أيضاً قابليتها للاتصال بالجماهير، فالكتاب يقرأه فرد أو أفراد أما الشاشة المسموعة والشاشة المرئية فيُمكن أن يشهدها ويسمعها الآلاف والملايين من الناس فتبث أثرها بثاً واسعاً في زمن واحد وتوقظ الروح الجماهيرية التي تتوجه الى المشاعر أكثر منها الى العقل والمنطق، فيأتي فعلها أسرع وأيسر وأمضى من التأثير والانتشار. من هنا كان اهتمام شتى

المنظمات العصرية بهذه الوسائل الجماهيرية المستحدثة.

فالهيئات الصناعية والتجارية تستخدمها للاعلان عن بضائعها وسلعها، من أجل ترويجها وتسويقها.

والأحزاب والدول ومصادر السلطة تستغلها لتكوين الرأي العام، ولدعم سلطتها وحمايتها، كما تستخدمها أيضاً كوسيلة فاعلة من أجل غزو عقول الجماهير في المجتمعات الأخرى. ولقد عظم أمر هذا الاستغلال وعظم حتى غدا أداة قوية للدعاية في الحرب الباردة بين الدول، ووسيلة من أنفذ الوسائل في تنبيه الجماهير وتحريكها. وقد تكون الكلمة في الشاشة المسموعة أو الشاشة المرئية أنفذ من رصاصة تطلق في صدر العدو. هذه الوسائل التي زادها الفكر البشري تقنية ونفاذاً هي أدوات فعالة في نقل المؤثرات الايجابية الخيرة، ولذلك عكفت مؤسسات التربية ومراكز الثقافة القومية والدولية على الاهتمام بها والعمل على استخدامها في الجهود التربوية «كالاونيسكو مثلاً».

وقد أدى هذا الاهتمام من جانب الدول والمنظمات التربوية والحكومية والتجارية وسواها لشتى الأغراض الايجابية والسلبية في آن معاً. فاستعانوا بعلم النفس الفردي والجماعي وقاموا بمختلف التجارب لبلوغ أشد الأساليب تأثيراً في النفس، وأهمها قوة في الاقناع. فجاء هذا التقدم الفني يدعم التقدم التقني في صنع الأدوات ذاتها ليجعل منها وسائل أفعل بين أبناء المجتمع الواحد وبين المجتمعات الانسانية والحضارات البشرية، وفي هذه الأيام نرى التقدم التقني الحديث قد قوى جميع وسائل التواصل بين المجتمعات والحضارات حتى غدت البشرية كلها مرتبطة فيما بينها بأوثق الروابط المادية والتقنية، مما أزال العزلة الطبيعية من الوجود. والاستعمار اليوم أشد فعلاً في التأثير الحضاري من الفتوح السابقة. ووسائل النقل والسفر تزداد تحسناً كل يوم، وانتشارالمصنوعات والبضائع يتسع ويتطور، وأدوات البث والتأثير الحديثة تفعل فعلها بصورة فاعلة في تحريك الجماهير وفي تبديل المعتقدات والتقاليد وطرق العيش والتفكير. كل ذلك يجعل التفاعل الحضاري أكثر يسراً وأكثر اتساعاً وأسرع في التبادل والتواصل.

اتصال العرب بمن جاورهم من الأمم

والحضارة العربية كانت وما زالت منفتحة على التاريخ، إنها من الحضارات

الشاملة التي تأثرت بها شعوب مختلفة، وقامت بدور مجيد في سير الحضارة البشرية وتقدمها. وهي وإن تأثرت بالحضارة اليونانية والحضارة الرومانية، لها شخصية متميزة، مدت ظلها على الشرقين، الأدنى والأوسط، وتجاوزتها الى بعض أوروبا التي كان لها دور فعال في نهضتها الحديثة.

والحضارة العربية تأثرت بالحضارة اليونانية والحضارة الرومانية تأثراً واضحاً وقامت بدور الوسيط الذي نقل الى الغرب أنفس ما في الحضارتين المذكورتين من علوم ومعارف وفنون وآداب. قال غوستاف لوبون:

«لقد أنشأ العرب حضارة بسرعة، حضارة جديدة، كثيرة الاختلاف عن الحضارات التي ظهرت قبلها، وتمكنوا بحسن سياستهم من حمل أمم كثيرة على انتحال دينهم ولغتهم وثقافتهم، ولم يشذ عن ذلك أقدم الشعوب كالمصريين والهنود الذين رضوا أيضاً بمعتقدات العرب وعاداتهم وفن عمارتهم».

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا أن الأمم التي غابت عن التاريخ وأصبحت أطلالاً وذكريات بأديانها ولغاتها وفنونها؛ أما العرب فما زالت عناصر حضارتهم باقية حية على صدر الزمان.

تأثر الحضارة العربية بالحضارات الأخرى

كانت طموحات العرب أوسع من أرض الجزيرة العربية فانطلقوا إلى خارجها يوطدون أركان دولتهم ويوسعون أرجاءها بروح رياضية بعيدة عن الحقد والتعالي والانتقام. كانوا يعاملون الشعوب المغلوبة باللين والتسامح فلم يذلوا أحداً كما تعود الفاتحون من قبلهم، ولم يلغوا إرثهم الوطني، بل حملوا إليهم روح التسامح والتعاطف والالفة. وجد العرب في العصر الأموي حضارات قائمة مزدهرة فلم يطمسوا معالمها بالعدوان، ولم يقابلوها بالعداء ليفرضوا على الناس ما عندهم من صفات مميزة بالقوة، لكنهم حاولوا فهم تلك الحضارات ودرسوا معالمها وأنظمتها فأخذوا منها ما يناسب طباعهم وما يحتاجون إليه من أجل تنظيم أمور دولتهم وتوطيد الأمن والاستقرار في ربوعها من أجل ذلك هادنوا الأنظمة القائمة في البلاد المفتوحة وميزوا بين الصالح والطالح منها فأبقوا على الأول وأزالوا الثاني.

من هذا المنطلق كان تأثر حضارتهم بالحضارات الأخرى، غير أن هذا التأثر

لم يكن متساوياً ولا شاملاً شتى نواحي الحياة. لقد اعتمدوا على العنصر العربي في إدارات الدولة ولم يسلموا فيها أي عنصر غير عربي. لقد أخذوا عن الفرس ما يتعلق بتنظيم الادارة والمجتمع كما اقتبسوا منهم الحكمة والأدب عن طريق الترجمة التي أكسبتهم معارف شتى في هذا المجال مما أغنى ثقافتهم ونمّى حضارتهم.

واستعاروا من الفرس بعض المصطلحات اللغوية التي اقتضتها حضارتهم الجديدة، وظهر طابع القصص الفارسي والأمثال على نتاجهم في هذه الفنون، وتعداها أحياناً إلى بعض شعرهم. والذي ساعد على ذلك أن كثيراً من الفرس اختلطوا بالعرب واستعربوا فحملوا معهم إلى العربية تعابير فارسية وأخيلة فارسية، ثم لم يلبثوا أن نشروا بترجماتهم أدب فارس وحكمتها وتاريخها، وبعض تقاليدها في الملبس والمأكل، وطقوس ديانتها وفنون غنائها.

أما عن اليونان فقد نهلوا من فلسفتهم وعلومهم وربّوها ونمّوها فالطب والرياضيات والفلسفة والطبيعيات والموسيقى وعلم الفلك جميعها درجت في أحضان أثينا لكن العرب فتحوا أكمامها وزادوا عليها. لا ريب أن كل أمة في بدء نهضتها تأخذ عن غيرها حتى إذا ما صلب عودها وهضمت معارفها بدأت في العطاء. والعرب في بدء نهضتهم مروا بهذه المرحلة وعبروا إلى مرحلة أرقى بعد أن نمت عندهم قوة الابداع التي تميزوا بها وحررتهم من رقهم العلمي «إذ أدركوا أن المباحث العلمية الحديثة تعتمد على ركنين أساسيين هما: التجربة والترصد» فمارسوا التجربة العلمية وولجوا إلى أسرار الطبيعية وخفايا الكون، والى المكتشفات الحديثة التي أسهمت إلى حد بعيد في تطوير العلم وتقدم البشرية في الميادين الانسانية الخيرة.

جـ ـ أثر الحضارة العربية في الحضارة الأوروبية

أجمع الباحثون من عرب وغرب على أن الحضارة العربية الاسلامية كان لها أثر هام في الحضارة الأوروبية؛ ففي الوقت الذي كانت فيه أوروبا لا تزال تضطرب في ظلال العصور الوسطى كان العرب قد بسطوا نفوذهم على معظم بقاع العالم المتحضر القديم، واستفادوا مع فتوحاتهم من حكمة الهند وثقافة الفرس ومعرفة الصين وعلوم بيزنطية، كما أفادوا من ثقافتهم العربية الأصلية. لقد

فتحوا صدورهم لهذه الثقافات والحضارات المختلفة، وأقبلوا عليها. وتولوها بالدرس والتهذيب والعناية والبحث، بعد أن أضافوا عليها الكثير من أفكارهم وابتكاراتهم حتى بلغت غاية نضجها واكتمالها وتميزت عما عداها من الحضارات السابقة.

وإن إفادتها من هذه الحضارات السابقة لا يقلل من شأنها ولا ينقصها، لأن ذلك أمر طبيعي من سنة الحياة، ذلك أن التطور الحضاري عند كل أمة أن تقتبس من الأمم التي سبقتها «ولولا ذلك لكان لزاماً أن تبدأ كل أمة بما بدأت به الأمم الأخرى السابقة عليها لسد باب التقدم العلمي، والتقدم الحضاري»[1]. وإذا بدأت كل أمة من درجة الصفر في حضارتها وعلومها لوجدنا أنفسنا اليوم في مستوى أقرب إلى ما كان عليه الانسان البدائي الأول. والعرب يكفيهم فخراً أنهم لم يقتنعوا بما تعلموه من غيرهم وإنما بحثوا واجتهدوا وابتكروا، وأضافوا أموراً جديدة دفعت عجلة التطور الحضاري بعيداً إلى الأمام. وبذلك أضاءت الطريق لأوروبا، فقامت حضارتها وتقدمت حتى بلغت شوطاً بعيداً في ميدان التطور الحضاري وقد انتشرت أشعة الحضارة العربية على أوروبا بوسائل عدة وطرق كثيرة من أهمها:

عن طريق الأندلس

لقد أقام العرب هناك جامعات عامرة قصدها طلاب العلم من شتى أنحاء أوروبا، وبعد أن تخرج هؤلاء الطلاب عادوا إلى بلادهم ونشروا كل ما تعلموه من العرب. كما أقام العرب أيضاً دوراً كثيرة للكتب، كانت منتشرة في إسبانيا ساعدت فيما بعد على إحياء العلوم في أوروبا[2].

عن طريق صقلية

استقر العرب في هذه البلاد زهاء 130 سنة حتى أصبحت المركز الثاني لنشر الثقافة العربية في أوروبا. وكان الملوك هناك يدفعون رعاياهم إلى ترجمة الكتب العربية، كما كانوا يشجعون العرب على الإنتاج العلمي.

---

(1) حضارة العرب لجوستاف لوبون ص 529.

(2) تاريخ الحضارة الاسلامية أبو زيد شلبي ص 374.

عن طريق الشرق

كانت الحروب الصليبية والحج إلى بيت المقدس مدعاة لاختلاط الأوروبيين بالعرب فقد أخذوا عنهم الكثير من العلوم والمعارف والفنون، كما حصلوا أيضاً على الكثير من الكتب العربية مما ساعد الأوروبيين على ظهور روح البحث العلمي، ودراسة الآداب والفنون والعلوم عند الأقدمين.

كل هذه العوامل كانت عناصر مساعدة لانتشار أضواء الحضارة العربية في البلاد الأوروبية، ومدى ما قدمه العرب من معارف وابتكارات لم يسبقهم أحد إليها من هنا نعلم كيف وصلت هذه الحضارة العربية العظيمة إلى أوروبا فأيقظتها من سباتها وفتحت الطريق أمامها للتقدم والازدهار.

ففي خلال الفترة الذهبية في تاريخ العرب كثرت المكتبات وامتلأت بالمؤلفات، وانشئت المدارس في مختلف البلاد العربية.

هذه المدارس وتلك المكتبات اجتذبت الباحثين عن المعرفة من العالم المسيحي والعالم الاسلامي على السواء. ففي مجال الطب مثلاً نجد أن كتاب «الحاوي» للرازي المؤلف من عشرين مجلداً قد جمع كل المعلومات الطبية التي كانت معروفة في زمانه وظل المرجع الوحيد المعترف به في جامعات أوروبا حتى القرن السابع عشر الميلادي.

وفي علم البصريات حقق العرب تقدماً علمياً عظيماً ورسالة الكندي العلمية هي التي اعتمد عليها علماء الغرب في دراساتهم ونخص بالذكر «بيكون» وقبل الكندي كان العلماء يعتقدون أن العين ترسل أشعتها حتى تبصر بها الشيء المرئي، فعارضهم الكندي بنظرية جديدة تقول أن شكل الجسم المرئي هو الذي ينفذ إلى العين ماراً خلال الفتحة الشفافة «العدسة» وقد اعترف بأثره العلمي الجليل كل علماء الفيزياء في عصره. ونظريته هذه هي التي تدرس اليوم في الجامعات العلمية الحديثة. وفي الكيمياء يعتبر جابر بن حيان مبدع هذا العلم فقد كتب فيه الكثير من طرق البحث ووسائل التحليل، وركب العديد من المواد الكيماوية وما توصل إليه من أبحاث يعد من المراجع الأولى في أوروبا حتى القرن الثامن عشر الميلادي. كما كان له الفضل في الطرق الحسابية التي تستعمل اليوم في عصرنا الحاضر، فجعل الجبر علماً حقيقياً وتقدم به شوطاً بعيداً حتى اعتبر أنه مؤسسه.

والخوارزمي هو الذي وضع علم اللوكارتم (Logaritme) وكتب في الهندسة التحليلية وحساب المثلثات الذي لم يكن معروفاً عند اليونانيين.

وفي الطب: عمل الأمويون بالعلوم الطبية والكيماوية فنقلوها إلى العربية عن اليونانية. وكان خالد بن يزيد أول من عني بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية فدعا جماعة من اليونانيين من مدرسة الاسكندرية وطلب إليهم أن ينقلوا له كثيراً من العلوم الطبية والكيميائية عن الكتب اليونانية التي تناولت البحث في صناعة الكيمياء العملية: وقد تم له الحصول على الذهب عن هذا الطريق، كما طلب إليهم أن يترجموا كتب جالينوس في الطب. وقد أنفق خالد أموالاً ضخمة في طلب الذهب واستحضار آلاته ومن أقدم أطباء العرب كان لقمان الحكيم الذي اشتهر في هذا الحقل حتّى ضرب به المثل. والحارث بن كلدة من مواليد الطائف في القرن الأول الهجري كان أشهر أطباء عصره درس الطب في جنديسابور ببلاد فارس والأمويون استعانوا بالأطباء الذين كانوا يعملون في جنديسابور بخوزستان الذي أسسه كسرى أنوشروان، وجلب إليه الأطباء من بلاد اليونان. وقد تخرج في ذلك العصر: الحارث بن كلدة الذي ذكرناه آنفاً وابنه النضر «كما استعان الأمويون أيضاً ببعض الأطباء الذين كانوا يعملون في هذا المعهد الطبي، كابن آثال الطبيب النصراني الجنديسابوري الذي اتخذه معاوية بن أبي سفيان طبيباً له، وحكم الدمشقي وتيادون وغيرهم»[1].

وذكر المسعودي في مروجه «أن عبد الملك بن مروان كان مولعاً بعلم النجوم، حتى إنه كان يصحب معه بعض المنجمين في حروبه. فإنه لما بلغه قدوم ابراهيم ابن الأشتر النخعي لحرب أخيه محمد بن مروان، بعث عبد الملك إلى أخيه يأمره ألا يقابله في ذلك اليوم. وكان مع عبد الملك منجم مقدم على غيره. وقد أشار على هذا الخليفة بألا تشتبك خيله في حرب في ذلك اليوم، لأنه من أيام النحس، وأن يحارب بعد ثلاثة أيام حيث يكتب له النصر. ولكن أخاه محمد لم يعبأ بنبوءة ذلك المنجم وواصل القتال وأحل الهزيمة بابن الأشتر»[2].

وبقي هذا الاعتقاد حتى العصور العباسية حيث دعا المعتصم المنجمين

---

(1) تاريخ الاسلام السياسي ج 1 ص 512.

(2) مروج الذهب ج 2 ص 119.

وأخذ رأيهم في تحديد الوقت المناسب للهجوم، فحذروه من الزحف إلا بعد نضوج التين والعنب، هكذا قالت كتبهم، ولكنه لم يأخذ برأيهم، فاستعجل وهاجم عمورية في بلاد الروم. فأحرق المدينة وسحقهم سحقاً حتى كان الانتصار العظيم الذي سجله الشاعر أبو تمام في قصيدة رائعة أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب.

الفصل الثاني

الاطار التاريخي في العصر الأموي

رأينا أنه أول ما يجب القيام به هو وضع الاطار التاريخي للعصر الأموي، لأن هذا الاطار يحصر كل حركة حضارية في الزمان والمكان، كما يساعد علىٰ أسباب نشوئها ونمائها، أو تراجعها وخمولها.

وسوف نوجز الكلام على هذا الاطار ما أمكن الأمر لأن غايتنا ترمي أساساً إلى الخوض في موضوعات الحضارة الأموية النابعة من حياة الناس على مختلف أجناسهم وقبائلهم وطبقاتهم، وعلى مختلف حياتهم الفكرية، والعلمية، والفنية، والاجتماعية، والانسانية.

وما يلاحظ أن أكثر المؤرخين قد اصطلحوا على تقسيم التاريخ العربي إلى عصور ومراحل ومحطات تاريخية على ضوء الأحداث الهامة والمصيرية التي كانت تشكل منعطفات مهمة في حياة العرب.

وما نراه إن هذا التقسيم هو في الواقع العلمي، شكلي محض، ولا يعتمد على أسس علمية وأسباب منطقية. وذلك أن تلك المراحل التاريخية لم تكن منفصلة تماماً في أسبابها ومسبباتها، بل كانت مترابطة فيما بينها كالحلقات المتصلة بعضها مع بعض، ففي نهاية كل مرحلة أو قبيل نهايتها كانت تكمن أسباب قيام أو نشوء المرحلة التالية. وإذا ما تأملنا ملياً في نشوء الدولة الأموية وجدناه نتيجة لتفاعلات سابقة بدأت خيوطها في عهد عثمان بن عفان. ثم تفاقمت فأدت إلى فتن دموية قاسية انتهت بتولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة سنة 41 هـ وانتقال مركز الحكم من المدينة المنورة إلى دمشق.

وكذلك الحال بالنسبة لنشوء الدولة العباسية أيضاً، فما نشوؤها سنة 132 هـ إلا نتيجة لتفاعلات عديدة تراكمت منذ العصر الأموي واستمرت ناراً تحت الرماد خلال خلافة عمر بن عبد العزيز سنة 98 هـ حيث بدأ التحضير في الخفاء للدعوة العباسية على يد محمد بن علي العباسي، وبانتقال الحكم إلى العباسيين بمعونة الفرس وغيرهم من الفرق المناوئة للحكم الأموي، انتقل مركز الخلافة من دمشق عاصمة الأمويين خلال 91 سنة إلى بغداد، مدينة السلام ومحطة حضارية كبرى في التاريخ العربي والانساني.

إذن استمر حكم الأمويين 91 سنة وتعاقب فيها على الخلافة أربعة عشر خليفة، أولهم معاوية بن أبي سفيان 41 هـ - 61 هـ وآخرهم مروان بن محمد 127 هـ - 132 هـ.

والآن: كيف انتقلت الخلافة إلى الأمويين؟

انتقال الخلافة إلى الأمويين

تولية معاوية بن أبي سفيان 41 هـ - 661 هـ

منذ مقتل الخليفة الراشدي الثالث، عثمان بن عفان، يوم الجمعة 18 ذي الحجة سنة 35 هـ بدأت الفتنة الكبرى بين المسلمين، وبدأت معها الانقسامات في الاسلام، ولم تفلح حماية الحسن والحسين، ابني الامام علي بن أبي طالب اللذين أرسلا من قبل والدهما ليدافعا عن الخليفة عثمان. فالكارثة وقعت، ومضاعفاتها بدأت. فتأزم الموقف، وانفجر الوضع المأساوي بين المسلمين. إن مقتل عثمان لم يكن سبباً للانفجار وإنما كان نتيجة له:

ومنذ ذلك التاريخ تسلم الخلافة علي بن أبي طالب وأول ما قام به عزل عمال الأمصار من أقرباء عثمان لعدم استقامتهم في مهامهم. وهذه الخطوة كانت سبباً رئيساً من الأسباب التي أدت إلى اشتعال النار في عهده. لأن الولاة المعزولين كانوا قد أثروا إثراء فاحشاً في عهد عثمان فامتلكوا الدور والقصور والضياع فصعب عليهم انقطاع أبواب الرزق عنهم فألبوا عليه.

ثم إن طلحة والزبير بعد أن بايعا علياً وكانا في صفه، نقضا بيعته لأنه لم يوافقهما على توليتهما على اليمن والعراق، ولم يوافقانه على ما يقسم لهما من بيت مال المسلمين، فذهبا إلى مكة واتفقا مع السيدة عائشة على الخروج على

علي، وكانت عائشة على خصام دائم مع علي. وعندما علمت بمقتل عثمان صاحت: «واعثماناه ما قتله إلا علي» أما الولاة المعزولون فقد وصلوا أيضاً إلى مكة وانضموا إلى صف المعارضة ضد علي. وهكذا حدثت واقعة الجمل التي قادتها عائشة في 10 جمادى الثانية سنة 36 هـ وانتهت بانتصار علي ومقتل طلحة والزبير، ورحيل عائشة إلى المدينة. ثم يأتي دور معاوية بن أبي سفيان، والي الشام منذ عهد عثمان. بدأ الصراع عندما أرسل إليه علي بالكتب والرسل يطلب إليه مبايعته، فرفض معاوية. وكرر علي مراسلته بعد واقعة الجمل فرفض أيضاً، ولم يقف عند حد الرفض فقط، بل سرعان ما اتهم علياً بأنه يحمي قتلة عثمان، وطلب منه تسليم القتلة لأخذ الثأر منهم، وإلا فليس بينهما إلا السيف!

أعد الفريقان العدة للحرب وكانت واقعة صفين خلال عامي 36 ـ37 ولما أحس فيها معاوية بالهزيمة وكاد يفشل، طلب إلى عمرو بن العاص، مستشاره الأول، ان يدبر حيلة تخلصه من هذا المأزق الصعب. فاخترع عمرو حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح وتعليقها في أعناق الخيل طالبين تحكيم القرآن.

أما أصحاب علي، وبصورة خاصة القراء منهم، فقد أخذوا بهذا الرأي وسرت عليهم هذه الخدعة، وتوقفوا عن القتال. عندها حاول علي أن يبين لهم أنها حيلة مدبرة وقال لهم: «كلمة حق يراد بها باطل» لكنهم لم يقنعوا مما اضطره إلى قبول التحكيم. وعلى أثر هذه الخدعة انقسم جيش علي وانتهى الأمر بخروج المتحاربين في صف علي من القتال احتجاجاً على وقف الحرب، وقد عرف هؤلاء باسم «الخوارج» لأنهم خرجوا على طاعة الخصمين. اضطر علي أن يذعن لقبول التحكيم، كما أذعن في قبول أبي موسى الأشعري حكماً من قبله، وكان لا يريده، ويعلم جيداً أنه ليس كفؤاً لعمرو بن العاص الذي اختاره معاوية وأهل الشام من قبلهم. وفي رمضان سنة 38 هـ اجتمع الحكمان في أذرع قرب دومة الجندل، وتفاوضا في الأمر، فاتفقا على خلع الاثنين من الخلافة، علي ومعاوية، وترك الأمر شورى بين المسلمين. وبعد الاجتماع طلب عمرو بن العاص من أبي موسى الأشعري أن يصعد المنبر قبله، بحجة كبر سنه، ويعلن النتيجة.

فصعد أبو موسى وأعلن خلع علي من الخلافة.

ثم أقبل بعده عمرو بن العاص وأعلن تثبيت معاوية في الخلافة وتأييده.، فعلا صوت أبي موسى، لكنه أسكت في الحال.

وهكذا كانت نتيجة المؤتمر المهزلة، نصراً سياسياً لمعاوية وأصبح علي والحالة هذه أمام خيارين: إما القبول بالحكم والتنازل عن الخلافة لمعاوية، وإما الرجوع عن وعده في أن ينزل عند حكم الحكمين المختارين. فاختار الرفض، وهو أهون الشرين، ولم يبق أمامه سوى قتال الخوارج الذين رفضوا التحكيم أصلاً، والذين عاثوا فساداً في البلاد. وكان شعارهم «لا حكم إلا لله» كما كان عليه أيضاً قتال جيوش معاوية.

سار علي بجيشه ولاقى الخوارج في النهروان ودارت بينهما معركة شرسة، وتم النصر لعلي وهزموا شر هزيمة.

بعد معركة النهروان عاد إلى الكوفة استعداداً لقتال معاوية. لكن كان هناك مخطط وضعه الخوارج يقضي بقتل «علي ومعاوية وعمرو بن العاص» لتخليص المسلمين من شرهم. فنجا معاوية وعمرو بن العاص من المحاولة ولقيا المتآمران عليهما ميتة فظيعة. أما الخارجي عبد الرحمن بن ملجم فقد غدر بالإمام علي وهو يصلي في المسجد، إذ ضربه بسيف مسموم شق جبهته فمات علي بعد ثلاثة أيام وكان ذلك في 17 رمضان سنة (40 هـ).

فدعا عبد الله بن جعفر ابن ملجم وقتله فمات للحال.

بعد مقتل الخليفة الامام علي بيومين بويع للحسن بالخلافة فقام يدعو إلى قتال معاوية. لكن أهل الكوفة لم يخلصوا له، ولم يتحمسوا للقتال معه. وجيش علي كان قد أصابه التمزق والضياع، ورسل معاوية نشروا الدعاية المضللة ضد الحسن في الكوفة.

فلم يجد الحسن أمامه سوى التفاوض مع معاوية حقناً للدماء. وكان ذلك في ربيع الأول سنة 41 هـ فسلم الجميع بخلافة معاوية ما عدا الخوارج، وسمي ذلك العام «عام الجماعة» لاجتماع كلمة المسلمين.

بدأ معاوية بقتال الخوارج وكلف بذلك المغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه ليقتفوا أثر هؤلاء الخوارج ويضيقون عليهم الخناق وكانت له معهم مناوشات مستمرة.

أما الشيعة، فلم يستمروا طويلاً في مهادنة معاوية، على أثر تنازل الحسن بن علي له بالخلافة. إذ غضبوا عندما رأوا المغيرة بن شعبة وزياد ابن أبيه يلعنون علياً عند كل خطبة، فعقدوا الاجتماعات لسب معاوية في المقابل، وأدى هذا إلى أن اتبع معاوية معهم سياسة الشدة والحزم والتنكيل. فقتل زعيمهم حجر بن عدي وقتل معه كل من أعلن ولاءه لعلي بن أبي طالب.

تولية يزيد بن معاوية 60 هـ ــ 64هـ

كان لنظام الملك عند الأكاسرة والقياصرة أثره البالغ في نظرة معاوية إلى مستقبل الحكم عند العرب، كما كان لنزاع المسلمين على الخلافة وما نتج عنها من فتن دامية وانقسامات أليمة تأثير كبير أيضاً على تفكيره. فقد كان في حيرة وارتباك من أجل تسليم الحكم إلى ولده يزيد. فعزم على نقل نظام الوراثة في الحكم إلى الدولة العربية. وعند ذلك يصبح بامكانه تلقائياً تولية ابنه يزيد وقد شجعه على هذا الأمر مستشاره الثاني المغيرة بن شعبة. لكن الرأي السائد في الحجاز هونظام الشورى الوارد في القرآن والذي طبقه النبي ﷺ طيلة حكمه. فوقف معاوية أمام مشكلة كبرى لا يستطيع تجاوزها، لأن في الحجاز كبار أسياد العرب كالحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله ابن الزبير، وعبد الله بن العباس. فما العمل؟! لم يجد معاوية وسيلة سوى انتزاع بيعة هؤلاء تحت التهديد والقتل. كل ذلك من أجل أن يضمن الحكم لابنه يزيد قبل موته. وقد حاول جهده فلم يستطع أن يستكرههم غلى البيعة، ولكنه استطاع أن يستكرههم على الصمت.

وهكذا تمت البيعة ليزيد سنة 60 هـ وفي هذه السنة نفسها توفي معاوية بعد أن قضى في الحكم 40 سنة.

على أثر ذلك غادر الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير المدينة وأقاما في مكة حيث لازم ابن الزبير الكعْبة متحيناً الفرص المناسبة ليعلن بطلب البيعة لنفسه.

أما الحسين فلم يلبث أن سار إلى الكوفة هو وأهل بيته، لأن كل الشيعة المقيمين فيها كتبوا يستقدمونه لمبايعته. وقد نصحه أصحابه قبل السفر إلى الكوفة

بعدم الذهاب لخطورة الموقف آنذاك. أرسل الحسين ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليستطلع الأمر عن كثب. فقتله والي الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري بعد أن تخلى عنه شيعة الكوفة ولم يتجرؤوا على مساعدته.

صمم الحسين على المسير إلى الكوفة وفي طريقه إليها قابل الشاعر: «الفرزدق» فسأله عن أهل الكوفة، فأجابه الفرزدق: «خلّفت أهل الكوفة قلوبهم معك وسيوفهم مع بني أمية».

وخلاصة القول: وقعت معركة كربلاء في 1 -10 محرم سنة 61 هـ أو قل: مأساة كربلاء التي قتل فيها كل أنصار الحسين وأهل بيته وفي اليوم العاشر قاتل قتالاً عنيفاً حتى استشهد.

ثم حمل رأسه وجاؤوا به مع النساء، السبايا، والأطفال إلى يزيد بن معاوية في دمشق وبينهن السيدة زينب أخت الامام الحسين ومعها طفل مريض هو: علي زين العابدين.

وقد أدت مأساة كربلاء إلى ازدياد انتشار مذهب التشيع وخاصة بين الفرس. وجد هؤلاء الفرصة مناسبة للتمرد على الحكم الأموي والعمل ضد الأمويين الذين استبدوا بهم وظلموهم وكان والي الكوفة آنذاك عبيد الله بن زياد بن أبيه، وقائد الجيش الأموي الذي قاتل الحسين هو عمر بن سعد بن أبي وقاص.

واقعة الحرة: بعد مقتل الحسين بن علي جاهر عبد الله بن الزبير بطلبه بالخلافة إلى نفسه، فأرسل عندها يزيد بن معاوية جيشاً كبيراً لتأديب هذا المعتدي على الحكم الأموي. فوقعت بينهما معركة حامية في مكان يدعى وادي الحرة. الواقع شمالي المدينة المنورة.

أسفرت المعركة عن سقوط المدينة بعد أن استباحها الجيش الأموي ثلاثة أيام. ثم تابع هذا الجيش سيره إلى مكة المكرمة حيث كان يقيم ابن الزبير فحاصرها في أوائل سنة 64 هـ.

وهذه أول مرة تحاصر فيها مكة في التاريخ الاسلامي، على اعتبار أنها حرم مقدس لا يحل القتال فيه. وهذا ما شجع ابن الزبير على اللجوء إليها. لكن يزيد استباح الحرمات والمحرمات ودارت معركة شرسة مما أدى إلى هدم الكعبة في 3 ربيع الأول سنة (64 هـ) وخلال القتال، انتقم الله لبيته الشريف فوصل خبر وفاة

يزيد في 14 ربيع الأول سنة 64 أي بعد هدم الكعبة بـ 11 يوماً. فتوقف الحرب بين الجيشين وتولى معاوية بن يزيد الحكم.

تولية معاوية بن يزيد 15 ربيع الأول 64 هـ - 3 ذي القعدة 64هـ

بوفاة يزيد انتقل الملك بصورة طبيعية إلى ولده معاوية، وكان شاباً في أول عمره، وضعيف الإرادة، لا حول له ولا طول، فتنازل عن الحكم من تلقاء نفسه تاركاً الأمر للمسلمين يولون أمرهم من يشاؤون لم يزد عهده على شهر ونيف، وما لبث أن توفي بعد ذلك في العام نفسه. وانتقل بوفاته الحكم من بني سفيان إلى بني مروان.

تولية مروان بن الحكم 3 ذي القعدة 64 - 27 رمضان 65 هـ

بعد وفاة معاوية بن يزيد اضطرب أمر الأمويين فاجتمعوا في دمشق بالجابية وتناظروا وتحاوروا حتى استقر رأيهم على تولية مروان بن الحكم، وكان شيخاً كبير السن، ثم يتولى بعده خالد بن يزيد وكان فتى طائشاً، ثم يأتي بعده عمرو بن سعيد. مقابل هذا الاتفاق كان هناك تكتل يقوده عبد الله بن الزبير في مكة يناصره الضحاك بن قيس الفهري عامل دمشق، والنعمان بن بشير الأنصاري عامل حمص، وزفر بن الحارث عامل قنسرين. فضلاً عن عمال البصرة والكوفة وخراسان.

بدأت المعركة بين أنصار الضحاك بن قيس ومروان بن الحكم في مكان يدعى مرج راهط سنة 65 هـ فانتصر مروان وقتل الضحاك. وبعد فشل الضحاك وقتله هرب كل من النعمان بن بشير، وزفر بن الحارث، فأمر مروان جيشه بتعقبهما حتى تمكنوا من قتل النعمان، ونجا زفر بن الحارث منهم بطريقة عجيبة.

ثم سار مروان إلى مصر فافتتحها في جمادى الأولى سنة 65هـ بعد معركة الخندق وولى عليها ابنه عبد العزيز بن مروان.

لكن ولاية مروان لم تطل كثيراً إذ توفي في رمضان سنة 65 وهو ابن 61 سنة وكان قد عهد بالخلافة لابنه عبد الملك ثم عبد العزيز مخالفاً بذلك اتفاق الجابية.

تولية عبد الملك بن مروان 27 رمضان 65 هـ - 14 شوال 86 هـ

ولي عبد الملك الحكم بعهد من أبيه، وكانت البلاد الاسلامية آنذاك

مضطربة، فالحجاز كانت تحت سيطرة عبد الله بن الزبير والعراق وكان منقسماً إلى ثلاثة تيارات:

تيار ابن الزبير، وتيار الخوارج، وتيار التوابين، وهم الشيعة الذين تابوا لخذلانهم الحسين بن علي وتخليهم عن مناصرته، فعادوا يدعون إلى آل البيت والأخذ بالثأر لهم وعلى رأس هؤلاء سليمان بن صرد.

توجه إلى هؤلاء عبيد الله بن زياد فهزمهم وقتل رئيسهم ابن صرد ولم يكد يفرغ عبيد الله من التوابين حتى فوجىء سنة 66 هـ بظهور المختار الثقفي الذي ادعى أنه مرسل من قبل محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية، للأخذ بثأر الحسين. فاستمال بعض الناس في أول الأمر وكوّن جيشاً من العرب والموالي لقتال عبيد الله بن زياد، التقى الجيشان ودارت بينهما معركة انتهت بقتل عبيد الله بن زياد وانتصار المختار. إلا أن هذه الواقعة، على الرغم من أنها عدت انتصاراً لأتباع الحسين، إلا أنها لم تزد نفوذ المختار قليلاً أو كثيراً. لأن ابن الزبير وابن الحنفية كانا يسيئان الظن بالمختار. بل ان ابن الحنفية تبرأ منه حين علم أنه ينشر مبادىء غريبة. فتحسباً منه أمر عبد الله بن الزبير أخاه مصعباً بمقاتلة المختار فوقعت بينهما بالقرب من الكوفة سنة 67 هـ معركة انتهت بمقتل المختار.

وبعد أن انتهى عبد الملك من هزيمة التوابين واتباع المختار (المختارية) لم ينس عمرو بن سعيد، وهو الذي وعد في مؤتمر الجابية بالخلافة بعد موت مروان وخالد بن يزيد، فقتله بيده وذلك على أثر خروجه على عبد الملك.

وهكذا لم يبق أمام عبد الملك إلا خصم واحد هو ابن الزبير. خرج عبد الملك سنة 71 هـ إلى العراق ولاقى مصعب بن الزبير ومصعب معروف ببطولته وبعد تجربته في أحوال الحروب، فتمكن عبد الملك من قتل مصعب بعد أن خانه قواد جيشه باستمالة عبد الملك لهم بالمال والمنصب.

دخل عبد الملك الكوفة فبايعه أهلها ثم أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي لمقاتلة عبد الله بن الزبير، الذي أحس بالهزيمة بعد مقتل أخيه مصعب. والحجاج معروف بقسوته وشدته.

اتجه الحجاج بجيش عرمرم إلى مكة وضرب الكعبة بالمنجنيق، حيث كان يقيم ابن الزبير، وشدد عليه الحصار حتى انتهت المعركة بمقتل عبد الله بن

الزبير في جمادى الثانية سنة 73 هـ وعلى أثر انتصار الحجاج على ابن الزبير، آخر الخارجين على عبد الملك، كافأه فولاه على الحجاز كله.

أما في العراق فكان الخوارج الذين كانوا سبباً في استمرار الاضطراب وازعاج عبد الملك، فوجه اليهم الحجاج سنة 75 هـ لا بجيش كبير بل في اثني عشر راكباً، حيث دخل الكوفة متلثماً متنكراً، ودخل المسجد وخطب في الناس مهدداً متوعداً فقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى.

وجاء في الخطبة:

وإن أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، نثر كنانته فعجم عيدانها فوجدني أمرها عوداً وأصلها كسراً فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال والله لأحزمنكم حزم السلمة... إلى آخر الخطبة.

كانت خطبته، كما نرى، قاسية جداً ملؤها التهديد والوعيد، فلم يجسر أحد على معارضته، إذ كان يأخذ بالريبة والظنة، ويقتل قوماً ليرهب آخرين. ومن الكوفة انتقل إلى البصرة وعامل أهلها معاملة أهل الكوفة. لكن الخوارج الأزارقة (نسبة إلى نافع بن الأزرق) لم يهدأوا عن حملاتهم العنيفة ضد الأمويين، فولى عبد الملك المهلب بن أبي صفرة لقتالهم، وكان على رأس هؤلاء الشاعر قطري بن الفجاءة الذي بايعه الأزارقة 69 هـ وسموه أمير المؤمنين. بدأت الحرب بين المُهلّب والأزارقة في الأهواز قتل فيها نافع بن الأزرق (64 هـ) وانهزم الأزارقة. وأخيراً تخلى عن قطري معظم أتباعه فسقط قتيلاً سنة 78هـ

وبعد القضاء على الأزارقة قاتل الحجاج الخوارج الصفرية (نسبة إلى رئيسهم عبد الله بن صفار، أو إلى صفرة عَلَتْهم من كَثرة العبادة) الذين كان يتزعمهم شبيب بن يزيد الشيباني. وبعد معركة ضارية انتصر الحجاج عليهم نصراً نهائياً لم تقم لهُم بعده قائمة. وكان ذلك سنة 77 هـ.

ثم ظهرت بعد الصفرية مشكلة خروج عبد الرحمن بن الأشعث على عبد

الملك وعلى الحجاج. وابن الأشعث هذا قائد عسكري معروف أرسله الحجاج إلى سجستان لمحاربة ملكها لمماطلته في دفع الاتاوة أما سبب تمرد ابن الأشعث فيعود إلى عدة أسباب:

- زيّن له جنده فكرة انتزاع الخلافة لأن عبد الملك بن مروان ليس عنده الكفاءة أكثر منه، في نظرهم.

- غروره بنفسه، كان عنجهياً يتيه بنفسه على أقرانه، والغرور كما هو معلوم مرض نفسي يودي بصاحبه إلى المهالك والمآسي.

- تعنيف الحجاج له لتباطئه في تنفيذ الخطط العسكرية الموضوعة مما جعل الحجاج يظن به ويتهمه بالجبن.

لذلك كله جرت بين الفريقين عدة وقائع كان آخرها واقعة دير الجماجم سنة 82 هـ التي هزم فيها ابن الأشعث.

وبعد مقتل ابن الاشعث بأربع سنوات توفي عبد الملك بعد أن أخذ البيعة لابنه الوليد.

تولية الوليد بن عبد الملك 4 شوال 86 - 15 جمادى الثانية 96 هـ

تسلم الوليد من أبيه الخلافة بعد أن قضي على معظم الاضطرابات الداخلية وسلمه البلاد هادئة سالمة من كل عكر. فانصرف إلى متابعة الفتوح التي كانت قد توقفت منذ عصر عثمان بسبب اضطراب أحوال البلاد بشأن الخلافة.

وقد توفي الوليد سنة 96 هـ بعد أن حقق هذه الفتوحات الواسعة التي درت على الدولة أموالاً طائلة. لكن الخيانات لعبت دورها ولم تكن المكافآت عادلة. توفي الوليد سنة 96 أي بعد الحجاج بسنة واحدة. فخلفه في الحكم أخوه سليمان....

تولية سليمان بن عبد الملك 15 جمادى الثانية 96 هـ ــ 10 صفر 99 هـ

أراد الوليد تأكيد الحكم لابنه عبد العزيز قبل موته كما فعل معاوية لابنه

يزيد، وقد شجعه على ذلك الحجاج بن يوسف، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، لكن المنية عاجلته، فحقد عليه أخوه سليمان لأن الملك عقيم، كان يريدها لنفسه، فحل هذا الحقد والغضب على قواد الوليد. فأمر سليمان بسجن محمد بن القاسم، فقبض على هذا المسكين فجأة وحمل مقيداً من السند إلى العراق. ومن عز الحكم إلى ذل السجن. ثم عذب كثيراً في سجنه ثم قتل.

فقال وهو في السجن:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

وهذا القول يذكرني بقول أبي فراس الحمداني في سجنه في بلاد الروم:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وأما موسى بن نصير فكان حظه أسوأ بكثير من محمد بن القاسم لقد أهانه سليمان بن عبد الملك وأساء إليه كثيراً فقتل له ابنه عبد العزيز، وخلع ابنه الآخر عبد الله من شمال افريقيا ثم مات موسى في السجن.

ولم يبق من قواد الوليد سوى قتيبة بن مسلم الباهلي فقد عزل أولاً ثم قتل بعد العزل.

وفي عهد سليمان سار أخوه مسلمة بن عبد الملك سنة 98 هـ إلى القسطنطينية فحاصرها لكنه لم يتمكن من فتحها. وبعد سنة من هذا الفتك والقتل والتعذيب بالآخرين توفي سليمان سنة 99 هـ. وتولى مكانه عمر بن عبد العزيز، فرجعت الحملة بأمر من الخليفة الجديد وإذا ما تفحصنا الأمور ملياً وجدنا ان عهد سليمان رجع بمسيرة الخلافة الأموية خطوات إلى الوراء، لأن سليمان بالاضافة إلى ضعفه السياسي، غلبت عليه العصبية القبلية، فقد كانت أمه يمنية، مثل يزيد بن معاوية، فتعصب سليمان لأخواله من اليمنيين، مما أدى إلى شطر الدولة الأموية إلى شطرين: يمنية ومضرية. وعادت العصبية القبلية القاتلة إلى الوجود.

تولية عمر بن عبد العزيز 10 صفر 99 هـ ــ 20 رجب 101 هـ

عهد سليمان بن عبد الملك بالحكم إلى عمر بن عبد العزيز من بعده،

وصرف النظر عن تولية أولاده، كما فعل غيره من الحكام الأمويين، وكان ذلك بناء لنصيحة أحد خاصته. ولعل هذا خير ما فعله سليمان في حياته. فقد كان عمر بن عبد العزيز ورعاً تقياً، عادلاً حافظاً للعهود والمواثيق، فقيهاً عالماً بالحديث من علماء المدينة، وفي صفر سنة 99 هـ كان سليمان بن عبد الملك في مرج دابق، شمالي سورية، في حملة على بلاد الروم، فتوفي، ولم يكن أحد من ولديه أهلاً للخلافة فولى مكانه ابن عمه عمر بن عبد العزيز الذي كان معه في مرج دابق.

سار عمر بن عبد العزيز بالخلافة سيراً حسناً، فعامل الرعية بالاحسان، ومنع الظلم، وأبطل لعن علي بن أبي طالب على المنابر في عقب خطبة يوم الجمعة[1]، وجعل مكان اللعن الآية الكريمة من سورة النحل: **﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون﴾**[2]. ومن كثرة تسامحه دخل أهل مصر وأهل التركستان في أيامه ومنع عمر بن عبد العزيز أعضاء البيت المالك من بني أمية أن يأخذوا من بيت المال فوق ما يستحقون، فنقم عليه هؤلاء، ويبدو أنهم هم الذين دسوا له السم[3].

ولما أبطل سب علي وكتب بذلك إلى الآفاق، قال كثير عزة:

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف　　　بريأ ولم تتبع مقالة مجرم

فرضي عنه العلويون. وكان بلاطه مليئاً بأهل التقوى. ومن إصلاحاته:

- عزله للولاة الظالمين واستبدالهم بأكفاء صالحين وإرساله إلى المغرب عشرة من الفقهاء لنشر الدين الاسلامي، ودعوة الملوك لاعتناق الاسلام على أن يدفعوا الجزية ولا يمس استقلالهم، فاستجاب له بعضهم.

- رفع الجزية عمن أسلم فشكا إليه بعض الولاة نقصاً محسوساً في بيت المال بسبب كثرة دخول الناس في الاسلام للتخلص من دفع الجزية. واستأذنوه في

(1) راجع العرب والاسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط للدكتور عمر فروخ بيروت 1378 هـ ص 111.

(2) الآية 90.

(3) المرجع نفسه.

فرضها على من اعتنق الإسلام، فمانع في ذلك وقال كلمته المشهورة لوالي مصر (أيوب بن شرحبيل الأصبحي): «ضع الجزية عمن أسلم، قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً، ولم يبعثه جابياً».

وفي سنة 101 من شهر 25 رجب توفي عمر بن عبد العزيز وخلفه يزيد بن عبد الملك.

تولية يزيد بن عبد الملك 20 رجب 101 هـ ـ 26شعبان 105هـ

بدأ عهد يزيد بظهور فتنة دبرها يزيد بن المهلب الذي كان قد حبسه عمر بن عبد العزيز لأنه عجز عن دفع خمس ما جباه من أموال أثناء فتحه طبرستان وجرجان، وعندما مات عمر سمحت الظروف لابن المهلب ففر من سجنه وقصد البصرة وجمع حوله الأنصار وبذل الكثير من الأموال فكثر أتباعه وأنصاره. عندها سار إلى عدي بن أرطاة الفزاري والي البصرة وسيطر عليه ثم فتح الأهواز وفارس وكرمان، وخلع يزيد بن عبد الملك فندب الخليفة الأموي أخاه مسلمة ليؤدب ابن المهلب.

التقى الجيشان في بابل وجرت بينهما معركة حامية انتهت بقتل ابن المهلب وبعض أخوته. فركب من بقي من آل المهلب وأتباعهم السفن حتى صاروا إلى إقليم السند، فتبعهم جيش مسلمة وقتلوا منهم جمعاً غفيراً وأسروا الباقين، وانتهى أمر آل المهلب.

أمّا عن الفتوحات الاسلامية فإنها بقيت مستمرة حتى وصل الجيش الاسلامي إلى اسبانيا ومنها إلى الحدود الفرنسية، ثم اجتازتها وحاصرت (تولوز) لكن الجيش الفرنسي استطاع القضاء عليها. ومن المعروف عن يزيد بن عبد الملك انه كان خليعاً لاهياً، تجددت الخلافات بين اليمنية والمضرية في عهده. وأصبح اليمنيون أعداء الحكم الأموي آنذاك بعد أن كانوا من الأنصار سابقاً كما رأينا في عهد سليمان بن عبد الملك، وأصبح العنصر المضري حزب الحكومة الأموية. توفي يزيد في شعبان سنة 105 هـ وهو شاب بحدود 38 سنة تاركاً الحكم لأخيه هشام.

تولية هشام بن عبد الملك 26 شعبان 105 هـ ـ 6 ربيع الثاني 125 هـ

رأى هشام من الأنسب له نقل مقر الخلافة من دمشق إلى الرصافة شمالي

شرقي الشام. يروى عنه انه كان غزير المعرفة حليماً، لكنه كان شديد التمسك بالدنيا بخيلاً. مال مع القيسيين لأن أمه كانت قيسية، وفي أيامه خرج زيد بن علي زين العابدين حفيد الامام الحسين بن علي، وإليه انتسبت الطائفة الزيدية، طالباً الخلافة لنفسه؛ سار إلى المدينة ليتخذها مركزاً له، لكن أهل الكوفة أغروه كما أغزوا جده قبله، فعرج إلى الكوفة بعد أن انضم اليه أهل المدائن، والبصرة، والموصل، وواسط، وخراسان، وجرجان، والجزيرة. مما أقلق الحكم الأموي فكلف في التصدي له يوسف بن عمر الوالي الأموي ووقعت بين الفريقين معركة ضارية أدت إلى استشهاد زيد. وبعد زيد خرج على هشام أيضاً الحارث بن سريج التميمي لأن هشام كان قد فاجأ الموالي بضريبة خراجية باهظة، لا قبل لهم باحتمالها، فاستغل الحارث هذه الفرصة وكراهية الموالي للدولة الأموية فجمع حوله بعض الناقمين من العرب ممهداً للخروج على الحكم الأموي. لكنه سرعان ما فشل وخيب أمله: أسد بن عبد الله القسري والي خراسان، والنصر بن سيار من بعده، فلم يفسح له المجال ليكمل مشروعه، فانكفأ راجعاً إلى بلاد ما وراء النهر وفي تلك الأثناء كانت السياسة الأموية تسير من السيء إلى الأسوأ وزاد السخط العام ضد الحكم الأموي لعدة أسباب من أهمها:

- فرض الجزية على الذميين التي كان قد رفعها عمر بن عبد العزيز.
- تجدد الانقسام بين اليمنية والمضرية.

توفي هشام في ربيع الثاني سنة 125 هـ في الرصافة تاركاً الحكم بعده لابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك.

تولية الوليد بن يزيد 6 ربيع الثاني 125 هـ ـ 27 جمادى الثانية 126 هـ

في عهده بدأ الانقسام الداخلي بين أبناء الحكم الأموي حيث بدأ الوليد بالاقتصاص من أنصار هشام الذي كان قد أساء إليه أثناء حكمه. فعزل عمال هشام جميعهم وعذبهم عذاباً مراً،ما خلا الوالي يوسف بن عمر الثقفي الذي لم يجد عليه الوليد مأخذاً يدينه به.

وفي أيامه أيضاً قتل رجال نصر بن سيار يحيى بن زيد بن علي بن الحسين. كما قتل يوسف بن عمر، بايعاز من الوليد، خالد بن عبد الله القسري أحد سادات اليمن. مما أوغر هذا الحادث قلوب اليمنية الذين أسرعوا إلى يزيد بن الوليد بن

عبد الملك يبايعونه ويخلعون الوليد بن يزيد الذي كان قد تحيز إلى جانب المضرية أي إلى جانب أخواله.

وهكذا غلب الأمر على الوليد إذ وثبوا عليه وكان يحتمي بالقرآن ويقول: «يوم كيوم عثمان».

ولكن هذه الحيلة لم تنفعه بل انقضوا عليه وجزوا رأسه. وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رأس رمح وطيف به في شوارع دمشق. وكان ذلك في جمادى الثانية سنة 126 هـ.

وتجدر الاشارة إلى أن الوليد كان شاعراً مجيداً في الخمر خاصة والغزل قال فيها أشعاراً كثيرة أخذها عنه الشعراء فأدخلوها في أشعارهم بعد أن سلخوا معانيها كما فعل أبو نواس والحسين الخليع بن الضحاك[1]. ومع أن الخمريات الخالصة عنده قليلة، فإن خصائصها واقتصارها على الخمر وحدها تجعله أول من خرج بالخمر من أن تكون غرضاً، كما رأينا عند الأعشى والأخطل مثلاً، إلى أن تصبح فناً قائماً بنفسه كما رأينا عند أبي نواس.

ومما قاله حين نعي له هشام وصارت الخلافة إليه:

طاب يومي ولذّ شرب السُّلافة ... إذ أتانا نعيٌّ من بالرُّصافة[2]

وأتانا البريد ينعي هشاماً ... وأتانا بخاتم للخلافة

فاصطبحنا من خمر عانة صرفاً ... ولهونا بقينة عزّافة[3]

تولية يزيد بن الوليد بن عبد الملك وأخوه إبراهيم 7 جمادى الثانية 126 هـ ـ 7 ذي الحجة 126 هـ

في عهده ساءت أحوال بني أمية السياسية ونشبت العصبيات بين اليمنية والقيسية، بين عرب الشمال وعرب الجنوب في الشام وخصوصاً في فلسطين، وفي العراق وفي خراسان. كما أن الدعوة العباسية قد زاد نفوذها في خراسان.

---

(1) راجع الفخري ص 97.

(2) النعي: الذي يحمل النعي. الرصافة: مدينة بناها هشام غرب الرقة على الفرات.

(3) اصطبح: شرب الخمر صباحاً. عانة: بلدة على الفرات في أعلى العراق. القينة! الجارية المغنية. عزافة: حسنة العزف على العود.

وقد طمع يزيد بن الوليد بالحكم فاتخذ من هذه الأحوال المضطربة، ومن فسق ابن عمه الوليد بن يزيد حجة له، فجمع حوله نفراً من بني أمية ومن بينهم من كان يطمع بالحكم مثله كمروان بن محمد. فثار على الوليد بن يزيد وقتله وتولى هو مكانه.

وكان الوليد بن يزيد قد زاد أعطيات الجند وأهل الحجاز ليسكتوا عن المطالبة بالخلافة، فلما جاء يزيد بن الوليد أنقصها وردها إلى ما كانت عليه من قبل، فسمي «يزيد الناقص».

وكذلك كانت سياسته يمنية فاشتدت مقاومة القيسية له. ثم امتنع مروان بن محمد عن بيعته، وكان يتولى قيادة الجيوش في أرمينية، فعظم الاضطراب في أيامه في كل مكان.

كان يظهر التنسك، ومع ذلك كان يقول بالقدر[1]، فلما أظهر ذلك انصرف عنه كثيرون ممن كانوا ينصرونه، وقد كان من خطباء بني أمية المعدودين. توفي سنة 126 هـ تاركاً الخلافة لأخيه ابراهيم لكن بيعة يزيد لأخيه ابراهيم لم تصمد كثيراً إذ سار إليه مروان بن محمد وخلعه.

تولية مروان بن محمد 7 ذي الحجة 126 هـ ــ 14صفر 127 هـ

كاد مروان ينفجر غيظاً من ابراهيم لاعتقاده أنه هو أحق منه بالخلافة من حيث الكفاءة والبطولة، فلم يكتف بخلعه بل أسرع إلى قتله وصلبه، وقتل كل من جاراه من الأعيان، وعند ذلك اشتعلت نار العصبية بين المضرية واليمنية، وتعصب مروان للمضرية فمالت اليمنية إلى الدعوة العباسية، وبويع لمروان في دمشق في صفر 127 هـ وهو آخر خلفاء بني أمية.

في عهده كثرت الاضطرابات وزادت الفتن من شتى الألوان، ففي الكوفة خرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يطلب الخلافة لنفسه، وقد ناصره الشيعة، لكن والي العراق آنذاك عبد الله بن عمر بن عبد العزيز استطاع ان ينفيه عن العراق.

وفي الشام تكاثرت الاضطرابات، إلا أن مروان تمكن بواسطة أعوانه من

---

(1) القول بالقدر هو القول بقدرة الانسان على أن يعمل ما يريد ويختار وبانكار القضاء والقدر، وكل ما يصيب الانسان من خير أو شر مكتوب عليه منذ الأزل.

السيطرة عليها، من تلك الاضطرابات ثورة أهالي حمص والغوطة ثم أهل فلسطين.

ثم خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك داعياً إلى نفسه فقضى مروان على ثورته؛ وحيال انشقاق أهل الشام، جدد الخوارج نشاطهم فاستولوا على الكوفة بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني وتعاظم خطرهم، فلاقاهم مروان وهزمهم وقتل الضحاك.

كل هذه الفتن شغلت مروان عما يجري في الكوفة مقر التشيع الاساسي، وفي خراسان حيث كان من السهل نشر دعوة أهل البيت. لأن الأمويين كانوا قد أساؤوا معاملة الخراسانيين، فكان هؤلاء مستعدين للمشاركة في تقويض أركان الدولة الأموية وتغيير الحكم. وقد صور محمد بن علي بن عبد الله بن العباس هذا الوضع بقوله:

«أما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي بن أبي طالب، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف وتقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب أعلاج ومسلمون في أخلاق نصارى، وأما أهل الشام فلا يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني أمية، وأما أهل الكوفة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر، لكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وصدوراً سليمة وقلوباً فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانة ولم يزالوا يذلون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج...».

لم يكن للثورة العباسية شعار واحد، بل نراها رفعت عدة شعارات منها: الدعوة إلى الرضى من أهل البيت، والعمل بموجب كتاب الله وسنّة نبيه، والقضاء على أهل الجور، والثأر لأهل البيت استناداً إلى الآية الكريمة: **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور﴾** [1]. وكان من شعاراتها أيضاً: العمل من أجل إنقاذ المظلومين في المجتمع الأموي استناداً إلى الآية الكريمة: **﴿أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظُلِمُوا وان الله على نصرهم لقدير﴾**[2] كما كانت ترحب بكل فكرة تناهض الحكم الأموي، من أي مصدر كانت.

---

(1) الشورى الآية 23.

(2) الحج الآية 39.

كان محمد بن علي العباسي المحرك الأساسي للثورة العباسية، والمنظم لها من مقره في مكان يدعى الحميمة. وقد لاقى رجال الدعوة متاعب كثيرة وبذلوا تضحيات كبيرة. فقد نكل أسد بن عبد الله القسري الأمير الأموي في خراسان بالشيعة وتعقبهم فرداً فرداً.

وما لبث أن توفي محمد بن علي إمام الشيعة فقام بالدعوة بعده ابنه ابراهيم بن محمد المعروف بابراهيم الامام، فأرسل هذا جماعة من الدعاة إلى خراسان، وكاتب مشايخها فأجابوه ودعوا إليه سراً، وأرسل في آخر الأمر أبا مسلم الخراساني إلى خراسان، وقد تم كل ذلك سراً.

عندما رأى أبو مسلم تفكك أركان الحكم الأموي أعلن دعوة بني العباس مع نصر بن سيار أمير خراسان، وعاجل هذا الأخير الاتصال السريع بالخليفة مروان يحذره من الخطر المحدق به. قال له:

أرى بين الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم	يكون وقودها جثث وهام
فإن النار بالعودين تذكى	وان الحرب أولها كلام
فقلت من التعجب: ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام؟!

فرد عليه مروان وقال: «إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب» «فاحسم أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك». ثم عرف مروان ان من يدعون له هو ابراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أخو السفاح والمنصور، فألقي القبض على ابراهيم وهو في مسجد الحميمة وحمل إلى مروان بعد أن أوصى ابراهيم إلى أخيه أبي العباس وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبي العباس.

وقد تم ذلك. وحبس ابراهيم في سجن حران وفيه توفي سنة 131 هـ عن 48 سنة، وقيل أن مروان دس له السم.

ثم جرت بين أبي مسلم وبين نصر بن سيار وغيره من أمراء خراسان حروب ووقائع كانت الغلبة فيه لجيش أبي مسلم الذين سموا: بالمسودة لأن الزي الذي اختاروه هو اللون الأسود.

وعند انتقال السفاح والمنصور وجماعة من أقاربهم إلى الكوفة نزلوا بضيافة كبير الشيعة آنذاك، «أبو سلمة حفص بن سليمان الخلاّل» ثم وافاهم أبو مسلم

الخراساني من خراسان وبايع السفاح بالخلافة. عندها اشتد أمر السفاح وأظهر الدعوة علانية وخطب في الناس في المسجد فبايعوه وكان ذلك في سنة 132 هـ.

بعد ذلك أرسل عمه عبد الله بن علي لقتال مروان، فالتقى الجيشان بالزاب قرب الموصل وبعد معركة ضارية انهزم جيش مروان، وانتصر جيش عبد الله بن علي، وفر مروان إلى مصر فلحقوا به وقتلوه هناك في ذي الحجة سنة 132 هـ وأرسلوا رأسه إلى السفاح في الكوفة. وقد حقق المثل: بشر القاتل بالقتل ولو بعد حين.

وبذلك انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين، ومن مروان بن محمد إلى أبي العباس السفاح.

الخلافة الأموية 41 هـ ـ 132 هـ = 661 م ـ 750م

اسم الخليفة	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
1 ـ معاوية بن أبي سفيان	ربيع الأول 41 هـ	661 م
2 ـ يزيد بن معاوية	رجب 60 هـ	680 م
3 ـ معاوية بن يزيد	15 ربيع اوول 64 هـ	683 م
4 ـ مروان بن الحكم	3 ذو القعدة 64 هـ	683 م
5 ـ عبد الملك بن مروان	27 رمضان 65 هـ	685 م
6 ـ الوليد بن عبد الملك	14 شوال 86 هـ	705 م
7 ـ سليمان بن عبد الملك	15 جمادى الآخرة 96 هـ	715 م
8 ـ عمر بن عبد العزيز	10 صفر 99 هـ	717 م
9 ـ يزيد بن عبد الملك	20 رجب 101 هـ	720 م
10 ـ هشام بن عبد الملك	26 شعبان 105هـ	724 م
11 ـ الوليد بن يزيد	6 ربيع الثاني 125هـ	743 م
12 ـ يزيد بن الوليد بن عبد الملك	27 جمادى الآخرة 126هـ	744 م
13 ـ ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك	7 ذي الحجة 126 هـ	744 م
14 ـ مروان بن محمد	14 صفر 127 -132 هـ	747 -750 م

الفصل الثالث

البيئة الاجتماعية

أولاً ـ أجناس الشعوب التي تكون منها المجتمع العربي في العصر الأموي

1 ـ في الشام والعراق

إن المنطقة الممتدة من آخر حدود الشام في الجنوب الغربي إلى ما بين دجلة في الشمال الشرقي حوت شعوباً كثيرة مختلفة الأجناس والآداب والعادات والأعراف وأقدم هذه الشعوب الساميون الذين يرجعون في نسبهم إلى سام بن نوح. وقد تفرعوا إلى ثلاثة فروع:

أ ـ الآراميون: سكنوا ما بين النهرين والعراق والقسم الشرقي من سوريا.

ب ـ العبرانيون: سكنوا فلسطين وشواطىء سوريا.

ج ـ العرب: سكنوا الجزيرة العربية وبادية الشام والعراق وسيناء.

أما اللغة السائدة آنذاك فكانت اللغة الآرامية التي اشتقت منها لغتان هما: السريانية والكلدانية، لأن السريان والكلدان قد انبثقوا من الآراميين. بالاضافة إلى الآرامية سادت أيضاً العربية والعبرية، هذا فضلاً عن لغات أخرى، بقيت محصورة نسبياً، كالحميرية والحبشية.

أما توزيع الشعوب في الشام والعراق إبان ظهور الإسلام فقد كان على الصورة التالية:

السريان: كانوا في الشمال والشرق، والسامريون واليهود في الجنوب.

العرب: الغساسنة والمناذرة وقبائل إياد وربيعة بين النهرين هذا فضلاً عن شتات

أم أخرى ومولّدي اليونان والرومان والفرس والأكراد كالجرامقة والجراجمة.

وقد انصهرت تلك المجموعات في بوتقة الأديان، فكان ثمة النصارى واليهود والسامريون. والنصارى انقسموا الى:

ملكانيين ويعاقبة ونساطرة وموارنة الذين يقولون بطبيعتين للسيد المسيح، وهم معدودون من الكاثوليك.

أما سكان الشام والعراق فقد خضعوا إلى طبقة نبلاء الرومانيين وواحدهم كان يسمى بطريقاً[1].

والعرب الفاتحون فقد اقتصروا حتى نهاية حكم عمر بن الخطاب على جعل البصرة والكوفة والفسطاط حصوناً عسكرية ينزل فيها الجند نزول الحامية أو جيش الاحتلال. لكنهم ما لبثوا أن خرجوا وتفرقوا في عهد عثمان في الشام والعراق ومصر وفارس.... وعددهم في ذلك الوقت كان لا يزيد على مايتي ألف (200,000)نسمة وعليهم الاهتمام بمملكتهم الجديدة وحمايتها التي كان عدد سكانها يزيد على مئة مليون نسمة[2].

يساعدنا في هذا المجال العلاّمة ابن خلدون حيث قال:

«وافترقوا على الثغور البعيدة والأقطار البائنة عن ممالك الاسلام فنزلوا بها حامية ومرابطين عصباً وفرادى وتناقل الملك من عنصر إلى عنصر ومن بيت إلى بيت، واستفحل ملكهم في بني أمية وبني العباس من بعدهم بالعراق، ثم دولة بني أمية الأخرى في الأندلس، وبلغوا من الترف والبذخ ما لم تبلغه دولة من دول العرب والعجم من قبلهم، فانغمسوا في الدنيا، ونبتت أجيالهم في ماء النعيم، واستأثروا مهاد الدعة، واستطابوا خفض العيش وطال نومهم في ظل الترف والسلم، حتى ألفوا الحضارة ونسوا عهد البادية وانتقلت من أيديهم الملكة التي نالوا بها الملك وغلبوا الأمم من خشونة الدين وبداوة الأخلاق ومضاء المضرب، فاستوت الرعية والحامية...»[3].

---

(1) البطريق اسم رومي يعني: قائد كبير في جيش الروم. وجاء في لسان العرب بطرق: البطريق بلغة أهل الشام والروم وهو منصب قائد وجمعة بطارقة كما يقال إن البطريق اسم عربي وافق العجمي، وهي لهجة أهل الحجاز.

(2) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 4 ص 48.

(3) تاريخ ابن خلدون ج 6 ص 1 و2.

ثم توالت الهجرات إلى مناطق الفتوح فاستقر في مصر والشام من بطون خزاعة، على أن الغالب في نزوح العرب عن أحيائهم وانتجاعهم المدن أو أكنافها قد يكون بإيعاز بعض الخلفاء أو الأمراء، وخصوصاً بعد رجوع العرب إلى العصبية القبلية من قحطان وعدنان، وقيسية ومضرية في عهد الدولة الأموية. فكان الحاكم الأموي أو الوالي إذا تولى وخاف على سلطانه من حاكم آخر أو أمير آخر، ذي عصبية خاصة، استقدم جماعة من قبيلة أخواله أو ممن ينتمي إليهم بالحلف ونحوه، وفرض لهم العطاء والهدايا، كما حدث في عهد الوليد بن رفاعة على مصر في عهد هشام بن عبد الملك.

وثمة سبب آخر قد يكون الباعث على استقدامهم وإقرارهم رغبة من الحاكم أو الوالي في التخلص من شرهم[1].

وقد حدث تنقلات أخرى كثيرة كانتقال الزط إلى سواحل الشام في عهد معاوية، وانتقال بعضهم إلى العراق على يد الحجاج بن يوسف. وانتقال بعض أهالي بخارى إلى البصرة وواسط.

يضاف إلى هذه التغييرات انتقال جماعة من البرابرة والجرامقة والجراجمة التي كانت تشارك في الحملات، فتقيم حيث يتم الفتح. ومن البديهي أنهم كانوا يختلطون بالسكان ويتزاوجون منهم ويتناسلون أما القبائل العربية المستوطنة من زمن بعيد في العراق كالمناذرة وفي الشام كالغساسنة فقد كانوا يشاركون في الحروب، علماً أن هاتين القبيلتين كانتا على خصومة دائمة، لأن المناذرة يناصرون الساسانيين والغساسنة يناصرون البيزنطيين.

إلا أن هذا الوضع زال بعد الفتح العربي، غير أن الآثار الحضارية لم تزل، فالحيرة كانت تتبع الكنيسة النسطورية التي سيطر عليها السريان في العراق والجزيرة العربية. ولا يخفى ما لهؤلاء من دور هام في الترجمة والتعريب ونقل العلوم المختلفة إلى العربية وقد كانوا على صلة وثيقة بالثقافة الاغريقية.

انتشر السريان في حوض دجلة الأعلى وفي الجنوب في الحيرة وضواحيها مما جعل القبائل المتدفقة من نجد والحجاز إلى العراق يتأثرون بالثقافات المختلفة كالثقافة الفارسية والثقافة اليونانية والثقافة السريانية.

---

(1) راجع تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 52.

ولما بزغ الاسلام بنوره البهي ﴿**ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا**﴾ كان تأثيره على الناس أقوى فانتشرت العلوم الاسلامية وحلت الكوفة والبصرة محل الحيرة[1]، وأصبح الجو في العراق مطبوعاً بالطابع العربي الاسلامي. لكن الذي عاق المسيرة الاسلامية العربية تلك العصبيات التي كان يزكيها الأمويون في العراق فقد شقت صفوف القبائل العربية والموالي معاً فزاد الخرق وعظمت البلية! ففي الكوفة توزعت هذه القبائل على الشكل التالي:

شرقي الكوفة استوطنت القبائل اليمنية وكان عددها 12 ألفاً.

وغربي الكوفة استوطنت النزارية وكان عددها 8 آلاف ثم قسم كل جزء حسب القبائل. وقد دار بين هاتين القبيلتين صراعات عصبية عنيفة إلا أن صراعات عرب الكوفة مع عرب البصرة أخذ شكلاً إقليمياً، فربيعة الكوفة تقاتل ربيعة البصرة، ويمن الكوفة تقاتل يمن البصرة، وهكذا القول في مضر ونزار وغيرهما[1].

إن وجود العرب بين هؤلاء السكان سبب في نشوء الطبقات الاجتماعية المختلفة وكان لهم تأثيراً وتأثراً إن في استقرارهم أو في ترحالهم.

فظهر الموالي وظهر الرقيق، وتبعاً لذلك ظهر المولّدون والهجّان ومما لا ريب فيه كل هذا سبب نشوء طبقات جديدة وعصبيات جديدة، وشعوبية جديدة. فالعربي كان يأنف من أن يتساوى بالفارسي والرومي وغيرهما من الأعاجم. لأنه يتميز عنهما بالأخلاق الكريمة والعادات الفاضلة. فالمتنبي العربي يأنف حتى من أخيه إذا ما لم يجده من الكرام. فقال:

وآنف من أخي لابي وأمي　　　إذا ما لم أجده من الكرام

وقد استتبع هذا أموراً هامة أخرى دخلت في بناء الهيكلية الاجتماعية العربية أهمها:

1 - اعتنى العرب عناية خاصة بأنسابهم ليحفظوها من شوائب العجمة فقد جعل الأمويون سجلاً خاصاً في كل ديوان يقيدون فيه من يولد من أبناء العرب المقيمين في البلاد المفتوحة[2].

---

(1) الاغاني ج 2 ص 96 ووفيات الأعيان تحقيق إحسان عباس ج 1 ص 206.

(2) تاريخ الطبري ج 5 ص 207.

ومن شدة اعتناء العرب بالانساب جعلوا للخيل أنساباً يعتمدونها فالجواد الأصيل مميز عن باقي الخيل وسعره غال جداً. وقد ألف كتاب بهذا الشأن «أنساب الخيل».

2 - يمنع على غير العربي المناصب الدينية. جاء في تاريخ التمدن الاسلامي: «لا يصلح للقضاء إلا العربي»[2].

3 - يحرم ابن الأمة من منصب الخلافة، حتى لو كان أبوه قرشياً. إلا أن ذلك لم يصمد كثيراً أمام الواقع الاجتماعي إذ إن يزيد بن الوليد تولى الحكم من أبيه وأمه غير عربية.

4 - يمنع الزواج من غير أهل الكتاب إلا إذا أسلموا. وهذا المنع مبني على منع شرعي، جاء في القرآن الكريم: **﴿ولا تَنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة باذنه ويبيّن آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾**[3].

وسبب آخر اجتماعي قد يكون لتشدد العرب بحفظ أنسابهم وان المرأة العربية المسلمة تعلم عادات وتقاليد وأعراف بيئتها، وتتقن تربية أطفالها حسب أصول التربية الاسلامية النبيلة. ولا سيما ان المرأة هي ركن أساسي في بناء المجتمع المسلم.

5 - كان العرب في أول عهدهم يأنفون الأعمال الزراعية واليدوية الحرفية لأن ذلك في نظرهم هو من شؤون الموالي وسكان البلاد المفتوحة.

وفي هذا، أوجدوا طبقية مهنية بينهم وبين السكان الآخرين. ومن المعروف

---

(1) خطط المقريزي ج 1 ص 94.

(2) نقلاً عن وفيات الأعيان لابن خلكان.

(3) البقرة الآية 221.

أن الناس في العصر الأموي قد انحصروا في طبقتين رئيسيتين: المسلمين وغير المسلمين.

والمسلمون طبقتان: العرب وغير العرب وهم الموالي.

وغير المسلمين: هم أهل الذمة من الفرس والروم والقبط والأنباط وغيرهم. وبكلمة موجزة نقول: إن الأمويين ظلوا نسبياً أقل اختلاطاً بالسكان من العباسيين. لترفعهم عن هذا الاختلاط تحت تأثير المحافظة على العرق والنسب، والبقاء على البداوة. من هذا المنطلق وصف الجاحظ الدولة الأموية فقال: «دولة الأمويين عربية أعرابية». ومما يروي المؤرخون أنه كان يمنع على غير العربي الدخول في مناصب الدولة وشغل وظائفها.

2 ـ البيئة الاجتماعية في مصر

يتألف المجتمع المصري إبان الدعوة الاسلامية من فئتين:

أ ـ الرومان أو الروم وكانت عاصمتهم الاسكندرية، ومنهم رجال الدولة، والجند، وبعض رجال الدين.

ب ـ الأهالي وهم الأقباط الأصليون يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان. والأقباط كانوا على المذهب اليعقوبي.

ولما فتح العرب مصر انتقل إليها على التوالي موجات من القبائل العربية، فنزلوا في المدن والأرياف واستوطنوها، ثم اختلطت أنساب العرب بأنساب المصريين بما كان بينهم من تزاوج، وبعد أن دخل عدد كبير منهم في الاسلام.

وقد كانت الثقافة الإغريقية الرومانية منتشرة فيها، وكانت اليونانية تدرس في الاسكندرية، التي كانت تحوي أكبر وأقدم مكتبة في العالم. وكذلك كانت تدرس اللغة السريانية.

وهو أمر طبيعي، لأن السريانية كانت لغة اللاهوت المسيحي ومصر كانت مسيحية قبل الفتح الاسلامي، لذلك انتشرت السريانية في أديرتها ولقيت عناية خاصة من رهبانها[1]. ومصر كانت أسبق من الشام والعراق في الاتصال بالثقافة الرومانية الاغريقية، فقد أوجدت الأفلاطونية الحديثة، وانبرى علماؤها في

---

(1) راجع فتح العرب لمصر لبتلر ص 84.

اللاهوت يفيدون من الفلسفة اليونانية، ويشرحونها، ويعلقون عليها. كما ساعدهم في ذلك علماء الاسكندرية.

وقد أثرت هذه الثقافة في الأجيال التالية على الرغم من إغلاق مدرسة الاسكندرية، وقد هجرها أساتذتها إلى انطاكية في عهد عمر بن عبد العزيز (99 هـ - 101 هـ). وظلت عناصر هذه الثقافة منتشرة في مصر بدليل ما عرفت به في العصور التالية من كثرة الأطباء.

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا أن كثيراً من القبائل العربية قد هاجرت إلى مصر حينما سمعت بخيراتها العميمة.

وأكثر القبائل التي هاجرت إليها من العرب من اليمنية، أي من جنوب شبه الجزيرة العربية التي لم تنبغ في الشعر والأدب نبوغ القبائل الشمالية من مضرية وقيسية.

3 ـ البيئة الاجتماعية في بلاد فارس

كانت بلاد الفرس تضم شعوباً شتى من أمم مختلفة، ومما تتميز به عن سكان العراق والشام بميزات جوهرية هي:

اللغة، والدين، والجنس. فلغة سكان فارس الفارسية، وهي لغة آرية من أخوات لغات أوروبا.

ودينهم الزردشتية أو المجوسية، وجنسهم من الجنس الآري وعند الفتح العربي وبعد تمازج القبائل الآرية وبعض القبائل من الترك والديلم، تولد نتاج بشري جديد، المولّدون، كانوا يسمّون «الطاجية» وكانت فارس عند ظهور الاسلام في ظل الدولة الساسانية[1].

وبعد الفتح العربي دخل كثير من السكان في الاسلام، وتقاطرت أعداد كبيرة منهم إلى العراق لأسباب مادية وسياسية وعسكرية واجتماعية ودينية. وقد وصف أحمد أمين هذه الحالة فقال: «انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة، فرغب الناس في البصرة فأتوها»[2]. وهذا القول هو رد أحدهم على

---

(1) راجع كتاب ايران في عهد الساسانيين ترجمة الدكتور يحيى الخشاب القاهرة 1957.

(2) فجر الاسلام ص 180.

الخليفة عمر بن الخطاب بشأن حال المسلمين وانجذاب العرب ثم الفرس وسواهم اليه.

وما يجدر ذكره أن إقليم فارس كان مضموماً إلى العراق.

إلى جانب هذا، استقرت جاليات عربية في بلاد فارس، إلا أن الحكم الأموي المستبد لم يشجع الاختلاط في تلك البلاد كما صار اليه الحال في العصر العباسي، حيث فتح باب الحريات على مصراعية، الحرية الدينية، والحرية الاجتماعية، والحرية السياسية، حتى أصبحت بغداد (مدينة السلام) أشبه بمدينة بيروت اليوم. التي يجتمع فيها مختلف الأجناس البشرية كل جنس منهم يمارس حرية القول والرأي والعمل والعبادة كما يشاء شرط أن لا يمس حقوق الآخرين وحرياتهم.

وما يلاحظ أن عملية نشوء طبقة الموالي، وطبقة الرقيق ساعد كثيراً على عملية المزج بين الأجناس والشعوب، مما أفقد العرب الأعراب خشونتهم وبداوتهم تدريجياً، وغيّر من نمط معيشتهم في الحياة وطرق تفكيرهم وأساليب بلوغ أهدافهم. كما أدخل الثقافات الأجنبية فتلقحت بها عقولهم وانتجت انتاجاً جديداً. لكنها أدخلت أيضاً اللحن إلى ألسنتهم بسبب التزاوج بالأجنبيات استتبع كل ذلك نشوء الشعوبية والشعوبيين. لكن هذا التيار لم يكن له ليظهر علناً إلا في العصر العباسي.

ثانياً: الطبقات الاجتماعية: الخاصة والعامة

إذا راجعنا تاريخ علم الاجتماع وجدنا جميع المؤلفين فيه يجمعون أن كل مجتمع في العالم وفي أي عصر من العصور يتركب من عدة طبقات مختلفة من النواحي الاجتماعية والدينية والاقتصادية والثقافية وبالتالي من الناحية الحضارية، وقد تأتي ظروف سياسية أو اجتماعية أو عسكرية فتتضافر جميعها لتخلق طبقة جديدة أو لتزيل طبقة أخرى مرشحة للذوبان.

وانطلاقاً من هذه السنّة الاجتماعية تفاعلت القبائل الموجودة على أرض الجزيرة العربية، العرب فيما بينهم، والعرب مع غيرهم من الأجناس البشرية المختلفة، فنشأت طبقات اجتماعية جديدة أهمها: طبقة الموالي، وطبقة الذميين، وطبقة الجند والقواد، وطبقة الولاة والكتاب، وطبقة الشعراء، وطبقة الخلفاء،

وطبقة الصعاليك التي كان لها دور يذكر في المحيط العربي.

ومما يبدو أن هذه الطبقات نشأت في ظروف مختلفة وفي عصور متفاوتة، لكن معظمها نشأ في العصر الأموي نشأة واضحة، بعد أن زرعت نواتها في عصر صدر الاسلام ثم تسارع نموها في العصر الأموي بنتيجة سياسية خاطئة مضللة مبنية على إثارة العصبيات القبلية، وذلك بقصد تفتيت القوة المناهضة لها، وهكذا تمسك العرب الأعراب بعصبيتهم خلال العصر الذي تلا عصر الفتح العربي. فانقسموا هم على أنفسهم إلى قحطانيين وعدنانيين، وفرقوا بينهم وبين الموالي تفرقة واضحة للعيان. كما ظل فريق منهم على بداوتهم محافظين على خشونة الجاهلية وسذاجتها وعاداتها وتقاليدها الخاصة المميزة.

أما في العصر الأموي فقد تغيرت الطبقات الاجتماعية عما كانت عليه في عصر الراشدين. حيث تكتل الناس ضمن طبقتين كبيرتين فكانوا: مسلمين، وغير مسلمين. والمسلمون طبقتان: العرب وغير العرب وهم الموالي. وبقي غير المسلمين وهم أهل الذمة من الروم والقبط والأنباط واليهود والفرس وغيرهم على ما كانوا عليه قبل الاسلام ونذكر هنا أن قسماً منهم كان قد دخل في خدمة المسلمين من كتاب وشعراء، وأطباء، ومترجمين، فألفوا طبقة جديدة من أهل الذمة لم تكن موجودة قبل الاسلام. أضف إلى جانب هذا ما حدث أثناء الفتوح الأموية والحروب الأهلية من انتقال بعض الطوائف وجماعات بشرية من بلد إلى آخر لأسباب سياسية.

وبوجه عام يمكننا تقسيم المجتمع العربي في العصر الأموي إلى طبقتين. كبيرتين: **طبقات الخاصة، وطبقات العامة.**

طبقات الخاصة

تشمل الخاصة في المجتمع الأموي خمس طبقات:

أ ـ الخليفة. ب ـ أهله. ج ـ رجال دولته. د ـ أرباب البيوتات. هـ ـ توابع الخاصة.

أ ــ الخليفة

كان الخلفاء الراشدون يجلسون في المساجد بصورة متواضعة جداً فلا

حراسة ولا حجاب، ويفترشون في بيوتهم الحاجات البسيطة، وبيوتهم عادية كسائر البيوت الأخرى من الأهالي، ولباسهم عادي جداً وأكلهم كذلك. وبصورة عامة كانت حياتهم حياة تقشف وزهد وعبادة. يستقبلون جميع الناس لحل مشاكلهم من أي فئة كانوا، وأبوابهم مفتوحة لكافة قاصديهم دون تمييز بين فرد وآخر، سواء من حيث النسب أم من حيث المركز الاجتماعي أما الخليفة الأموي فيختلف مجلسه عن مجلس الخليفة العباسي فهو أشبه بالملوك كملك كسرى وملك قيصر.

بنى الأمويون قصوراً فخمة لأنفسهم ونصبوا فيها الأسرة والكراسي، وافترشوا الطنافس والوسائد، وعلقوا الستور، وأقاموا الحجاب، ولبسوا أفخر الثياب، وضعوا أدسنم المآدب. وهم بذلك يقلدون الفرس والروم.

ومن أراد الدخول عليهم فلا يستطيع إلا بإذن يكلّف به الحجاب الآذنون، يتوسطون للناس في دخولهم على الخليفة، وذلك بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة، لكل طبقة من الجلساء أو الشعراء، أو الكتاب، أو أصحاب الحاجات وغيرهم.

فالحاجب يدخل من يريد ويؤجل المواعيد لمن يريد ويلغي مواعيد من يريد حسب مزاجه أو حسب ما يحصل عليه من فوائد خاصة. وأول من رتب هذه المراتب وسن منهجية الدخول على الخليفة المفكر المحترف: زياد ابن أبيه والي العراق في عهد معاوية. فجعل الاذن للناس في الدخول على الخليفة على البيوتات ثم على المناصب، ثم على الآداب[1]. وقد يكون مصيباً في رأيه لأنه يخاف على نفسه كما يخاف على من ولاّه، فهو أدرى الناس في سبب خوفهم من الناس وآثامهم وجرائمهم واغتيالاتهم ومكايدهم.

أما الخليفة العادل كالخلفاء الراشدين فلا يخاف من أي أحد لأنه لم يظلم أحداً ولا اعتدى على أحد، ولا حرم أحداً من حق له، ولا تقاعس عن تحصيل حق مظلوم، ولا ميز نفسه عن غيره من عامة الناس فجمع الأموال الطائلة وبنى القصور الفاخرة كما فعل الأمويون فلا داعي للخوف ما دام يعامل الجميع بالعدل

---

(1) راجع في ذلك العقد الفريد ج 1 ص 67.

والاحسان، ويطبق الشريعة الاسلامية على نفسه قبل تطبيقها على الآخرين. «فأبو بكر الصديق كان محبباً إلى الناس سهل المعاشرة حسن المجالسة ذا خلق ومعروف قال في بعض خطبه: «وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم».

وعمر بن الخطاب كان حازماً عادلاً حتى سمي «الفاروق» الذي يفرق بين الحق والباطل».

وعثمان بن عفان كان تقياً ورعاً يقضي معظم أوقاته في قراءة القرآن والعبادة.

وعلي بن أبي طالب كان تقياً ورعاً زاهداً بالدنيا حتى سمي «بأبي تراب» لكثرة زهده. من أقواله الحكيمة «قيمة كل امرىء ما يحسنه» قال الجاحظ: «لو لم نقف من هذا الكتاب (نهج البلاغة) إلا على هذه[1] الكلمة لوجدناها كافية شافية، فاضلة على الكفاية وغير مقصرة عن الغاية» أما في العصر الأموي فتغير الوضع كله.

فإذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة أو الأمير يؤذن أولاً لأشرفهم نسباً، وإذا تساووا في النسب قدموا أكبرهم سناً وإذا تساووا في السن قدموا أكبرهم أدباً. وقد ظلت هذه القاعدة مرعية في العصر الأموي وفي العصور العباسية أيضاً.

ب ـ أهل الخليفة

أهل الخليفة هم بنو سفيان وبنو مروان من الأعمام وأبنائهم، كانوا أعلى الناس قدراً وأرفعهم جاهاً بعد الخليفة، فإذا دخلوا عليه جلسوا على الكراسي وجلس سائر الناس على البسط والوسائد، أما الخليفة فإنه يجلس على السرير. وكان لهم رواتب خاصة يتقاضونها من بيت المال: فضلاً عما ينالونه من النعم والهدايا بحسب مزاج الخليفة ورأيه فيهم.

ج ـ رجال الدولة

الولاة والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من أرباب المناصب العالية. ومن

(1) راجع تاريخ الادب العربي للدكتور عمر فروخ ج 1 ص 264 و280 وص 309.

أبرز صفاتهم الشدة والحزم بصورة عامة، وقد يتجاوزون ذلك إلى العسف والظلم.

ومن أشهرهم ممن اتصف بالقسوة والعنف والظلم الولاة: عمرو بن العاص، وزياد ابن أبيه، وعبيد الله بن زياد، والحجاج بن يوسف، وخالد بن عبد الله القسري.

ومن القواد الذين ضحوا في خدمة الأمويين وكان جزاؤهم القتل والتعذيب: قتيبة بن مسلم الباهلي، ومحمد بن القاسم، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، ونصر بن سيّار.

د ـ أرباب البيوتات

هم الأسياد والأشراف البارزون بين قبائلهم في الحسب والنسب والعلم والمعرفة والأخلاق. وأعلى هؤلاء شرفاً وتكريماً كانوا أهل البيت من أبناء علي بن أبي طالب وأحفاده وهم: الامام الحسن، الامام الحسين، الامام علي زين العابدين، الامام جعفر الصادق، الامام موسى الكاظم، الامام محمد الباقر، الامام علي الهادي، الامام محمد الجواد، الامام علي الرضا، الامام حسن العسكري، الامام المهدي المنتظر.

وبصورة عامة من كان مرجع شرفه إلى اتصال حبل قرباه بالنسب النبوي الشريف، أو بقريش. هؤلاء كان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الأعطيات الخاصة والرواتب المحترمة ويقدمونهم في مجالسهم. وهذه الأنساب كانت أكثر نفعاً في عهد بني أمية منها في أيام بني العباس، ولا سيما بعد أن ضعف العنصر العربي بقتل الأمين وتسلم المأمون، من أم فارسية.

ثم إن الأمويين سعوا جاهدين مراراً إرضاء ذوي النفوذ من أصحاب البيوتات بإغداق الأموال عليهم لإسكاتهم عن المطالبة بالحكم وعدم الاعتراض على شرعية الحكم الأموي.

يضاف إلى هؤلاء الذين ذكرناهم رؤساء القبائل والبطون ممن نالوا شهرة واسعة بالنظر إلى أهمية مآثرهم وقوة شخصيتهم وبعد نظرهم في تصريف الأمور والأحداث. من أهم هؤلاء نذكر: الأحنف بن قيس وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن الأشعث.

هـ ـ توابع الخاصة

استخرجوا من طبقات العامة ليكونوا في خدمة الخاصة. وفي ذلك حظوة سعيدة لهم وأسباب رفاهية لأسيادهم.

وهم أربع طبقات: 1 ـ الجند. 2 ـ الأعوان. 3 ـ الموالي. 4 ـ الخدم.

1 ـ الجند: قبل العصر الأموي كان المسلمون ينضوون تحت لواء الجندية الواحد من أجل الجهاد في سبيل الله، يقاتلون أعداء الاسلام فيصيبون الغنائم والفيء. وذلك عملاً بقوله تعالى: **﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾**[1] وقال سبحانه أيضاً: **﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين﴾**[2].

ولما نشبت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان بن عفان سنة 35 هـ بدأت الحروب الداخلية بين المسلمين وتوقفت حرب الجهاد في سبيل الله سنوات لانشغالهم بالحروب فيما بينهم. وعندما صار الأمر إلى بني أمية تغير الهدف الجهادي واختلفت الموازين. لقد انتظم الجند في ظل دولة واضحة المعالم للدفاع عن السلطة الأموية والمحافظة على الحكم الأموي ضد المناوئين في الداخل، ثم باشروا بالفتوحات الواسعة ضد المناوئين في الخارج فافتتحوا افريقيا والأندلس.

لكن هؤلاء الجند لم ينخرطوا جميعاً بدوافع الايمان، وإنما تجند أكثرهم بالالزام، لأن الناس كانت قد تقاعست عن الحروب وتقاعدت عن الغزوات، إذ كان بعضهم لاهياً مترفاً بسبب ما توافر آنذاك من أموال طائلة وغنى ويسر.

وفئة أخرى كانت منهمكة في تدبير المكايد لمقاومة الحكم الأموي لأنها باعتقادها أن الامويين قد اغتصبوا الحكم اغتصاباً. والبعض الآخر كان قد تعب من عدم الاستقرار وبلاء الحروب المستمرة التي ما ان تنطفىء نارها في مكان حتى تشتعل في مكان آخر فنزحوا من الجزيرة العربية واتجهوا شمالاً نحو العراق وبلاد فارس والشام، كما اتجه قسم منهم نحو مصر وشمال افريقيا، واختطوا لنفسهم

---

(1) البقرة الآية 190.

(2) التوبة الآية 37.

الخطط حيث استوطنوا، وكان يرافق ذلك كله المشاركة في القتال للشاب القادر السليم من الأمراض.

ولما استقر الوضع في الدولة الأموية، أحس هؤلاء بحاجتهم إلى الاستقرار أضف إلى ذلك الشعور العام عند كافة الناس ان الخلفاء الأمويين لا يمكنهم أن يشكلوا قيادة اسلامية قادرة على أن تضم المسلمين للجهاد في سبيل الله، لأن هؤلاء الخلفاء مارسوا حياة بعيدة عن الشريعة الاسلامية ومستلزمات الدين،فكيف يمكن للناس ان تتحمس للقتال في جهاد مقدس تحت لواء هؤلاء الخلفاء؟

يروي المؤرخون أن أول من قام بالتجنيد الالزامي وألزم الناس في التجند هو الحجاج بن يوسف، صاحب الأفكار المحترفة في فنون الحرب، على عهد عبد الملك بن مروان. وبعد ولايته أصبح الجند الاسلامي فئتين: المرتزقة والمتطوعة، وكلاهما من العرب، يرجعون في أنسابهم إما إلى قحطان (اليمنية) واما إلى عدنان (المضرية) وفيهم جماعة قليلة من العبيد والموالي.

2 ـ **الأعوان:** وهم خاصة الرجل ورفاقه، فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والأشراف رفاق خاصة بهم يصطحبونهم في ترحالهم ويجالسونهم في سمراتهم، ويقيمون معهم في منازلهم، ويكون لهم بالمقابل رواتب يقبضونها كل شهر. من هؤلاء كانت طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة أو الأمير أو الشريف، وهم غير الندماء أو الشعراء، وإنما هم رجال عقلاء يستعين الخليفة بمشورتهم ويستأنس برأيهم فيحاورهم ويفاوضهم في شؤونه ومهامه، وتكون له الدالة عليهم، وربما كان بعضهم من أهله وأقاربه ممن يتميزون برجاحة العقل وبعد النظر في حل الأمور الطارئة.

3 ـ **الموالي:** المولى هو الحليف، وهو من انضم إليك فعزّ بعزك وامتنع بمنعك قال أبو عبيدة: المولى يعني المعتق انتسب بنسبك. وسوف نفصل الكلام عليهم في الحديث عن الطبقات العامة.

ومن حسن حظهم أن الدولة الأموية أقصتهم عن الحكم فجلسوا في مجالس الصحابة يدرسون القرآن وعلوم الحديث والتاريخ ومفاخر العرب، كما جلسوا في مجالس الأدباء والشعراء يثقفون أنفسهم بالشعر ويتأدبون بروايته وبنظمه أحياناً.

فكان منهم الشعراء كزياد الأعجم، واسماعيل بن سيار وأخيه موسى وبشار بن برد.

وكان منهم العلماء في علوم الدين والشريعة كنافع وربيعة الرأي شيخ الامام مالك، وسليمان بن يسار وكانوا بالمدينة، ومنهم أيضاً مجاهد وعكرمة وعطاء بمكة.

وبالبصرة كان الحسن بن يسار والحسن البصري وابن سيرين، وفي مصر كان يزيد بن حبيب شيخ الليث بن سعد.

وفي الشام مكحول بن عبد الله

الى غير هؤلاء من الأعلام في الشريعة والدين والتفسير والحديث واللغة من الموالي في عصر بني أمية.

4 ـ الخدم: أكثرهم كان من الرقيق السود والبيض، من الذكور والأناث، وقد اصطلحوا على أن يسموا الأرقاء البيض مماليك، والسود: عبيداً. والخدم حسب طبيعتهم وعملهم قسموا إلى ثلاثة أقسام: أ ـ الأرقاء. ب ـ الخصيان. ج ـ الجواري وسوف نجعل لهم فصلاً خاصاً في الحديث عن الطبقات العامة.

طبقات العامة:

تتألف هذه الطبقات من أمم شتى تقاطرت على البصرة والكوفة والحجاز والشام، وهي أكثر عدداً، وأبعد عن الحصر والعد، وتضم (الشعراء والأدباء والحكماء والمغنين وأهل المنادمة. لكن يمكن أن نقسم هذه الطبقات العامة إلى طبقتين هما:

المقربون من الخاصة، والمزارعون لأهل القرى، وسكان المدن.

أ ـ الطبقة الأولى: المقربون من الخاصة

وهم نخبة العامة الذين يتقربون من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم، فيستظلون بهم، ويعيشون من عطاياهم، والبعض منهم كان يخصص لهم رواتب مقطوعة، والبعض الآخر كان يرتزق من عملهم لهم، وهم فئتان: 1 ـ أهل الفنون الجميلة. 2 ـ الأدباء.

1 ـ **أهل الفنون الجميلة:** ويسميها العرب «الآداب الرفيعة» ويقسمون إلى ثلاث فئات حسب مواهبهم: المصورون، الشعراء، والموسيقيون. فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الاسلامي، لورود بعض الأقوال بتحريمه. وإنما كانوا يصورون الخلفاء الأمويين مقلدين بذلك الروم والفرس. ثم ازدهر التصوير في العصور اللاحقة ازدهاراً ملحوظاً. أما الشعر والموسيقى فقد كان لهما دور كبير في العصر الأموي.

2 ـ **الأدباء:** وينضم اليهم العلماء، والفقهاء، والمحدثون، والنحاة، والنسابون، وهم جميعاً من طبقة العامة تقربوا من الخلفاء والولاة ليتكسبوا، أو قربهم منهم الخلفاء للاستفادة من معارفهم وعلومهم كالعلوم الدينية والتاريخية والأدبية واللسانية. وكان الحديث يجري معهم في مجلس الخليفة باللغة العربية الفصحى، فيعربون الكلام، ويضبطون حركات الألفاظ، فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه «لحّاناً» والأمويون الذين كانوا يرغبون في تعلم الفصحى كانوا يرسلون بأولادهم إلى البادية يشبون فيها ليضبطوا ألفاظهم. وقد أحسنوا ذلك إلا الوليد بن عبد الملك لأن أباه رفض إرساله إلى البادية فنشأ لحاناً، علماً أن اباه كان يكره اللحن. وقد بقيت هذه العادة حتى العصر العباسي[1] وأما عمال بني أمية فكانوا مثل الخلفاء في المحافظة على الإعراب، ولكن عندما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس بالاعراب، وظهر غير واحد من العلماء والفقهاء يلحنون في كلامهم.

ب ـ الطبقة الثانية:

وتشمل أهل القرى، ومنهم يتألف معظم سكان البلاد المفتوحة، وهم أهل ثروتها وعماد اقتصادها. أكثرهم كان من أهل الذمة يقيمون في القرى إلا من أسلم منهم فإنه ينزل إلى المدن.

كانوا يتكلمون لغات البلاد الأصلية: السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام، والقبطية في مصر، والفارسية في بلاد فارس ونواحيها. وبعد الفتوح أخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم واللغة العربية تذوّب اللغات الأخرى وتأخذ

(1) كأبي نواس وغيره من الشعراء والأدباء الذين كانوا يبدون حتى يتعلموا الفصحى في مهدها.

مكانها فتغلبت على ألسنتهم، والاسلام يتغلب على أديانهم، حتى ساد الدين الاسلامي، وعمت العربية أرجاء البلاد الواقعة غربي دجلة وهي: العراق والشام ومصر وافريقية.

سكان المدن

وهم العامة عملوا في التجارة والمهن والحرف المختلفة، والتجارة الرائجة في ذلك الوقت كانت تجارة الرقيق، والجواري، والغلمان. هذه التجارة كانت نتيجة الفتوحات الواسعة وتدفق الأسرى والسبايا من المشرق وافريقيا واسبانيا.

والحقيقة أن جميع المهن اليدوية، بما في ذلك الزراعة لم تكن لتروق للعرب في العصر الأموي، فهم يعتبرونها مهناً وضيعة ليست من مستواهم الاجتماعي بل هي من أعمال الناس العاديين. وهذا أمر يرفضه الاسلام رفضاً باتاً لأن لا طبقية في الاسلام ولا تجاوز لحريات الآخرين فجميع المسلمين أخوة ولا فرق بين فرد وآخر إلا بالتقوى والأعمال الصالحة. وما يجب أن نذكر به أن كثيرين من أشراف العرب المسلمين قد تعاطوا المهن اليدوية والزراعة والتجارة وتربية المواشي وبصورة خاصة في العصر الراشدي وفي عصر صدر الاسلام. فأبو بكر الصديق وعثمان وطلحة وعبد الرحمن بن عوف كانوا بزازين. والعوام أبو الزبير كان خياطاً، وعثمان بن طلحة الذي دفع إليه الرسول ﷺ مفتاح البيت هو كذلك، وعمرو بن العاص كان جزاراً، وعلي بن أبي طالب كان يخسف نعله بيده[1]. لكن عندما تتغير الحياة تتغير معها نظرة الناس اليها ويتغير بذلك ميزان القيمة عبر العصور أو في العصر الواحد. والمال والثراء والانهيال على ملذات الدنيا قد يغير أحوال النفوس وتتغير معها قيم الأشياء[2]. والتاريخ يعيد نفسه فإذا طلب إلى أحد منا وصف مجتمعاتنا التي سموها عصرية فلا أظن أنه يخالف وصف الاحنف بن قيس عندما طلب اليه معاوية أن يصف الناس. فقد لبى الطلب وكان كلامه خير معبر عن تفكير الخاصة بالعامة وعن نظرتهم اليهم والى مهنهم قال الأحنف:

«رؤوس رفعهم الحظ، وأكتاف عظمهم التدبير، وأعجاز أشهرهم المال، وأدباء ألحقهم بهم التأدب، والناس بعدهم أشباه البهائم: إن جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا».

---

(1) راجع المعارف لابن قتيبة ص 575.

(2) راجع علم الاجتماع الأدبي للمؤلف فصل القيمة.

وهكذا يبدو لنا أن نشوء الطبقات في أي عصر من العصور هو رهن بالظروف المختلفة التي تحط بثقلها على صدر هذه المجتمعات، فتستجيب هذه إلى تلك الظروف فتنشأ بذلك طبقات جديدة مستحدثة، وتزول طبقات قديمة، وهي سنة ثابتة عبر التاريخ، سنة التحول والتحويل، وسنة التغيير والتبديل سنة كونية.

ثالثاً: أهل الذمة

تعني الذمة في اللغة والحديث الشريف: العهد والأمان والضمان والحق. وسمي أهل الذمة: ذميين لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم وقد سمي كذلك المعاهد ذمياً لأنه أعطى الأمان على ذمة الجزية التي تؤخذ منه[1]. و«أهل الذمة هم المستوطنون في بلاد الاسلام من غير المسلمين. قيل لهم ذلك لأنهم دفعوا الجزية فأمنوا على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم، وأكثرهم من النصارى واليهود، وقد دعاهم القرآن الكريم «أهل الكتاب» نسبة إلى الكتاب المقدس: التوراة والانجيل، وقد أثنى عليهم وأوصى بهم خيراً»[2].

وقد دعاهم الاسلام إلى المساواة وعبادة الإله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. قال تعالى:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[3].

كما اتجه القرآن الكريم إلى التقريب بين المسلمين والنصارى بصورة خاصة في عدة مواضع. منها قوله تعالى: **﴿لتجدنّ أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا، ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾**[4].

---

(1) لسان العرب مادة ذمم.

(2) تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 103.

(3) آل عمران الآية 64.

(4) المائدة الآية 82.

كما أوصى المسلمين بحسن الحوار معهم والجدال الهادف السليم. قال تعالى: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**[1].

وغيرها كثير من الآيات الكريمة كلها تدعو إلى التقارب والتآخي بين بني البشر، وتأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر[6] كذلك الاحاديث النبوية الشريفة أكثرها يسير في هذا الاتجاه نحو التآخي والمحبة والمساواة بين بني البشر جميعاً ذلك أن النبي أرسل هداية للناس كافة. قال تعالى: **﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾**[2]. وقال ﷺ: **«الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى»**. التقوى هي الأساس في الإسلام وليس غيرها. وحديث آخر **«الله الله في أهل الذمة، أهل المدرة السوداء، السحم الجعاد، فإن لهم نسباً وصهراً»**.

كانت سياسة الفتح العربي متسامحة مع أهل الكتاب، وبصورة خاصة النصارى. إذ كان المسلمون يسارعون إلى قبول الصلح معهم، فيكتب الخلفاء والولاة العهود بحمايتهم في مقابل ما يؤديه أهل الذمة من الجزية عن رؤوسهم.

ويختلف مقدار الجزية ونوعها باختلاف الأحوال، وشروط الصلح تتفاوت تبعاً لظروف الفتح، إن صلحاً أم عنوة، وبحسب مواقع البلاد المفتوحة جاء في الاحكام السلطانية: «إن لكل قوم صلحاً ربما خالف ما سواه»[3] كما ورد في التمدن الاسلامي: «فصلح مصر يختلف عن صلح الشام وصلح الشام غير صلح العراق»[4].

وما يجدر ذكره أن موقف النصارى من الاسلام بصورة عامة، على عهد الرسول، كان موقفاً حيادياً، وعند الأكثرية منهم كان موقف تأييد في بعض

---

(1) العنكبوت الآية 46.

(2) راجع ذلك في المعجم المفهرس لالفاظ القرآن مادة: أهل كتاب ونصارى.

(3) الأحكام السلطانية للماوردي ص 145.

(4) تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان ج 4 ص 106.

الأحيان. ونصارى جزيرة العرب مال جلهم إلى الدخول في الاسلام. أما اليهود فإنهم منذ البدء اتخذوا موقف عداء من الاسلام، يقومون بالمؤامرات والدسائس، ويكتبون العهود مع النبي ثم يخالفونها، وقد انضموا إلى قريش طوال الفترة المكية يتآمرون معهم ضد النبي ﷺ وبعد الهجرة، وانتقال الرسول ﷺ إلى المدينة راحوا يصانعونه على عادتهم، فعقد معهم الرسول عهداً أمّنهم فيه على أنفسهم وأحوالهم ومصالحهم[1]. لكنهم سرعان ما انقلبوا على المسلمين في غزوة الخندق، وخانوا عهودهم، فأجلاهم المسلمون عن المدينة بأمر من النبي ﷺ، وكانت قبيلتا بني النضير والقينقاع اليهوديتان قد حاربتا المسلمين جهاراً وعادتا الاسلام قولاً وعملاً.

وبرغم وجود هذا الفارق الظاهر بين موقف النصارى المسالم وموقف اليهود المعادي، فقد ساوى الشرع الاسلامي بينهما في المعاملة واعتبرهم جميعاً أهل كتاب. لأن الاسلام كما هو معروف عنه دين رحمة وتسامح ومحبة ومساواة فلا يعامل الاساءة باساءة مثلها. قال تعالى: ﴿**إدفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون**﴾[2].

ومن كتب العهود التي عرفت في الاسلام، كتب الرسول ﷺ إلى كل من هرقل ملك الروم، وكسرى ملك الفرس والنجاشي ملك الحبشة والمقوقس عظيم القبط[3].

وكتب القواد أمثال خالد بن الوليد، وأبي عبيدة بن الجراح لأهل دمشق[4].

عهد أبي عبيدة بن الجراح لأهل دمشق[3]

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا الكتاب لأبي عبيدة بن الجراح فمن أقام بدمشق وأرضها وأرض الشام من الأعاجم، إنك حين قدمت بلادنا سألناك الأمان على أنفسنا وأهل ملتنا، وإنا اشترطنا لك على أنفسنا، أن لا نحدث في مدينة دمشق، ولا فيما حولها كنيسة ولا ديراً ولا قلاية[5] ولا صومعة راهب، ولا نجدد ما خرب من كنائسنا، ولا شيئاً منها مما كان في خطط المسلمين، ولا نمنع

(1) جمهرة رسائل العرب لأحمد زكي صفوت ج 1 ص 25.

(2) المؤمنون الآية 96.

(3) جمهرة رسائل العرب ص 2.

(4) المصدر نفسه ج 1 ص 162.

(5) المصدر نفسه ج 1 ص 163.

(6) القلاية من بيوت عبادات النصارى كالصومعة.

كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار وان نوسع أبوابها للمارة، وأبناء السبيل، ولا نؤوي فيها، ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتم على من غش المسلمين، وأن لا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا، ولا نظهر الصليب عليها، ولا نخرج صليبنا ولا كتابنا، ولا نظهر شركاً في نادي المسلمين، ولا نرغب مسلماً في ديننا ولا ندعو إليه أحداً، ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذين جرت عليهم سهام المسلمين، ولا نمنع أحداً من قرابتنا إن أرادوا الدخول في الاسلام، وأن نلزم ديننا حيثما كنا، ولا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم، ولا نتسمى بأسمائهم وأن نجز مقادم رؤوسنا، ونفرق نواصينا، ونشد الزنانير على أوساطنا، وان ننقش في خواتيمنا بالعربية، ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نجعله في بيوتنا، ولا نتقلد السيوف، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم ونرشدهم الطريق ونقوم لهم من المجالس إذا أرادوها، ولا نطلع عليهم في منازلهم، ولا نشارك أحداً من المسلمين إلا أن يكون للمسلم أمر تجارة وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل، ونطعمه ثلاثة أيام، وعلينا أن لا نشتم مسلماً ومن ضرب مسلماً فقد خلع عهده. ضمنا ذلك لك على أنفسنا وذرارينا وأرواحنا ومساكننا. وإن نحن غيّرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك وقبلنا الأمان عليه، فلا ذمة لنا وقد حلّ لك منا ما حل من أهل المساندة والشقاق على ذلك أعطينا الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا، فاقرونا في بلادكم التي ورثكم الله إياها. شهد الله على ما شرطنا لكم على أنفسنا وكفى بالله شهيداً»[1].

إلا أن الدكتور حسين مؤنس يشك في صحة هذا النص ويعتبره موضوعاً؟

وهذا عهد آخر من خالد بن الوليد لأهل الشام أيضاً

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها، أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيءٌ من دورهم، لهم على ذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين، ولا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية. «كتب في رجب سنة أربع عشرة هـ[2].

---

(1) تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 108.

(2) فتوح البلدان للبلاذري ص 127.

معنى الجزية لغة واصطلاحاً

قال جرجي زيدان عن تحديد لفظة (جزية): «فالظاهر ان العرب أخذوها عن الفرس لفظاً ومعنى، فعربوا لفظها حتى صار «جزية»»[1].

وجاء في لسان العرب: «والجزية ما يؤخذ من أهل الذمة، والجمع الجزى مثل لحية لحى. وتكرر لفظة الجزية عدة مرات في الحديث النبوي.

وهي عبارة عن المال الذي يعقد الكتابي عليه الذمة، وهي فعلة من الجزاء كأنها جزتْ عن قتله.

أراد به الخراج الذي يؤدي عنها، كأنه لازم لصاحب الأرض كما تلزم الجزية الذمي، قال ابن الأثير:

«هكذا قال أبو عبيدة هو أن يسلم وله أرض خراج، فترفع عنه جزية رأسه وتترك عليه أرضه يؤدي عنها الخراج، ومنه حديث علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: إن دهقاناً أسلم على عهده فقال له: إن قمت في أرضك رفعنا الجزية عن رأسك وأخذناها من أرضك، وإن تحولت عنها فنحن أحق بها»[2].

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن الرأي السائد ان أصل لفظ الجزية يوناني، وأصل لفظ خراج، أرمني: خراجه، والتفسير المتفق عليه لاستثناء المسلمين من الجزية هو أنها تجبى من غير المسلمين في نظير حماية المسلمين إياهم وهي تجمع لبيت المال لتنفق فيما فيه صالح الدولة ويقال مثل ذلك في الخراج، فقد كان العرب لا يؤدون الخراج أول الأمر وإنما يؤدون العشر، لأن خراج الأراضي المفتوحة كان فيئاً للمسلمين ينفق فيما فيه صالحهم جملة[3].

ولأهل الذمة أحكام ذكرها الماوردي ت 450هـ فوضع باباً خاصاً بالجزية والخراج. والجزية كما هو معلوم على الأشخاص والخراج على الأراضي.

---

(1) تاريخ التمدن الاسلامي ج 1 ص 228.

(2) لسان العرب مادة جزى.

(3) تاريخ التمدن الاسلامي ج 1 ص 228.

اشترط الماوردي في عقد الجزية على أهل الذمة فقال:

ويشترط عليهم في عقد الجزية شرطان: مستحق ومستحب.

أما المستحق فستة شروط:

أحدها أن لا يذكروا كتاب الله تعالى بطعن فيه ولا تحريف له.

والثاني أن لا يذكروا رسول الله ﷺ بتكذيب له ولا ازدراء.

والثالث أن لا يذكروا دين الاسلام بذم له ولا قدح فيه.

والرابع أن لا يصيبوا مسلمة بزنا ولا باسم نكاح.

والخامس أن لا يفتنوا مسلماً عن دينه ولا يعترضوا لماله ولا دمه.

والسادس أن لا يعينوا أهل الحرب ولا يأووا أغنياءهم.

هذه الحقوق الستة ملتزمة تلزمهم بغير شرط، وإنما تشترط إشعاراً لهم وتأكيداً لتغليظ العهد عليهم ويكون ارتكابها بعد الشرط نقضاً لعهدهم.

وأما المستحب فستة شروط:

أحدها: تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار.

والثاني: أن لا يعلو على المسلمين في الأبنية ويكون إن لم ينقموا مساوين لهم.

والثالث: أن لا يسمعوهم أصوات نواقيسهم ولا تلاوة كتبهم.

والرابع: أن لا يجاهروهم بشرب خمورهم ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم.

والخامس: أن لا يخفوا دفن موتاهم ولا يجاهروا بندب عليهم ولا نياحة.

والسادس: أن يمنعوا من ركوب الخيل عناقاً وهجاناً ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير[1].

---

(1) الأحكام السلطانية ص 145.

وأما عن تاريخ الجزية قال جرجي زيدان[1]: «الجزية والخراج متشابهان بأنهما يؤخذان من غير المسلمين، وهما من جملة أموال الفيء، ويجبيان بأوقات معينة كل سنة، لكنهما يختلفان بأن الجزية موضوعة على الرؤوس وتسقط بالاسلام وأما الخراج فيوضع على الأرض ولا يسقط».

والجزية قديمة جداً في التاريخ وليست من محدثات الاسلام، فقد وضعها اليونان على سكان سواحل آسيا الصغرى منذ القرن الخامس قبل الميلاد تقريباً مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين، فهان على سكان تلك البلاد دفع المال في مقابل حماية الرؤوس. والرومان كذلك وضعوا الجزية على البلاد التي أخضعوها لحكمهم، وكانت أكثر بكثير مما وضعه المسلمون بعدئذٍ[2].

والجزية فرضت بنص قرآني. قال تعالى: **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾**[3].

فعلى أهل الكتاب أن يعطوا الجزية بأنفسهم ولا يرسلونها إرسالاً مع غيرهم وبذلك ينفذون شرع الاسلام ولا يجوز لهم أن يخرجوا على الطاعة ويعتصموا ببلدهم. وقد رأى بعضهم من النصارى أن يلبسوا ثوب الرهبنة ليتخلصوا من دفع الجزية، لأن الرهبان لا جزية عليهم. فأدرك العمال حيلتهم تلك فوضعوا الجزية على الرهبان أيضاً، وكان ذلك في عهد عمر بن عبد العزيز فأرسل إلى مروان عامل مصر وأحصى الرهبان، وفرض على كل راهب ديناراً، واحداً، وهي أول جزية أخذت من الرهبان»[4].

وكذلك فعل أسامة بن زيد التنوخي فأحصى الأديرة والرهبان كافة، وألزم كل نصراني بمنشور يحمله ليَدل انه دفع الجزية، وكتب إلى العمال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير جزاءً[5].

---

(1) تاريخ التمدن الاسلامي ج 1 ص 228.

(2) راجع تاريخ التمدن الاسلامي، المصدر السابق.

(3) التوبة الآية 29.

(4) راجع خطط المقريزي ج 2 ص 492 وعنه تاريخ التمدن الاسلامي ج 2 ص 25.

(5) راجع كتاب الخراج لأبي يوسف ص 24.

والأصل في فرض الجزية على الذميين هو خلق توازن بين ما يدفعه المسلمون من زكاة وبين ما يدفعه أهل الكتاب من جزية.

ثم إن كل مسلم يجب عليه الجهاد في سبيل الله أما الذمي فإنه يدفع الجزية اتماماً لمعنى التكافؤ والتقابل، لأنه يكون حينئذٍ معفياً من القتال، وحمايته واجبة على المسلمين، فالجزية هي في الواقع بدل من القتال، لأنها لا توضع إلا على من بلغ الحلم من الأصحاء.

يقول ابن قيم الجوزية: انه لا جزية على مسكين يتصدق عليه، ولا على المريض الذي يمنعه مرضه المزمن من العمل، ولا على المقعد، ولا على المجنون، ولا على الأعمى، ولا على ذي العاهة، ولا على الرهبان في الأديرة ولا على المرأة، ولا على الصبي، ولا على العبد المملوك[1].

وكانت الجزية تؤخذ من ثلاثة أصناف من الذميين ومقدارها:

1 ـ الأغنياء، وقيمة ما يؤخذ منهم 48 درهماً.

2 ـ المتوسطون، وقيمة ما يؤخذ منهم 24 درهماً.

3 ـ الفقراء، شرط أن يكونوا متكسبين من حرفة أو غيرها، وغير مرضى ولا عجز، يؤخذ منهم 12 درهماً[2].

ثم إن تحديد هذه المقادير غير متفق عليه بين الفقهاء، فأبو حنيفة قدره على التوالي: 18 -24 -12 درهماً، في حين حاول غيره تحديد الحد الأدنى والأعلى، وقد ذكر ذلك كله الماوردي في أحكامه[3].

وما يجدر ذكره أن هناك وجهاً مهماً من وجوه الديمقراطية الصحيحة التي شرعها الاسلام وطبقها المسلمون عند وضع الجزية، وهو أنهم، وهم في موقع القوة والمنعة، ارتضوا على أنفسهم بشرطين هامين هما في صالح أهل الذمة وضمان أمنهم.

أولهما: أن الذميين إذا امتنعوا عن أداء الجزية امتنع المسلمون عن حمايتهم.

---

(1) أحكام أهل الذمة ص 49 والأحكام السلطانية للماوردي ص 144.

(2) كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي ص 23 تحقيق أحمد محمد شاكر القاهرة 1347 هـ.

(3) الأحكام السلطانية ص 144.

وثانيهما: أنه إذا عرض للمسلمين ما يمنع حمايتهم جاز لأهل الذمة الامساك عن الدفع.

وهكذا يبدو أن الشرطين السابقين وكأنهما صيغا من قبل فريقين متكافئين في القوة، في حين كان بامكان العرب عدم تقييد أنفسهم بأي شرط.

يستثنى من ذلك حالات البلدان التي افتتحت صلحاً وإذ كان على المسلمين القبول ببعض شروط الصلح.

ومما يلفت النظر أن حياة الذمي في الاسلام كانت مصونة على أكمل وجه. ذكر يحيى بن آدم القرشي قال: «حكي أن رجلاً من المسلمين قتل رجلاً من أهل الكتاب، فرفع إلى النبي ﷺ فقال: أنا أحق من وفى بذمة ثم أمر به فقتل»[1].

واختلف الفقهاء في تقدير فدية الذمي. فقال أبو حنيفة وابن حنبل: إن حياة الذمي تعادل حياة المسلم، وأن ديته عند حصول القتل تساوي دية المسلم. أما عند مالك بن أنس فدية اليهودي أو النصراني نصف دية المسلم، وعند الشافعي ثلثها، وأما المجوسي فديته 1/15 من دية المسلم[2].

ومن مظاهر التسامح عند المسلمين الفاتحين أنه «إذا نقض أهل الذمة عهدهم لم يستبح بذلك قتلهم ولا غنم أموالهم ولا سبي دراريهم ما لم يقاتلوا ووجب إخراجهم من بلاد المسلمين آمنين، فإن لم يخرجوا طوعاً أخرجوا كرهاً»[3].

وقد أحصى المسلمون من وجبت عليه الجزية في جميع أنحاء السواد، فإذا هم خمس مئة ألف وخمسون ألف رجل[4].

ومن المعروف أن الجزية كانت تقبل «من غير المسلمين أياً كانوا، إلا إذا كانوا من العرب عبدة الأوثان من العجم فيقبل منهم الاسلام أو الجزية أو السيف»[5].

---

(1) كتاب الخراج ليحيى بن آدم والحضارة الاسلامية لآدم متز ج 1 ص 87.

(2) الحضارة الاسلامية لآدم متز ص 365 والنظم الاسلامية د. صبحي الصالح ص 365.

(3) الأحكام السلطانية للماوردي ص 146.

(4) الخراج ليحيى بن آدم ص 55 والحضارة الاسلامية لآدم متز ج 1 ص 8[illegible].

(5) تاريخ التمدن الاسلامي جرجي زيدان ج 1 ص 220.

قلنا أن شروط الصلح كانت تختلف من بلد لآخر تبعاً لموقع هذا البلد ولظروف الفتح، ولعل عهد عمر لأهل دمشق كان أكثر العهود تضييقاً وتشديداً. فما هي أسباب هذا التضييق؟ لأن من الواجب أن يتساوى أهل الذمة في جميع أمصارهم بالشروط نفسها.

ما نراه أن هناك أسباباً موجبة جعلت عمر يتشدد في عهده هذا، أهمها: حرص عمر على صيانة بلاد الشام من رجوع الرومان إليها بمساعي أهلها من النصارى، خوفاً من أن يكون هؤلاء عيوناً للرومان على المسلمين لما بينهم من الرابطة الدينية.

وسبب آخر نظنه كان هاماً وهو موقع الشام الجغرافي المحاذي للقسطنطينية، مما يسهل إمكانية الاتصال بين الدولة الرومانية ونصارى الشام، ولا يستطيع المسلمون ضبط هذا الاتصال خاصة وأنهم كانوا في فتوحاتهم يقيمون ضمن معسكرات خاصة، فالفتح العربي كان احتلالاً عسكرياً، ولم يختلط العرب بالسكان الاصليين إلا في عهد الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، ومنذ ذلك تفرق العرب في كل اتجاه وتمازجوا مع الأهالي. أما قبل ذلك فلم يتدخل المسلمون بحياة النصارى في الشام، كما لم يتدخلوا في طقوسهم الدينية ولا في أحكامهم القضائية ولا في أحوالهم الشخصية. وهذا مما جعل عمر بن الخطاب يحذر لما قد يكيده أهل الشام النصارى في الخفاء مع الرومان. خاصة وهو على علم مسبق أن نصارى الشام كانوا يأوون جواسيس الروم في منازلهم ويعينونهم في استطلاع أخبار المسلمين. فربما دخل النصراني بين المسلمين وهو في مثل لباسهم وقد نقش اسمه بالعربية على خاتمه مثلهم وحفظ شيئاً من القرآن. ولذا جاء عهد عمر متشدداً ليقطع الطريق على المكايد.

فالتشديد على النصارى كان رهناً بمصالح الحكم العربي، وليس تحطيماً لأهل الكتاب[1].

---

(1) إلا أن جرجي زيدان يقف على حفظ المقريزي قولاً منسوباً لمعاوية ونصه: «وجدت أهل مصر ثلاثة أصناف: ثلث ناس وثلث يشبه الناس وثلث لا ناس، فأما الثلث الذي هم ناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي، والثلث الذي هم لا ناس فالمسالمة يعني القبط». إلا أن الدكتور حسين مؤنس يرفض هذا القول وينسبه إلى معدة.

ولا يخفى تعصب الأمويين لعروبتهم، مما استتبع نشوء طبقات اجتماعية وحصر بعض المهن، التي كانوا يرونها وضيعة، في طبقة أهل الذمة، وطبقة الموالي كالحرف اليدوية، والأعمال الزراعية، وحتى الكتابية أيضاً. جاء في البيان والتبيين: «إن الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين» لأن هذه الصناعات هي صناعات أهل الذمة[1].

وما وجدنا العرب يعتنون بشيء من العلم غير الشعر والتاريخ لأنه لازم للسيادة والفتح. وأما الحساب والكتابة فقد كانت من صناعات الموالي وأهل الذمة، ولذلك كان العمال في أيام بني أمية مع تعصبهم للعرب قلما يولونهم الدواوين، لأنهم كانوا لا يكتبون ولا يحسبون»[2].

وإذا ما حدث بعض القسوة والعنف أحياناً من قبل الولاة، فإن بعض هذه المظالم كانت ترتفع عمن وقعت عليهم عندما كان المظلومون يوصلونهم إلى كبار المسؤولين. والخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز يعد في طليعة هؤلاء المسؤولين العادلين. فقد استهل عهده بإصدار أوامره إلى العمال لابطال المظالم، وقد عينها بأسمائها مفصلة منعاً لكل طمس ودفعاً لأي تجاهل والتباس. ثم أعلن:

«إن من كانت له ظلامة فليأت» فأتاه المظلومون من جميع الفئات والمذاهب ومنهم النصارى واليهود والموالي وغيرهم، فاستمع لهم ثم استرجع ما اغتصبه الظالمون بمن فيهم أعمامه وأولادهم. مما جعل أهله يخافون على أنفسهم وعلى سلطانهم، فشكوه إلى عمته فاطمة بنت مروان فأتته شافعة فقال لها: «إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة»[3].

وقد شجعت سياسة عمر العادلة الكثير من أهل الذمة على اعتناق الاسلام فقيل يوماً لعامل خراسان، جراح بن عبد الله الحكمي: «إن الناس قد سارعوا إلى الاسلام نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان» فكتب الجراح إلى عمر بذلك فأجابه «إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه خاتناً»[4].

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ ج 1 ص 100.

(2) تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 70 نقلاً عن مروج الذهب للمسعودي.

(3) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج 4 ص 164.

(4) المصدر نفسه ج 5 ص 24.

وأهل الذمة تميزوا عن العرب بقدرتهم على الكتابة والحساب وأعمال الخراج ومعروف عن بني أمية جهلهم لجمع المال، فاستخدموهم في هذا السبيل رغم إرادتهم ولم يكن يهمه ذلك من وجه ديني ولولا ذلك كيف ولّوا خالد القسري العراقين وأمه نصرانية رومية...»[1].

وعمر بن أبي ربيعة، شاعر الغزل القصصي المعروف، أمه نصرانية ماتت والصليب في عنقها[2]. كما كان النصارى في العهد الأموي يدخلون المساجد ويمرون فيها فلا يعترضهم أحد. فالأخطل شاعر بني أمية المعروف، نصراني كان يدخل المسجد علناً فلا يحتج عليه أحد، كما كان يدخل على عبد الملك بن مروان بغير إذن وفي عنقه سلسلة ذهبية فيها صليب ذهب وتنتفض لحيته خمراً[3].

وعلى أي حال كان من طبيعة الأمور أن يعز الاسلام الفاتح الحاكم وينتشر بفعل الايمان العميق الذي كان يدفع بالمسلمين إلى التفاني في خدمة رسالتهم الانسانية، ويعود الفضل في ذلك إلى رجال الدين الذين حافظوا على سمو الرسالة الاسلامية فمنعوا العنف وعاملوا أهل الذمة بالتسامح والرحمة واللين.

وما يحسن ذكره أن من يحترم نفسه يحترم دينه ويفرض احترامه على الآخرين مهما اختلفت الظروف وتباينت الأحوال. فكنا نرى رجالات مسيحية مهمة كانت ذات مكانة مرموقة وكلمة مسموعة في الوسط الأموي، فالراهب «مريانس» كان استاذاً لخالد بن يزيد بن معاوية إذ لقنه صنعة الطب والكيمياء[4]. ويوحنا الدمشقي كان في شبابه نديماً ليزيد بن معاوية ومسؤول إدارة الشؤون المالية في دمشق لغير خليفة[5]. وسرجون بن منصور الرومي كان كاتباً لمعاوية ويزيد ابنه ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان[6]. وحسان النبطي كان كاتباً للحجاج بن يوسف وكان نصرانياً ولم يسلم إلا أيام هشام بن عبد الملك على يد

---

(1) تاريخ التمدن الاسلامي ج 4 ص 117.

(2) الأغاني ج 1 ص 67.

(3) الأغاني ج 8 ص 280.

(4) وفيات الأعيان ج 2 ص 224.

(5) تاريخ العرب المطول لفيليب حتي ج 2 ص 314.

(6) العقد الفريد ج 4 ص 164.

ابن المنتشر[1]. وابن وثال النصراني كان قد استعمله معاوية على خراج حمص[2]. والأخطل شاعر بني أمية وهو نصراني معروف يدخل على الخلفاء الأمويين والصليب الذهبي في عنقه.

والخلاصة: أن الجزية هي جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة، وإعانة للجند الذين يحمونهم ممن يعتدي عليهم من عدو خارجي. وعندما يعجز المسلمون من حمايتهم يردون ما جبي منهم من الجزية والخراج[3].

رابعاً: طبقة الرقيق في العصر الأموي

الرق عند الأمم

الرق قديم جداً قدم الانسان، كان ولم يزل يمارس على بني البشر بأساليب جديدة من قبل أفراد ومن قبل جماعات ومن قبل دول كبرى. فالانسان مفطور على الاستبداد، فالقوي يستعبد الضعيف، والغني يستعبد الفقير. كان الانسان في أول عهده بالعمران إذا غلب عدوه وقبض عليه لا يستعبده وحسب بل يقتله، إلا النساء فقد كانوا يستبقونهن للاستمتاع بهن. ثم صاروا يستعبدون الاسرى ويستخدمونهم في حرث الأرض ورعاية الماشية، وخدمة المنزل، أو نحو ذلك من الخدمات الأخرى. وفوق هذا كله كانوا يبيعونهم في الأسواق بيع المتاع. وكان للرقيق سوق خاص رائجة في الدولة الرومانية، يأتون بالأسرى بالمئات والآلاف، ويبيعونهم بيع الأغنام ويعاملونهم معاملة الحيوانات. ذلك كان شأنهم في عهد التمدن القديم في بابل وآشور ومصر.

وبعد فترة زمنية انتظم حال تلك الدول إلى حد ما فصاروا يتزوجون بالجواري، فبعد أن كان الروماني يتصرف بعبيده كما يحلو له من جلد أو قتل، أصبح قصاصه منوطاً برأي القضاء. حتى إذا ما بالغ السيد في ظلم عبده حكم القضاء عليه وردعه.

---

(1) العقد الفريد ج 4 ص 170.

(2) العقد الفريد ج 4 ص 170.

(3) راجع فتوح البلدان للبلاذري ص 121.

والعبيد ما زالوا كثيرين في المملكة الرومانية. لا يخلو منهم بيت، وأكثرهم من الأسرى أو أبنائهم، يستخدمونهم في المنازل، ويعلمونهم الصناعات على مختلف أنواعها، ويبيعونهم في أسواق خاصة بهم عرفت بأسواق الرقيق، كما عرفت تجارتهم بتجارة النخاسة. والبعض منهم كانوا يعلمون الجواري الرقص والغناء ليبيعهن بأسعار باهظة.

فالفرس كانوا يستعبدون الأتراك في الحرب، ويتهادونهم، وقد يتهادون أبناء الأمراء منهم. وقد استتبع وجود هذه الظاهرة بأعداد كبيرة في كثير من البلدان، وضع نظام خاص بطبقة الرقيق. لكن هذا النظام كان يختلف من شعب لآخر ومن بلد لبلاد أخرى لجهة حسن معاملة الرقيق أو سوئها.

وقد استرق الرومان ومنح القانون الروماني للمالك الحق في إماتة عبده أو استحيائه، وجعله مستبداً غير مسؤول عن تصرفه في عبده، وكثر الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم: إن الأرقاء في الممالك الرومانية يبلغون في العدد ثلاثة أمثال الأحرار. وقد استرق اليونان وكانوا أقل قسوة في معاملة عبدهم.

واليهود كانوا يسترقون أيضاً، وقد أمرت ديانتهم بحسن معاملة الرقيق، وحددت زمن الاسترقاق بسبع سنين، بعدها يصبح الرقيق حراً. واليوم ما زالوا يسترقون ولكن بأساليب جديدة تختلف عن الأولى بطرقها وتتفق معها بأهدافها.

ثم أخذت أحوال الأرقاء تتعدل من حيث المعاملة من عصر إلى عصر.

الرق عند العرب

كسب العرب الرقيق من أسرى الحرب، أو ممن اشتروهم من الأمم المجاورة وبصورة خاصة الحبشة. فكان النخاسون يحملون العبيد والإماء من تلك البلاد وغيرها إلى جزيرة العرب بغية التجارة، يبيعونهم في أسواقها في المواسم، ومن القبائل العربية التي عرفت هذه التجارة قبيلة قريش، .كانت تتجر بالرقيق مثل اتجارها بسائر السلع. ومن أشهر النخاسين في الجاهلية عبد الله بن جدعان التيمي رئيس قريش في حرب الفجار[1]. فكان إذا اشترى أحدهم عبداً وضع في عنقه حبلاً وقاده إلى منزله كما تقاد الدابة[2].

---

(1) مروج الذهب ج 1 ص 282.

(2) المعارف لابن قتيبة ص 112.

وإذا كان العبد أسير حرب جزوا ناصيته وجعلوها في كنانتهم حتى يفتدي نفسه. وكانوا يشترون الأرقاء ويتهادونهم ويتوارثونهم مثل سائر الأمتعة، إلا في حال إذا دبر المولى عبده أي قال له: «أنت حر بعد موتي» فإنه يكون حراً. وقد يخرجون العبيد في جملة صداق العرائس، وممن أخرج في الصداق بشار بن برد، فإنه كان هو وأمه لرجل من الآزد تزوج امرأة من بني عقيل فساق إليها بشاراً وأمه في صداقها[1]. كل ذلك يدل على كثرتهم، ولا سيما عند الملوك والأمراء، حتى ليزيد عددهم على المئات والألوف. فقد وفد ذو الكلاع ملك حمير على أبي بكر ومعه ألف عبد غير من كان معه من عشيرته[2] ولم يكن شريف من أشراف العرب يخلو منزله من عبيد يستخدمهم في قضاء حاجات منزله. فعبد الله بن أبي ربيعة كان له عبيد من الحبشة يقومون بجميع المهن، وكان عدهم كثيراً وفيهم من يخرج للحرب. وقلما كانوا يثقون بأمانتهم[3]. على أنهم كانوا يستعينون بهم في القتال، وكان لذلك شأن بعد الاسلام. وكانوا يجعلون الحد على العبد نصف ما على الحر[4]. وإذا شهد حرباً لا يضرب لهم بسهم[5]، بل يكون سهمه لسيده.

ومن أصناف العبيد المعروفة عندهم «القن» وهو العبد الذي يعمل في الأرض، وعندما تباع يباع معها كأي سلعة أخرى.

وبعض العرب كانوا يتزوجون الإماء اللواتي يرون فيهن نضارة وجمالاً فإذا ولد لهم منهن أولاد استعبدوهم، فإذا أنجب أحدهم ألحقوه بأنسابهم واعترفوا به وإلا بقي عبداً. وأشهر حوادث الاستلحاق كانت على هذه الصورة. وقصة عنترة العبسي ابن الجارية زبيبة، مشهورة. فأبوه شداد لم يلحقه بنسبه أول الأمر، حتى أثبت له عنترة تفوقه وبطولته في القتال فألحقه واعترف به[6].

وكان العرب قبل الاسلام لا يعتقون عبيدهم إلا لسبب هام جداً. أما إذا أراد العبد العتق استباع سيده (أي طلب البيع) فإذا رضي صاحبه باعه لسواه. أما بعد

---

(1) الأغاني ج 3 ص 135.

(2) مروج الذهب ج 1 ص 287.

(3) الأغاني ج 1 ص 32.

(4) الأغاني ج 14 ص 124.

(5) المعارف لابن قتيبة ص 110.

(6) الأغاني ج 7 ص 148.

الاسلام فقد تغيرت حال العبيد تماماً وكثر الاعتاق لحكمة دينية خالصة.

العتق في الاسلام

ورد في القرآن الكريم كلمة رقبة ورقاب. جاء في سورة البلد: «وفك رقبة» أي إطلاق سراح من قيدت رقبته بالقيد والعبودية.

كما وردت كلمة «ما ملكت اليمين» لأن من عادة اليد اليمنى العطاء، ومن هنا القول المأثور: «لا شلت يمينه». جاء في سورة النساء:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا﴾[1] فالله يوصي المؤمنين بأمور أساسية عديدة تساعد في بناء مجتمع إنساني عادل متحضر، من هذه التوصيات الاحسان إلى ما ملكت ايمانهم من الأرقاء. فبعد عبادته سبحانه وتعالى الاحسان والعطف إلى هؤلاء الاشخاص أولهم الوالدين وآخرهم ما ملكت ايمانهم.

وقد حث الاسلام على تحرير الرقاب ووعد من يسعى إلى اعتاق الرقيق كثيراً من الرحمة والمغفرة. ولا ريب أن موقف الاسلام هذا ينسجم مع موقف رسول الاسلام والسلام النبي محمد ﷺ حيث قال: «أوصاني حبيبي جبريل بالرفق بالرقيق حتى ظننت سيضرب له أجلاً يخرج فيه حراً»[2]. ومما أوصى به النبي في حسن معاملة العبيد قوله: «لا تحملوا العبيد ما لا يطيقون، واطعموهم مما تأكلون»[3].

وقال ﷺ: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي». وقد يسأل سائل: لماذا حث القرآن على تحرير العبيد ولم يحرم الرق صراحة؟ ولم يلزم الناس إلزاماً بتحرير عبيدهم؟

أظن أن هذا الأمر راجع إلى الظروف الاجتماعية والحياة القبلية،

---

(1) الآية 36.

(2) النظم الاسلامية د. صبحي الصالح ص 464.

(3) خطط المقريزي ج 1 ص 137.

والاقتصادية والعسكرية والبواعث النفسية عند العرب في ذلك الوقت. ولو افترضنا أن الاسلام حاول إلغاء الرق مرة واحدة، وحرمه تحريماً قاطعاً لعرض الأوضاع الاقتصادية في بيئته وفي بيئات كثيرة في العالم الاضطرابات مرية وأزمات حادة، أهمها:

انتشار الفقر والجريمة من قبل العبيد قبل التحرير.

أضف إلى جانب ذلك مخالفته لنواميس الحياة الاجتماعية التي يصفها علماء الاجتماع بالتدرج في مراحل التطور.

ولما بزغ فجر الاسلام وجد الرق نظاماً عالمياً مشروعاً عند كثير من الأمم في عالم التجارة والزراعة أيضاً حيث كان المعوّل عليه في الحياة الزراعية وتحسينها وتطويرها. ولا نجد «من فيلسوف روماني ولا مفكر يوناني ولا قائد فارسي ولا حبر يهودي ولا زعيم عربي إلا أقر الرق وعمل به»[1].

فموقف الاسلام من الرق كان موقفاً إيجابياً متفهماً لواقع الحال، لأن ليس المهم إصدار القوانين، ولكن المهم تنفيذها وتطبيقها. وحتى يتم ذلك يجب مراعاة واقع الحال للحياة التي تعيشها الأمة في مرحلة معينة من مراحل تطورها. والاسلام، كما لا يخفى على أحد، شجع على تحرير الرقيق، ثم أنشأ طبقة «الموالي» وهي رتبة وسطى بين العبودية والحرية فرفعت من شأن الرقيق ووضعته على درب الحرية. وهكذا وجدنا طبقة الرقيق تتسارع إلى الاندماج في المجتمع الاسلامي لتصبح في طبقة الموالي، وهذه بدورها أخذت تندمج بالمسلمين عن طريق الزواج والمصاهرة.

وهكذا نرى أن الاسلام قد عالج موضوع الرق بالروية والتبصر وليس بالعنف والحل الفوري مستفيداً من عامل الزمن حتى يتعمق الايمان في النفوس وتتسع دائرة انتشار الدين الحنيف. وهذا ينسجم بلا ريب مع وصية النبي ﷺ في حسن معاملة العبيد[2].

أما عن الأسرى الذين يقعون في أيدي العرب من أهل البلاد المفتوحة وفيهم

---

(1) راجع النظم الاسلامية للدكتور صبحي الصالح ص 464.

(2) راجع المصدر السابق وخطط المقريزي.

اليهودي والنصراني والمجوسي والصابي وغيرهم، فهؤلاء إما أن يفتديهم أهلهم، أو يستبقهم المسلمون في خدمتهم لقضاء حاجات المنزل أو رعاية الماشية والابل، أو بري القسي وجمع النبال المتساقطة وقت القتال، أو رواية الشعر وحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، أو يبيعوهم لبعض تجار الرقيق، من العرب أو غير العرب.

وكانت قيمة العبد تعلو أو تهبط حسب كفاءاته ومهاراته. فالذي كان يعرف صناعة أو مهنة يساوي مئة دينار، أما الذي كان عارفاً بصناعة النبال والقسي يقدرون قيمته بأربعماية دينار، وإذا كان يحسن رواية الشعر تصبح قيمته بستماية دينار، «تلك أثمان العبيد في أواسط دولة بني أمية»[1]. ومن المعروف أن الاسترقاق عند عرب الجاهلية كان أكثره بالأسر أو الشراء. أما في الاسلام فكان أكثره بالاسر فقط وأثناء الفتوح، وذلك لكثرة ما كان يقع في أيدي الفاتحين من الأسرى. فكانوا إذا فتحوا بلداً أو غلبوا جيشاً مقاتلاً، أسروا رجاله وسبوا نساءه واقتسموا الأسرى والسبايا والغنائم فيما بينهم.

أما إذا طلب المحاربون الصلح أثناء الحرب أجيبوا إليه متى رأى الامام ذلك، تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها﴾ [2] وعند ذلك يصبح تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا عليه.

وإن لم يحدث صلح لسبب من الأسباب فسوف نجد أسرى حرب وأهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا في الجيش المحارب. فالأسرى ورد فيهم نص قرآني في قوله تعالى:

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما مناً بعد وإما فداءً حتى تضع الحرب أوزارها﴾[3].

من وحي هذه الآية الكريمة يستطيع الامام أن يمن على الاسرى ويطلق سبيلهم، أو يأخذ منهم فدية (مالاً) أو يفتدي الرجل المسلم بالرجل

---

(1) الأغاني ج 1 ص 133.

(2) الأنفال الآية 61.

(3) محمد الآية 4.

المحارب. وهكذا نرى أن الامام كان يتصرف في كل حالة حسب ما يحيط بها من ظروف، هو يقدرها.

وأما أسباب الرق عندهم فكانت:

أ ـ الأسر. ب ـ الدَيْن. ج ـ البيع. د ـ الولادة.

أ ـ الأسر

من المعروف أن العرب في الجاهلية كانوا في حالة غزو ونهب وقتال مستمر، وهذا ما قاد إلى وقوع الأسرى والسبايا، وبالتالي إلى استرقاق العرب قبل الاسلام. وقد بقي هذا واقعاً معروفاً حتى أيام عمر بن الخطاب الذي منع سبي العرب. فقال: «لا سبأ في الاسلام، ولا رق على عربي في الاسلام».

ولا خلاف عند جميع العرب في مسألة الرق فالكل اتفقوا «ان عتق الأسرى العرب أفضل من استرقاقهم»[1].

ب ـ الدَيْن

كان من عادة العرب في الجاهلية بيع الدائن مديونه استيفاء للدين، فقد أجازت هذه العادة الهمجية للرجل أن يبيع نفسه بدين المقامرة، فإذا خسر يصبح بهذه الصورة رقيقاً للدائن الرابح. كما حدث لأبي لهب مع العاصي بن هشام، فقد تقامرا على أن من قمر وغلب كان عبداً لصاحبه، فقمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه إبله[2]. ولما جاء الاسلام بعدالته المعروف وانسانيته النبيلة حرّم هذه العادة السيئة وكل ما شابهها من عادات ذميمة تحط من كرامة الانسان وتسي إلى العلاقات بين الناس.

ج ـ البيع

من المعروف في الجاهلية أن سلطة الأب وصلاحياته كانت مطلقة، فقد شملت حق قتل الأولاد ووأدهم وبالتالي شملت أيضاً حق بيعهم بسبب الجوع والفقر. فالولد المباع يصبح ملكاً للمشتري ورقيقه، ولا يستطيع أن يتحرر إلا إذا

---

(1) بلوغ الأرب للألوسي ج 1 ص 174 والأغاني ج 11 ص 75.

(2) الأغاني ج 4 ص 19.

جمع ثمن البيع عندها يشتري نفسه من صاحبه ويفك رقبته.

ولما جاء الاسلام ناداهم ليكفوا عن هذه العادة السيئة وطمأنهم. قال تعالى: **﴿... ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم﴾**[1] وإذا عدنا إلى قواميس اللغة العربية وجدنا كلمة «غلام» تستعمل للابن والرقيق معاً. كما كانت تستعمل كلمة «عبد» للرقيق وللرجل الأسود جميعاً. أما كلمة «جارية» فكانت للبنت والأمة، وكلمة «جارية» أعم وأشمل فكانت: للبنت والأمة والزوجة. والأمة التي تتزوج من حر وتنجب منه تصبح أم ولد.

د ـ الولادة

في تاريخ الرومان كما في تاريخ العرب كان ولد الأمة رقيقاً، ينسب إلى أمه ويدخل في ملك صاحبها. فقد كان العبيد أشبه بالحيوان. لكن إذا كان الذي استولدها حراً ثم اعترف بالولد، فهذا الاعتراف يعتبر عتقاً واستلحاقاً، وعندما تصبح الأمة الأم حرة يصبح الولد حراً أيضاً، وبتحرر الأم يتحرر الولد ويلحق بنسب أبيه المقرِّ به[2]. وبذلك كانت حقوق السيد على الرقيق واسعة جداً، يبيعهم أو يشغلهم ويستفيد من انتاجهم أو يهبهم هدية لمن يريد أو يقتلهم إذا شاء! ولذا سمي العبد مملوكاً أو أطلقوا عليه «الرقبة» والذي يعتق: «فك رقبة»[3]. كما كان البعض منهم يكره اماءه على البغاء وبذلك نزلت الآية الكريمة: **﴿... ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾**[4].

وأما أهل البلد المفتوح فإذا استرقوا الاسرى توزع عليهم توزيع الغنائم، أي تخمس، والتخمس يعني أن يعطى لليتامى والمساكين وابن السبيل والباقي يعطى للغانمين: للراجل سهم وللفارس سهمان.

ولما انتشر الاسلام وقامت دولته المباركة لم يعد يقبل من العربي إلا

---

(1) الأنعام الآية 151.

(2) بلوغ الأرب للألوسي ج 1 ص 126.

(3) راجع سورة البقرة الآية 13.

(4) النور الآية 33 وقيل أن من هؤلاء كان عبد الله بن أبيّ.

الاسلام أو القتال، ولم يعد هناك مجال للاسترقاق، فالذي يقع في الأسر من العرب إما أن يسلم وإما أن يقتل.

ولما كثرت الفتوح كثر معها الاسترقاق من الأمم المفتوحة كثرة هائلة، ووزع المسترقون رجالاً ونساءً وذراري على العرب الفاتحين، من ذلك يروي المسعودي أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وأمّة فإذا سار إلى مكان ساروا معه كالجيش العرمرم[1]، وقد توفي عن خمس وثلاثين ألف ألف درهم، وقيل بل عن اثنين وخمسين ألف ألف درهم، ويقال إن دخله من بعض ضياعه في العراق بلغ ألف دينار[2]. وكل هذا يدل على الفتوحات الواسعة والثراء الواسع والاسترقاق الهائل من الرجال والنساء والذراري.

العتق

كثر الاسترقاق وكثر معه العتق. وللعتق في الاسلام أسباب كثيرة: أهمها إظهار التقوى والغيرة على الدين الاسلامي. فالعبد إذا أسلم إسلاماً صحيحاً وأظهر التقوى أطلقه سيده وفك رقبته مناً منه رحمة. ورد في وفيات الأعيان أن عبد الله بن عمر بن الخطاب قد اعتق على هذه الصورة ألف عبد[3].

وسبب آخر للعتق يكون فداء عن يمين أو وفاءً لنذر أو التماساً لثواب، أو للتعبير عن الشكر لله إثر نعمة من نعمه على عباده أو نحو ذلك. وكان أهل الورع والتقوى يشترون العبيد ثم يعتقونهم لوجه الله ومرضاته. جاء في الأغاني: أن عمر بن أبي ربيعة الشاعر المعروف، لما أصبح شيخاً هرماً، أقسم أن لا يقول بيت شعر إلا أعتق رقبة، وقد نظم وبرّ بقسمه غير مرة[4]. ولا ندري ما لهذا التحول عند صاحب مدرسة الغزل القصصي، لعله يريد أن يستغفر الله ويتوب توبة نصوحاً في آخر حياته! فسبحان الذي يغيّر ولا يتغير.

---

(1) راجع مروج الذهب ج 4 ص 254 وفجر الاسلام ص 88.

(2) راجع طبقات ابن سعد ج 3 ص 77 وص 158.

(3) وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 247.

(4) الأغاني ج 1 ص 64.

وسبب آخر في العتق هو الترغيب في الجهاد حيث أعتق كثيراً من العبيد ترغيباً لهم في الجهاد كما فعل الجنيد بن عبد الرحمن المري صاحب خراسان في واقعة الشعب. لما حمي الوطيس خاف الجنيد الفشل عندها صاح في العبيد قائلاً لهم: «أي عبد قاتل فهو حر» فقاتل العبيد قتالاً عظيماً حتى أعجب منه الناس جميعاً، وانتصر الجنيد وانهزم الأعداء[1]. وهو بهذا يترسم خطى النبي ﷺ يوم حصار الطائف إذ قال: «كل عبد نزل إليّ فهو حر»[2].

وعرف الأسلام سبباً آخر للعتق سماه (التدبير) فيقول السيد لعبده: أنت حر عن دبر مني، أي بعد إدباره عن الدنيا ووفاته.

ومن أسباب العتق الكرم. روي عن حاتم يقول لغلامه: أنت حر إن جلبت لي ضيفاً[3].

استمرار الرق حتى اليوم

نظرة اليونان إلى الرق

منذ ثلاثة وعشرين قرناً ونيف قال أرسطو: أن الرق سيبقى ضرورياً ما دامت الآلة لا تعمل بنفسها. وبهذا القول يبرر (المعلم الأول) الرق، لأنه يعتقد أن الانسان القوي من حقه أن يمتلك انساناً ضعيفاً ليكون بديلاً عن الآلة المسخرة للانتاج وتنمية رأس المال في الأسرة والدولة والقوة في نظره نوعان: قوة في الجسد وقوة في العقل. فالانسان القوي عنده هو القوي بعقله وليس بجسمه. والمثل الأعلى للقوي بعقله هو الانسان اليوناني.

يرى أرسطو أن الطبيعة منحت اليوناني القوة العقلية والمنطق، ومنحت غيره القوة الجسدية ليقوم بالعمل فقط ويتيح لأصحاب العقل أن يتفرغوا لسياسة

(1) الكامل في التاريخ لابن الأثير ج 5 ص 78.

(2) المعارف ص 97.

(3) بلوغ الأرب ج 1 ص 78 وج 3 ص 12.

الدولة بما أوتوا من حكمة عالية وتدبير حسن. فالرق عند المعلم الأول نظام طبيعي متصل بتصنيف الطبيعة البشرية، فمنهم من هو متميز بعقله كاليونان ومنهم من تميز بقوة جسمه وهم البرابرة. والناس البدائيون.

فالمعيار الذي وضعه لتبرير الاسترقاق هو القوة التي اتصف بها الانسان العامل بعقله والجاهل بجسده. ووصف القوة بالعقل وتخصيصها به، لا يطهرها من الرذيلة ولا يقربها من الأخلاق ما دامت تلازمها القدرة على الاخضاع والقهر. ثم أن استخدام طاقة الرقيق البدنية، قبل اختراع الآلة التي تعمل بنفسها، ليس أبداً من مبررات الاسترقاق. ولو كان الأمر كذلك لوجب أن يزول الرق بعد اختراع الآلة.

الواقع أن ظاهرة الاسترقاق، على الرغم من اختراع الآلة التي تعمل من ذاتها ما زالت مستمرة حتى عصرنا الحاضر ولكن بألوان جديدة وأساليب جديدة. فالرق وإن ألغي كمؤسسة قانونية فهو قائم كمؤسسة واقعية. فعلى الصعيد الدولي نجد الاسترقاق متستراً تحت اسم التمييز العنصري والاستعمار. نجده متخفياً تحت ستار الديمقراطية وحقوق الانسان. ولو تأملنا في واقع الدول الكبرى وسيطرتها على الدول المستضعفة، ولو بحثنا تقارير جمعيات مكافحة الرق والبوليس الدولي، ولو سألنا الانتربول لاجاب الجميع: أن الرق ما زال موجوداً وهو يمارس في صور متعددة في دول كبرى وعظمى من أنحاء العالم.

ففي الدول الكبرى التي تسمى بالمتحضرة والتي صنعت الأقمار الصناعية وكشفت القمر وغيره من النجوم نجد التمييز العنصري والتفريق بين بني البشر الذين وصفهم الامام علي بن أبي طالب فقال: إن لم يكونوا إخوة في الدين فهم أخوة في الخلق. الانسان هو أخ الانسان وليس لأحد في هذا الكون من أي حق على استعباده. قال الخليفة عمر بن الخطاب: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحراراً. فالحرية البشرية حق الهي مقدس لا تمس ولا تدنس».

صور الرق الحديث

1 ـــ التمييز العنصري

وهو يعني التمييز بين الأفراد في الوطن الواحد، بسبب اللون أو العرق والدم. وقد نشأت هذه الظاهرة كمشكلة اجتماعية ذات أبعاد سلبية وذلك بعد إعلان تحرير الزنوج في الولايات المتحدة الامريكية عام 1865 م. فالزنوج نالوا حريتهم

من الوجهة النظرية، أما من الناحية الواقعية فلم يزالوا مطوقين بقوانين وأعراف أمريكية من قبل الجنس الأبيض، أكثر اضطهاداً لهم من السابق حيث استبدل الرق بالتمييز العنصري، وهو رق بلون آخر نشأت به مشكلة عرفت بالمشكلة السوداء.

والحقيقة أن (لنكلن) ومن لف لفه لم يكونوا يعتقدون أنه بالامكان تحقيق مساواة سريعة بين البيض والسود، لأنهم يتوهمون أن مثل هذه المساواة لا يمكن أن تتم إلا تدريجياً، فهم يظنون أنه ليس من السهل أن يتفهم العبيد معنى الحرية الكاملة بمجرد إعلان تحريرهم وذلك لتعودهم الحياة العبودية التي رزحوا تحت وطأتها أزماناً طويلة.

وعلى الرغم مما نال العبيد من حق في حماية أرواحهم وحرياتهم ومنحهم حق التصويت، فإنهم لم يمارسوا حقوقهم كالبيض بل وجدناهم يعودون إلى العمل في مزارع القطن عند أسيادهم القدامى، ويخضعون لوصايتهم. وسرعان ما ذهبت أحلامهم أدراج الرياح فلم يتملكوا أرضاً ولم يمارسوا حقهم السياسي. زد على ذلك كله عزلهم عن المجتمع عزلاً تاماً وفرض التمييز العنصري عليهم.

وقد صدرت في الولايات المتحدة الجنوبية قوانين تحرم الزواج بين البيض والسود وتمنع الاختلاط بينهم وتفرض عليهم السكنى في أحياء خاصة بهم، حتى انه جعل لهم أمكنة خاصة لهم في المقاهي والمسارح والقطارات والفنادق والمطاعم والكنائس فكل هذه الأمكنة يمنع السود من دخولها. كما كان للسود مدارس خاصة بهم ومناهج تختلف عن مناهج البيض[1].

أما في المحاكم فكان للبيض انجيل خاص بهم وللسود انجيل آخر، وقد قضت هذه المحاكم في الولايات المتحدة بشرعية التمييز العنصري وأقرته المحكمة العليا.

هذا الشعب الذي لونت الطبيعة وجهه باللون الأسود قام بنهضة أدبية وفنية كان لها شأن كبير في تقدم ورقي الشعب الأمريكي، وإن دلت هذه النهضة على شيء فإنما تدل أن الزنوج ليسوا من عنصر أدنى من العناصر الأخرى التي يتألف منها المجتمع الأمريكي، هذا المجتمع الذي لا عهد له بماض حضاري معروف.

---

(1) عرفت هذه القوانين باسم (قوانين الغراب الأسود).

لقد أدلى الزنوج بدلائهم فأخرجوا أدباً رفيعاً وفناً رائعاً وأسهوا عملياً في تكوين المجتمع الأمريكي وعمرانه، فلا يجوز بأي حال أن يتميز عنهم البيض أو يترفعوا عليهم.

وفي عام 1932 رشح الحزب الديمقراطي لرئاسة الجمهورية (روزفلت) فأيده الناخبون الزنوج بأعداد كبيرة في الولايات الشمالية متحولين عن تأييدهم الحزب الجمهوري، حزب محررهم (لنكولن) الذي أعرض عنهم وتنكر لقضيتهم. وكان تأييدهم للمرشح الديمقراطي (روزفلت) سبباً في نجاحه لرئاسة الجمهورية عام 1933. وضع روزفلت برنامجاً جديداً لمعالجة الأزمة الاقتصادية واستصدر قوانين تنص صراحة على إنصاف الزنوج، غير أن هذه القوانين اصطدمت بمعارضة شديدة من الطبقة الرأسمالية المحافظة. وعادت أعمال العنف مع موكب الحرب ففي عام 1943 حدث في حي الزنوج بنيويورك مذبحة رهيبة بين البيض والسود ذهب ضحيتها العديد من الزنوج.

لكن مع الزمن أخذت ساحة التمييز العنصري تضيق على الرغم مما يعترضها من عقبات ولم تضع الحكومة الامريكية قانوناً عاماً لالغاء التمييز العنصري، حتى كان عام 1954 فقد أصدرت حكماً يتضمن أن التمييز العنصري في نطاق التعليم أمر مخالف للدستور. لكنه بقي قائماً بين البيض والسود في وسائل النقل وفي دخول المطاعم والمقاهي والفنادق والمسارح.

وفي عام 1962 تقدم الرئيس (كنيدي) إلى الكونجرس بمشروع قانون بالغاء التمييز العنصري في جميع الولايات المتحدة، فوافق الكونجرس على المشروع وأقره وتساوى البيض والسود في الحقوق والواجبات في جميع الميادين.

وعلى الرغم من ذلك كله بقي القانون حبراً على ورق، وامتنعت مدارس البيض في بعض الولايات من قبول السود، كما رفض البيض مساكنة السود في المجتمعات السكنية فأخرجوهم منها بعد أن سلبوا ونهبوا وعاثوا في الأرض فساداً.

وهكذا عاش الزنوج، بعد تحررهم، حياة مليئة بالبؤس والاضطهاد ولم يتح لهم البيض فرصة التحرر الكامل من العبودية القاتلة والرق البغيض. وعلى الرغم مما قدموا في جميع المادين الأدبية والفنية والحضارية في المجتمع الامريكي، فقد ظلوا مطوقين باسم التمييز العنصري الذي يندى منه الضمير الانساني.

2 ـ الاستعمار

الاستعمار مصدر من فعل استعمر وتعني إعمار الأرض لفائدة من يعمّرها، واستعمره في المكان: جعله يعمره. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿**هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها**﴾[1]. أي أذن لكم سبحانه وتعالى بعمارتها واستخراج قوتكم منها وجعلكم عمّارها.

أما في اللفظ الأجنبي فهي مشتقة من كلمة (Colon) وتعني عند اليونان: الفلاحين الذين يعجزون عن وفاء ديونهم فيستولي الدائنون على أراضيهم ويجبرونهم على استثمارها لحسابهم حتى يستوفوا ديونهم، ولما كانت الديون ثقيلة بفوائدها الفاحشة، فإن الفلاحين كانوا يعجزون عن الوفاء، وبذلك يبقون في حالة أشبه بالرق الدائم.

وعند الرومان أطلق هذا الاسم على الشعوب البرابرة (غير الرومان) التي كان ينقلها الاباطرة من بلادها إلى أملاكهم للعمل فيها، ويجبرون على البقاء فيها هم وأخلافهم من بعدهم. فهؤلاء بالواقع أرقاء لأنهم لا يستطيعون مغادرة الأراضي التي وضعوا فيها.

وقد انتقل هذا النظام إلى أوروبا في القرون الوسطى بعد أن أخذ الرق بالتحول إلى رقيق الأرض. وقد أطلق الأوروبيون اسم المستعمرات على المناطق التي استولوا عليها في افريقيا بالقوة والدسائس فسخروا أهلها في استثمار أراضيهم واستخراج ثرواتهم منها. فأصبح الاستعمار بغيضاً إلى النفوس لأنه نهب لثروات الشعوب وبالتالي هو استرقاق جماعي. وفي منتصف القرن التاسع عشر أرسلوا رواداً لاكتشاف مجاهل افريقيا وكانت بلجيكا اسرع الدول وأعلنت سيادتها على الكونغو. فالأوروبيون استحدثوا صوراً جديدة للرق حيث أصبح مرتبطاً بمصالحهم الاقتصادية المحضة.

وفي عهد الاستعمار لقيت الشعوب الافريقية ألواناً من الظلم والقهر والاضطهاد وكانت الشركات الاوروبية تستغل الافريقيين استغلالاً جماعياً[2]. وتلزمهم بالعمل الاجباري في المناجم والمزارع بأجور زهيدة جداً. وقد فني كثير

---

(1) هود الآية 61 راجع المعجم الوسيط ج 2 ص 627 وتاج العروس (عَمَر).

(2) التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية للدكتور أحمد شلبي القاهرة 1975.

من الافريقيين الذين أخرجوا من ديارهم وهاموا على وجوههم في الفيافي والقفار، فأماتهم الجوع والمرض[1].

واتبع المستعمرون في استرقاق الشعوب سياسة الابادة والتجويع كما تعمل امريكا اليوم تجاه الدول المستضعفة.

من مظاهر التجويع الأوروبي للشعوب الافريقية أن حرموا عليهم صيد البر والبحر. فصيد البحر كان حكراً على شركات أجنبية فقط وصيد البر كان ممنوعاً على الافريقيين، فقد كانت الطيور في الغابات في متناول الافريقي، لكن الاوروبي وحده هو صاحب الحق في صيدها. يبدو هذا الحرمان من خلال أغان حزينة عبر بها الزنوج عن حسراتهم فقال بعضهم:

فوق الجميزة سنجاب	والأرنب يمرح في الحقل
وأنا صياد وثّاب	لكن الصيد على مثلي
محظور إذ أنا عبد	والديك الأبيض في القن
يختال كيوسف في الحسن	وأنا أتمنى لو أني
أصطاد الديك ولكني	لا أقدر إذ إني عبد[2]

ولم تكتف الدول الاستعمارية بسياسة التجويع بل تجاوزتها إلى فرض ضرائب فادحة تجبيها بوسائل وحشية. ففي الكونغو التي استعمرتها بلجيكا كانت الضريبة المفروضة على القرى تقديم كمية معينة من المطاط المستخرج من الغابات، وإذا عجزت عن تقديمه شنت عليها حملة شعواء كعقوبة لها، فيقتل الرجال النساء ثم تقطع أيديهم وترسل إلى المعتمد البلجيكي ليتأكد من تنفيذ العقوبة[3].

وفوق التجويع والضرائب الفادحة فرض الأوروبيون على الافريقيين أعمال السخرة، فكانوا يجبرون الرجال على القيام بأعمال شاقة مضنية، قد تؤدي بهم إلى لقاء حتفهم في ميدان العمل لعدم وجود الرعاية الصحية. أما التعليم فقد رسم

---

(1) المصدر السابق أحمد شلبي ص 464.

(2) الخمائل للشاعر ايليا أبي ماضي.

(3) المصدر السابق أحمد شلبي ص 465.

الاستعمار مناهجه، ليكون الهدف منه خدمة الاوروبيين.

أما البرتغال والاسبان فقد تجردوا تماماً عن فكرة التعليم واتجهوا إلى استغلال المستعمرات استغلالاً بشعاً حقيراً، فرأوا أن سكان افريقيا ليسوا سوى مواد طبيعية أولية يستغلونها بوحشية لتعطيهم أكبر عطاء ممكن. وكذلك كانت معاملة الالمان لهم عندما كانت لهم مستعمرات في افريقيا[1].

وقد عرض رئيس وزراء الكونغو (لومومبا) سنة 1960 بمناسبة استقلال بلاده وبحضور ملك بلجيكا (بودوان) في خطاب فيه صورة حزينة لحياة الانسان الافريقي التي امضاها أثناء الاستعمار قال لومومبا: لقد خبرنا السخرية والاهانات والضرب يوجه الينا في كل وقت، لا لشيء إلا لأننا (زنوج).

لقد رأينا أرضنا تستنزف باسم نصوص قانونية لم تكن في الواقع غير سلطة القوي وجبروته.

لقد علمنا أنه توجد في المدن مساكن رائعة للبيض، وجحور صغيرة للزنوج، وأن الزنجي لا يسمح له بدخول دور السينما أو المطاعم ولا بدخول ما يسمى بمحلات الأوروبيين.

وأخيراً من سينسى المشانق والحرائق الشاملة التي أبيد بها العديدون من إخواننا، أو الزنزانات المخيفة التي أُلقي فيها بوحشية هؤلاء الذين نجوا من طلقات الجنود... هؤلاء الجنود الذين جعل منهم استعمار أدواته وزبانيته[2].

وقد جرت عمليات الاستعمار في استغلال جميع الأقاليم المستعمرة بالطريقة نفسها: حرمان الأهالي من نصيبهم المشروع في جميع مناشط الحياة الحرة الكريمة.

تنمو جذور الرق في مستنقع الفقر وقد اقتصرت مكافحته في النطاق الدولي على دراسات وتوصيات ومناشدات، دارت كلها في حلقة مفرغة ولم تعط ثماراً إيجابية على الأرض، بل اقتصرت على إقرار عقوبات واتخاذ تدابير محلية بقيت محدودة ضمن حالات محدودة وأفراد معدودين، أما الكثرة الغالبة من تجار

---

(1) راجع المصدر السابق أحمد شلبي ص 466.

(2) راجع المصدر السابق أحمد شلبي ص 467.

الرقيق، في الماضي أو الحاضر، فلا يعدمون من اختراع وسائل حديثة لكسر طوق الحصار بكل ما أوتوا من دهاء وحيل وخداع.

إن تجارة الرق مستمرة حتى اليوم، وهذا الوباء لا تختص به دولة أو شعب بل على الدول جميعاً أن تسارع على مكافحته أينما كان وذلك خوفاً من سريان عدواه إلى المناطق السليمة، إن وجدت، وقد يحصل ذلك بأن تتولى المنظمات الاقليمية هذا الكفاح، كالجامعة العربية والمنظمات الدولية، والسوق الأوروبية المشتركة، ومنظمة الدول الافريقية، والدول الاسلامية، ومثل هذا التدبير أقل مساً بالكرامة القومية التي تتذرع بها بعض الدول العربية.

في الماضي كانت الحروب مصدراً للرق، أما اليوم فإن القوى الاستعمارية والدول المستكبرة قد استبدلت الاسترقاق بالتبعية الاقتصادية والسياسية. فعن طريق التبعية الاقتصادية تمارس الاستعمار بالتجويع، وبالتبعية السياسية تمارس الاستعمار بالتخويف والارهاب المنظم، وكلاهما وجهان لعملة واحدة من أجل استرقاق الشعوب المستضعفة. وهذا ما يحدث اليوم من قبل الولايات المتحدة الامريكية. ويحضرني رأي لكاتبة امريكية اسمها (Suzan-George) في كتاب لها عنوان (كيف يموت النصف الآخر من العالم) صدر عام 1978 تقول فيه:[1]

إن الجوع يتفاقم أمره في العالم الثالث، وما يؤديه البنك الدولي ومنظمة التغذية العالمية من معونات، لا يفي بحاجة ذلك العالم ويدفع عنه ألم الجوع. إن القوى السياسية بما تملك من قوة مخيفة، وما توفر لها من موارد غذائية ضخمة، تعمل لتكييف[2] شعوب العالم على هواها، تشبع من تشاء وتجيع من تشاء، وإن احتكار منظمة البلدان المصدرة للنفط (اوبيك) لا يعد شيئاً إذا ما قيس بسيطرة الولايات المتحدة على سوق الغذاء العالمي.

فتأمل معنا! هذه كاتبة امريكية تقول بصدق كيف تتصرف دولتها مع الشعوب المغلوبة على أمرها في العالم. فالبعض من هذه الشعوب يخاف والبعض الآخر يطمع. وكلاهما في التخاذل عن ممارسة الحق الانساني المشروع سواء. ذلك الحق الذي أعطاه رب العالمين لبني البشر. هؤلاء الذين يتخذون من الاسلام

---

(1) Comment mort l'autre moitier du monde. p. 17- 19 Paris 1978.

(2) تكيف: تروّض.

واجهة لهم وستاراً لتغطية أخطائهم لم يسمعوا قول الله تعالى.

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾[1].

أو أنهم سمعوا لكنهم تظاهروا بعدم السماع، على رأي أحمد شوقي: ورب مستمع والقلب في صمم؟!

كما نجد متحدثاً رسمياً أمريكياً هو وزير الزراعة الامريكي (Butz) يصرح غير متورع موافقاً في تصريحه ما قالته الكاتبة (سوزان جورج) فيقول: «إن الغذاء هو سلاح وأداة قوية في سياستنا» وفي الوقت ذاته تصرح دائرة الاستخبارات الامريكية (C.I.A) بأن تزايد نقص القمح في العالم يعطي واشنطن القدرة على إحياء وإماتة ملايين الفقراء... وهذا يبين بوضوح أن الغذاء أضحى مصدراً للاستغلال والسيطرة الاقتصادية والسياسية، ووسيلة للتحكم في العالم وبصورة خاصة بأولئك «المعذبين في الأرض».

وهذا ما نلمسه اليوم وما حصل بين الولايات المتحدة ومصر حيث تم الاتفاق بينهما على أن تعطي الأولى الثانية مقداراً من القمح كل ثلاثة أشهر، مقابل موقف سياسي معين، فالقمح الامريكي يتدفق على مصر ما دامت هذه ملتزمة بتعهدها تجاه الأولى، وبطبيعة الحال سوف يتوقف إرسال القمح عند أي تغير يحصل. وما يسترعي إعجابنا جميعاً أن أرض دلتا النيل أخصب أرض في البلاد العربية وبحر النيل معروف بغزارة مياهه، وقد قال عنه المؤرخ (الكبير هيرودوت): مصر هبة النيل؟ فلو استغلت الأرض العربية المصرية والثروة المائية الخيرة فيها لكان بامكان مصر تزويد نفسها وتزويد العالم العربي كله بالقمح، ولاصبحت حرة في مواقفها وسياستها. نأمل ذلك قريباً باذن الله! ثم تابع الوزير الامريكي قوله:

«إن نظرة سريعة على الوضع الراهن في العالم، تدل عليّ أن الفقراء حيثما كانوا ـ هم الذين يشكون ألم الجوع، وأن الظلم والاستغلال اللذين عمّق الغرب

---

(1) آل عمران الآية 27.

جذورهما بنفسه أو بواسطة فئات محلية مختارة، هما الذان يمنعان عنهما الغذاء[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فالمعذبون في الأرض اليوم هم الذين استرقوا بالجوع وذاقوا الظلم وقسوة الاضطهاد ويحق لهم أن يرددوا مقولة المعذبين في الماضي:

ما أقرب اليوم من أمسه وما أشبه الليلة بالبارحة!

وبذلك تكون جاهلية القرن العشرين، الجاهلية الحديثة، أمر وأدهى من الجاهلية الماضية!!

ومما يلاحظ أن للعتق رسوبات تبقى لاصقة به بعد العتق، فلا يسترجع كامل حريته ويصبح كالحر تماماً، إنما تبقى هناك صلة بين السيد المعتِق والعبد المعتَق ينسب إلى من أعتقه. وكتب الأدب والتاريخ تذكر لنا عدداً كبيراً من هؤلاء الموالي الذين برزوا في جميع ميادين المعرفة والعلوم والفنون والآداب.

خامساً ـ الموالي

جاء في اللسان[2]. (وَلِّي) من اسماء الله الحسنى، والولي هو الناصر وقيل المتولي لأمور العالم والخلائق، وهو مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها. قال ابن الأثير: وكأن الولاية تشعر بالتدبير والقدرة والفعل، وما لم يجتمع ذلك فيه لم ينطلق عليها اسم الوالي. وقال ابن سيدة: الوِلاية كالإمارة، والوَلاية المصدر.

وقال سيبويه: الوَلاية بالفتح المصدر. والوِلاية بالكسر الاسم مثل الإمارة والنقابة.

وتأتي الولاية بمعنى النصرة. قال ابن بري: وقرىء ما لكم من ولايتهم من شيء. وقوله تعالى: **﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء...﴾**[3]. قال الفراء يريد ما لكم من مواريثهم من شيء وتفتح إذا أريد بها النصرة. قال: والولاية على الايمان واجبة، المؤمنون بعضهم أولياء بعض. ووليّ بيِّن الولاية.

---

(1) (كيف يموت النصف الآخر من العالم) مصدر سبق ذكره.

(2) مادة وَلِيَ.

(3) الانفال الآية 72.

والولي: ولي اليتيم الذي يلي أمره ويقوم بكفايته. وولي المرأة: الذي يلي عقد النكاح عليها ولا يدعها تستبد بعقد النكاح دونه.

ويقال فلان أُولى بهذا الأمر من فلان أي حق به. والولي والمولى واحد في كلام العرب. وقالوا: المولى له مواضع في كلام العرب منها المولى في الدين وهو الولي وذلك قوله تعالى:

﴿ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم﴾[1] أي لا ولي لهم ولا معين ولا نصير.

ومنه قوله سيدنا رسول الله ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه» أي من كنت وليه فعلي وليه.

وقالوا: المولى: العصبة، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وإني خفت الموالِيَ من ورائي﴾[2].

والمولى: الحليف، وهو من انضم إليك فعزّ بعزك وامتنع بمنعك قال أبو عبيدة: يعني الموالي أي بني العم. وأنشد اللّهبي يخاطب بني أمية:

مهلاً بني عمنا، مهلاً موالينا ... إمشوا رويداً كما كنتم تكونونا

وقالوا: المولى المُعتَق أي من انتسب بنسبك. ولهذا قيل للمعتَقين الموالي.

والمولى مولى النعمة وهو المُعْتِق أنعم على عبده بعتقه.

والمولى: المُعْتَق لانه ينزله منزلة ابن العم يجب عليك أن تنصره وترثه إن مات ولا وارث له.

وروي أن النبي ﷺ قال: «من تولاني فليتولَ علياً» معناه من نصرني فلينصره.

قال ابن الاعرابي أيضاً: ابن العم مولى وابن الاخت مولى والجار والشريك والحليف. وفي حديث الزكاة: مولى القوم منهم قال الجعدي:

مواليَ حلف لا موالي قرابة ... ولكن قطينا يسألون الأتاويا

---

(1) محمد الآية 11.

(2) مريم الآية 5.

يقول وهم حلفاء لا أبناء عم. ويقول الفرزدق:

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى المواليا

لأن عبد الله بن أبي اسحق مولى الحضرميين وهم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف. والحليف عند العرب مولى

وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿فهل عسيم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض﴾[1].

وقال ابن الأثير: وقوله ﷺ: من كنت مولاه فعلي مولاه، يحمل على أكثر الأسماء المذكورة ويعني بذلك ولاء الاسلام.

وقال عمر لعلي: «أصبحت مولى كل مؤمن» أي ولي كل مؤمن. والنسبة إلى المولى مَوْلَوِيّ.

والمقصود هنا من بين جميع هذه المعاني الواردة، هم الموالي الذين كانوا أرقاء، ثم تخلصوا من الرق باعتناقهم الاسلام، وجلهم من العجم، مسلمون غير عرب. وقد كانوا يشكلون أغلبية سكان البلدان المفتوحة من فرس وروم، ومجوس، ويهود، ونصارى، ووثنيين. وكانوا يطلقون عليهم اسم «الحمراء» وهذه اللفظة تعني الموالي بالذات. والحمراء في القاموس العجم. وإليهم أشار النبي ﷺ في قوله: «لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى». وبذلك أصبح الموالي طبقة خاصة من الطبقات الاجتماعية في الاسلام التي كان لها شأن يذكر في التقدم والعطاء على الصعيد الأدبي والعلمي والحضاري.

كما يمكن اعتبارهم عرباً لقول الرسول ﷺ: «مولى القوم منهم»[2] وقوله ﷺ أيضاً: «من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»[3].

ثم إن الرجل كان يثق بمولاه كما يثق بابنه لأنه لم يعتقه إلا حبّاً فيه وأهل الرجل عند العرب الموالي والذراري.

---

(1) محمد الآية 22.

(2) راجع نهاية الارب في معرفة أحوال العرب ج 4 ص 71 والعقد الفريد ج 2 ص 111.

(3) سيرة ابن هشام ج 3 ص 77 والبيان التبيين ج 1 ص 164.

والمولى يترك نسبه إلى أهله وينتسب إلى مولاه، فيقال:

فلان مولى فلان ولا يقال: ابن فلان. والمولى اعترافاً منه بالجميل بعد عتقه منّة لمولاه عليه. لذلك كانت الرابطة بينهما وثيقة جداً وخصوصاً الذين كانوا يعيشون في بيوت مواليهم. وسرعان ما كانوا يجتمعون تحت لوائهم إذا ما انتشبت حرب ضد قبائل أخرى.

أنواع الموالي

ورد في كتب التاريخ والأدب تقسيم الموالي إلى ثلاثة أنواع.

أ ـ مولى عتاقة. ب ـ مولى عقد. ج ـ ومولى رحم.

1 ـ مولى عتاقة

هو الذي كان أسيراً أو عبداً ثم أعتق فأصبح بذلك مولى لمعتقه. وكان لهذا العمل تأثير كبير في صدر الاسلام لأن المسلمين كانوا يستعينون بالعبيد على أسيادهم بطريق الإعتاق. ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما جرى عند حصار الطائف من استجابة الكثير من المسلمين لنداء النبي ﷺ:

«أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ولرسوله»[1].

أما إذا كان العبد من أسرى الحرب وأرادوا إعتاقه، جزوا له ناصيته وخلوا سبيله، فيصير مولى لمالك تلك الناصية[2].

المكاتبة: وفي بعض الأحيان يقع العتاق بعد اتفاق يجري بين العبد وصاحبه بالبيع، وهو ما عبروا عنه بالمكاتبة، وذلك أن يكتب العبد على نفسه صكاً بثمن معلوم فإذا عمل وأداه أعتقه مالكه. وقد يقع الدفع بالتقسيط كما يحدث عندنا اليوم إذا كان الدين كبيراً ولم يستطع المديون دفعه كله مرة واحدة وهذا ما حدث للشاعر نُصيب بن رَباح: كان عبداً رقيقاً نوبياً لرجل من أهل ودان (شمالي الحجاز) وكان والداه عبدين نوبيين أسودين. عاش مع أهله وولده على الرق زماناً. ثم قال الشعر فكاتب على نفسه واتفق مع سيده على مبلغ يؤديه بالتقسيط، إلى أن يصبح حراً إذا وفى المبلغ.

---

(1) العقد الفريد ج 2 ص 32.

(2) بلوغ الارب ج 2 ص 128.

رحل إلى والي مصر عبد العزيز بن مروان (سنة 65 هـ ـ 84 هـ) ـ ومدحه فأعجب عبد العزيز بنصيب واشتراه من مولاه مع أهله وولده وأعتقهم جميعاً. ومنذ ذلك الحين شرع نصيب يرحل كل عام إلى عبد العزيز مادحاً اعترافاً منه بفضله. ومن أشعاره المختارة في مدح عبد العزيز قوله:

لعبد العزيز على قومه	وغيرهم نعم غامره
فبابك ألين أبوابهم	ودارك مأهولة عامره
وكلبك آنس بالمعتقين	من الأم بالابنة الزائره
وكفك، حين ترى السائلين	أندى من الليلة الماطره
فمنك العطاء ومني الثناء	بكل محبّرة سائره[1]

وفي المكاتبة يكون ولاء المعتق لمعتقه بشكل عام، ولكن قد يشترطون أحياناً إلا أن يكون الولاء للمُعْتِق، بل يكون لمن يؤدي ثمن المكاتبة.

عتاقة سائبة: وهي أن يعتق العبد ولا ولاء له فيقول المُعْتِق لعبده: أنتَ سائب، وأنتِ سائبة. وبذلك لا يكون ولاؤه لمعتقه، ويحق له عندها وضع ماله حيث شاء.

ومن أشهر المعتقين بهذه الطريقة سالم بن معقل مولى أبي حذيفة بن عتبة. أصله من اصطخر وكان مولى لبثينة الأنصارية امرأة أبي حذيفة، فاعتقته سائبة، فتولى أبا حذيفة وتبناه»[2]. ولما جاء الاسلام نهى أن يكون الولاء لغير المعتق.

من ذلك، دخلت بريرة بنت مسعود الثقفية على السيدة عائشة تستعينها في كتابتها على خمس أواق نجمت عليها في خمس سنين، فقالت لها عائشة:

«أرأيت ان عددت لهم عدة واحدة أيبيعك أهلك فاعتقك فيكون ولاؤك لي؟» فذهبت بريرة إلى أهلها وعرضت ذلك عليهم، فقالوا لها «لا» إلا أن يكون الولاء لنا.

---

(1) المحبرة: القصيدة الحسنة الديباجة تشبيهاً لها بالحبرة وهي نوع من الثياب الحريرية تأتي من اليمن مشهورة.

راجع الأغاني ج 1 ص 335.

(2) المعرفة

قالت عائشة: «فدخلت على رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له فقال: اشتريها فاعتقيها فإنما الولاء لمن أعتق»[1] وقد يصح أن يشتري أحد ذلك الولاء من صاحبه فيصير الولاء إلى المشتري.

عتاقة التدبير: وهو أن يقرر المُعْتِق أن عبده مُعْتَق بعد موته. وقد أجازته المذاهب الاسلامية كلها على اختلافها في الأحكام. وجميعها قررت استحالة الرجوع عن قرار العتق تدبيراً.

2 ـ مولى عقد

وأطلق عليه أيضاً مولى حلف أو اصطناع، وذلك أن ينتمي رجل إلى آخر بالخدمة على اختلاف ضروبها، أو بالمحالفة أو الملازمة أو المخالطة على أن يتعاقب ذلك أجيالاً.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك اليهود في يثرب (المدينة) فقد جاء الاسلام وهم يعدون من موالي الأوس والخزرج. فولاؤهم كان من قبيل الحلف. ولولاء اليهود تاريخ طويل خلاصته:

أن اليهود نزلوا المدينة قبل الميلاد ببضعة قرون وتوطنوها قبل أن ينتقل إليها الأوس والخزرج من عرب اليمن. فاستأثروا بالأرض والماشية، فأقام العرب في ضيق مدة من الزمن، حتى اتفق أن أميراً منهم اسمه مالك بن عجلان، استشار ملك غسان بالشام في شأنهم، وكأنه بذلك استعانه عليهم فاتفقا على الكيد لهم والوقوع بهم. فجاء المدينة ونفذ ذلك حتى ذلوا اليهود وخالفوا فلجأوا إلى الحيلة لينقذوا أنفسهم فرأوا أن يذهب كل منهم إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم، فيطلب الحماية منهم ويستجيرهم. فلجأ كل قوم من اليهود إلى بطن من الأوس أو الخزرج يتعززون بهم ويحالفونهم على أنهم مواليهم وفيهم من ينسب ولاءه إلى رهط خاص كموالي بني النجار أخوال النبي ﷺ أو موالي غيرهم من عرب المدينة.

ومن هذا القبيل كثر عدد الموالي عند العرب بعد الاسلام. فالعرب كانوا أهل سيادة وأصحاب شوكة، وأهل البلاد يلازمونهم بالخدمة والمعاشرة، فينسبون إليهم، ويسمون ذلك ولاء الموالاة، وهي أن يقول شخص لآخر:

---

(1) صحيح البخاري ج 2 ص 60.

«أنت مولاي ترثني إذا مت، وتعقل عني إذا جنيت». فيقول الآخر: «قبلت» وكان لكل طبقة من العرب طبقة من الموالي. ولا فرق في المذهب أو الدين الذي ينتمي اليه المولى، ففي الجاهلية ربما كان نصرانياً أو يهودياً ومجوسياً، لا فرق في ذلك عندهم، فموالي النبي ﷺ كان أحدهم حبشي الأصل وهو بلال المؤذن المعروف، صاحب الصوت الندي.

وآخر اسمه يسار وهو يوناني الأصل، وآخر أيضاً كان قبطي الأصل، اسمه مايور، جاء هدية إلى النبي ﷺ من المقوقس مع مارية القبطية وأختها سيرين (وهو خصي) ولا ننسى سليمان الفارسي الأصل، التقي الورع الذي قال فيه الرسول ﷺ **«سلمان منا آل البيت»**.

أما بعد الاسلام فقد أصبح الولاء خاصاً بالمسلمين، لأن القرآن الكريم نهى عن تولي أهل الكتاب (اليهود والنصارى) والكافرين أيضاً. قال تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياءَ، بعضهم أولياءُ بعض، ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾**[1].

وقال تعالى منبهاً المسلمين ألا يتخذوا الكافرين أولياء:

﴿ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا﴾[2].

كما جاء في السورة نفسها: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبينا﴾**[3].

وجاء في سورة المائدة تنبيهاً إلهياً آخر بقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء﴾[4].

---

(1) المائدة الآية 51.

(2) النساء الآية 89.

(3) النساء الآية 144.

(4) المائدة الآية 57.

وقال تعالى في شأن الكافرين أيضاً:

﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾[1].

3 ـ مولى رحم

مولى الرحم يكتسب الولاء بالزواج من موالي بعض القبائل، فينسب إلى القبيلة التي تزوج من مواليها. ومن هذه الفئة كان الشاعر سديف بن ميمون، فقد كان مولى خزاعة ثم ادعى ولاء بني هاشم لأنه تزوج مولاة لآل أبي لهب (من بني هاشم)[2] وللموالي عند العرب أحكام عامة وأحكام خاصة:

فأحكامهم العامة: أن المولى أرفع منزلة من العبد وأحط من الحر فلا يباع كالعبد لكنه لا يعامل معاملة الحر في الزواج والميراث. فالمولى لا يتزوج حرة، وديته نصف دية الحر[3]، ويعامل نحو ذلك فيما يقع عليه من القصاص، فيجلد نصف حد الحر.

وأما أحكامهم الخاصة فتختلف باختلاف نوع الولاء، وأهم: الإرث. فمولى العتقة يورِّث ولا يرث.

ومولى العقد لا يرث ولا يورِّث، ومولى الرحم يرث ويورِّث[4].

ومن أعتق عبداً كان الولاء له، وإذا مات ورثه. ولذلك يسمونه مولى النعمة. أما إذا اعتق العبد وظل مرتبطاً بالولاء لمعتقه يستطيع عند ذلك المعتق أن يبيع الولاء إلى شخص آخر.

وهذا ما حدث لنصيب بن رباح، فقد كان مولى لبني كنانة ثم اشتراه عبد العزيز بن مروان منهم، وفي رواية أخرى أنهم كانوا قد اعتقوه فاشترى عبد العزيز ولاءه منهم[5].

---

(1) آل عمران الآية 28.

(2) الأغاني ج 14 ص 162.

(3) الأغاني ج 2 ص 176.

(4) العقد الفريد ج 2 ص 262.

(5) الأغاني ج 1 ص 335.

كما يتم عتاق الأجنة التي في الأرحام وذلك بمجرد عتق الأم الحامل وهذا ينطبق أيضاً على نصيب بن رباح أيضاً. كان ابن نوبيين سبيين كانا لخزاعة ثم اشترت سلامة أمّ نصيب امرأة من خزاعة ضمرية حاملاً بالنصيب، فاعتقت ما في بطنها[1].

زواج الموالي

اعتمدت الدولة الأموية على العرق العربي دون سواه في إدارتها الرسمية ومؤسساتها واستبعدت غير العرب ومن هؤلاء المستبعدين الموالي، كانوا على الاجمال أعداء الدولة الأموية يكيدون لها في الخفاء بكل ما عندهم من وسائل لذلك ازداد الأمويون تحقيراً لهم وجوراً عليهم. فبعد أن قال النبي ﷺ «مولى القوم منهم» منع الأمويون زواج الموالي بالعربيات. كما كان الفرس يمنعون زواج العرب ببناتهم قبل الاسلام[2]. أما إذا ما أحب أحد الموالي عربية وتزوجها وبلغ أمره إلى الوالي طلقها منه فوراً كما حدث لأعراب بني سليم في الروحاء. جاؤوا إلى الروحاء فخطب إليهم بعض مواليهم إحدى بناتهم فزوجوه، فوشى بعضهم إلى والي المدينة.

فما كان من الوالي العربي إلا أن فرق بين الزوجين وجلد المولى مئتي جلدة وحلق له رأسه ولحيته وحاجبيه، وكثيراً ما كانوا يفعلون مثل ذلك بالموالي، ولو كانوا من أهل القلم والتقوى أو المنزلة الرفيعة. من هؤلاء نذكر:

عبد الله بن عون كان من كرام التابعين لكنه مولى، أحب فتاة عربية وتزوجها، ولما علم الوالي بلال بن أبي بردة ضربه بالسياط[3].

على أن ذلك المنع كان شائعاً قبل الاسلام، وظل العرب يستنكفون من نص الحديث وغيره، ويكرهون تزوج المولى بعربية.

كلنا يعلم أن سلمان الفارسي نصر المسلمين في حروبهم أيام النبي ﷺ

---

(1) الأغاني ج 1 ص 335.

(2) مروج الذهب للمسعودي ج 1 ص 196.

(3) المعارف ص 167.

وله سابقة كبيرة في الاسلام، خطب إلى عمر بن الخطاب ابنته فوعده بها لأنه لم ير في زواجه بها بأساً، لكن ابنه عبد الله لما علم بالخبر غضب من أبيه وشكا أمره إلى عمرو بن العاص فقال له: «هنيئاً لك يا عبد الله، إن أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك بابنته، فغضب سلمان وقال: «لا والله لا تزوجت إليه أبداً»[1].

والأمويون بالغوا كثيراً في تزويج المولى بعربية وذلك لتعصبهم للعرب على سواهم، وهو عندهم أقبح من زواج العربي بغير العربية. لكن ذلك كانت عادة مستقبحة ولا علاقة لها بالدين وهي غير محرمة دينياً قطعاً، ولنا بالرسول ﷺ أسوة حسنة.

فعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين اتصف بالتقوى والورع والفقه، كانت أمه سلامة بنت يزدجرد ملك الفرس. فلما توفي أبوه زوجها بثريد مولى أبيه، واعتق جارية له وتزوجها.

ولما علم عبد الملك بن مروان، الذي كان يغار منه لتفضيل الناس زين العابدين عليه، كتب إليه يعيره من هذا الزواج القبيح. فرد عليه زين العابدين: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة وقد اعتق ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب وتزوجها، واعتق زيد بن حارثة وزوجه بنت عمته زينت بنت جحش».

فالاسلام رفع من منزلة المولى أعطاه حقه في الحياة الحرة الكريمة أما الأمويون فرأيهم كان غير ذلك، تعصبوا للعرب على الموالي وبالغوا في تحقيرهم لأنهم غير عرب. وشاع ذلك في أيامهم وأصبح الناس يعيرون بمصاهرة الموالي. حتى بات الموالي أنفسهم يستنكفون من تزويج المولى بعربية.

ذكر صاحب الأغاني أن ابن نصيب، المغني المشهور، وهو مولى، أحب بنت مولاه وكان مولاه قد مات، فخطبها من عمها فأجابه إلى طلبه، فعرف نصيب بذلك، فجمع أعيان الحي ووجوههم، ولما حضروا أقبل نصيب إلى عمها وقال له: أزوجت ابني هذا من ابنة أخيك؟ قال: نعم، فقال نصيب لعبيد له سود: خذوا برجل ابني هذا فجروه فاضربوه ضرباً مبرحاً. ففعلوا، ثم قال لعمها: لولا أني أكره أذاك لألحقتك به. ثم نظر إلى شاب من أشراف الحي فزوجه الفتاة وأنفق على

---

(1) العقد الفريد ج 3 ص 132.

العقد من جيبه[1]. ومع ذلك فالمولى لم يكن يخطب فتاة لنفسه ولا يزوج ابنته لرجل، ما لم يستشر مولاه، فإذا أحب رجل أن يخطب فتاة من بنات الموالي لا يذهب إلى أبيها ولا إلى أخيها، وإنما يخطبها من مواليها، فإن رضي مولاها زوجت وتم الفرح وإلا فلا.

أما إذا زوجها الأب أو الأخ دون أخذ الاذن مسبقاً من مواليه فسخ النكاح والغي الفرح. وإن فقدت الفتاة عذريتها أو حملت عند ذلك سفاحاً[2].

جاء في لسان العرب: «أيما امرأة تزوجت بغير إذن مولاها فنكاحها باطل[3]».

ولا ريب أن هذا التعصب الأموي ضد الموالي أحدث فجوة عميقة بين الطرفين، وهذا ما دعا الجاحظ أن يصف الدولة الأموية أنها: «دولة عربية أعرابية».

عصبية العرب على الموالي

تقدم القرشيون في أيام بني أمية على سائر قبائل العرب، وتقدم العرب على الاجمال على سائر الأمم الذين دانوا بالاسلام ولم يكن هؤلاء يستنكفون من ذلك، بل كانوا يعتقدون فضل العرب في إقامة هذا الدين، وانهم مادته وأصله، وما كانوا يأنفون من أن يسموا العرب أسيادهم، ويعدوا أنفسهم من مواليهم. بل كانوا يعدون طاعتهم واجباً عليهم وحبهم فرضاً. عملاً بالحديث المأثور: «من أبغض العرب أبغضه الله»[4].

هذا الموقف من الموالي زاد العرب افتخاراً بأنفسهم فقالوا: «عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل. يريد إخراجهم من أرض الشرك إلى أرض الاسلام، على أن تعرضنا للقتل فيهم. ممن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك، فالله أمرنا بقتالكم، وفرض علينا جهادكم، ورغبنا في مكاتبتكم[5]».

وقال أصحاب العصبية من العرب «لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا إحسان إلا استنقاذنا له من الكفر وإخراجنا له من دار الشرك إلى دار الايمان كما

---

(1) الأغاني ج 1 ص 335.

(2) العقد الفريد ج 3 ص 413.

(3) مادة: (ولي).

(4) العقد الفريد ج 2 ص 42.

(5) العقد الفريد ج 3 ص 412.

في الأثر: «إن قوماً يقادون إلى حظوظهم بالسواجير»[1].

كما كانوا يكرهون الصلاة خلف الموالي، وإذا صلوا خلفهم قالوا: إننا نفعل ذلك تواضعاً لله. قال نافع بن جبير بن مطعم وقد مرت به جنازة. فسأل من هذا؟ فاذا قالوا: قرشي، قال: واقوماه وإذا قالوا عربي، قال: وابلدتاه. وإذا قالوا: مولى، قال: هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء.

وكانوا لا يدعونهم إلا بالاسماء والألقاب ولا يكنونهم بالكنى، ولا يمشون في الصف معهم، ولا يقدمونهم في الموكب، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم، وإن أجمعوا المولى لسنّه وفضله وعلمه أجلسوه في طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب، ولا يدعونهم للصلاة على الجنائز إذا حضر أحد من العرب، وإن كان الذي يحضر غريراً[2].

ويروى أنه تخاصم عربي ومولى بين يدي عبد الله بن عامر صاحب العراق فقال المولى: لا كثّر الله فينا مثلك. فقال العربي: بل كثّر الله فينا مثلك. فقيل له: أيدعو عليك وتدعو له؟ قال: نعم، يكسحون طرقنا ويخرزون خفافنا ويحوكون ثيابنا»[3].

وجاء في كتاب الموالي والعرب لأبي عثمان الجاحظ: أن الحجاج بن يوسف لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود، ولقي ما لقي من قرى أهل العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من أهل البصرة، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يأتلفوا ولا يتعاقدوا ما قبل على الموالي وقال: أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم. ففرقهم وفضّ جمعهم كيف أحب، وسيّرهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجههم إليها»[4].

وهذا بلا ريب أحدث نقمة في نفوس الموالي على العرب.

نقمة الموالي

من المعروف عبر التاريخ أن كل تعصب يفرز تعصباً بالمقابل، بالاضافة

---

(1) السواجير جمع ساجور، وهي القلادة توضع في عنق الكلب.

(2) العقد الفريد ج 3 ص 412.

(3) العقد الفريد ج 3 ص 414.

(4) العقد الفريد ج 3 ص 416.

إلى ما ذكرناه من تعصب الأمويين على الموالي فقد كانوا يستخدمونهم في الحروب مشاة، ولا يعطونهم شيئاً من غنائم الحرب أو الفيء. مما أحدث في نفوسهم النقمة منتظرين الفرص المؤاتية، فأصبحوا والحالة هذه عوناً لكل خارج على الدولة الأموية.

وأشهر من خرج على الدولة الأموية بمساعدة الموالي والعبيد المظلومين والمضطهدين، المختار بن أبي عبيد الثقفي. فقد قام في العراق للمطالبة بدم الحسين الشهيد عام 66 هـ، ثم طلب الخلافة لمحمد ابن الحنفية ولكي ينجح في مهمته الصعبة أطمع موالي العراق في الغنائم، ثم أركبهم على الدواب كالعرب، فجاؤوه متطوعين بأعداد كبيرة من الموالي والعبيد. وكان عدد الموالي في جند المختار أضعاف عدد الأحرار[1]. وقد أبلوا في الحرب معه بلاء حسناً، أكثر من بلاء الأحرار وذلك لسببين: أولاً، للتخلص من جور الأمويين واضطهادهم وثانياً: طمعاً بالغنائم. ولذلك نرى أكثر القتلى في تلك الحرب من الموالي والعبيد، فقد بلغ عدد قتلاهم سنة 67 هـ ستة آلاف قتيلاً ليس فيهم من العرب الأحرار سوى سبع مائة قتيل.

وقد فاز المختار بالانتقام للحسين الشهيد فوزاً حسناً وقتل قتلته[2].

أحدث انتصار المختار بمعاونة الموالي والعبيد هزة عنيفة في نفوس وجهاء الكوفة، فبعثوا اليه يقولون:

إنك آذيتنا بموالينا، فحملتهم على الدواب وأعطيتهم فيئاً. فأجابهم: إن أنا تركت مواليكم، وجعلت فيئكم لكم، تقاتلون معي بني أمية وابن الزبير، وتعطونني على الوفاء عهد الله وميثاقه وما أطمئن إليه من الايمان؟ فرفضوا ولم يرضوا!

فالمختار أول من جند الموالي ونجح بمشروعه معهم، فجرأهم على الدولة الأموية وأصبحوا منذ ذلك الحين يستخفون بقوتها وينصرون كل خارج عليها من الأعداء. وقد أحدث هذا تخوفاً كبيراً عند الخلفاء الأمويين، فلجأوا إلى الحيلة لاسكات الموالي والعبيد واستعملوا الحكمة والتعقل معهم، ففرضوا لهم العطاء

---

(1) الكامل في التاريخ ج 4 ص 121.

(2) العقد الفريد ج 2 ص 249.

لاسترضائهم وأول من فرض لهم ذلك معاوية بن أبي سفيان، فقد جعل لكل مولى أو عبد 15 درهماً. ولما كان عهد عبد الملك وجد أن طريقة معاوية في استرضاء الموالي ناجحة فجعلها 20 درهماً. وسليمان بن عبد الملك زادها إلى 25 وهشام جعلها 30 درهماً[1]. على أن ذلك الفرض قلما كان يعطى لهم، لأن العمال كانوا يستخدمونهم بلا عطاء غالباً لكن إذا عدنا نتصفح التاريخ ملياً وجدنا أن الدولة الأموية قد ظلمت الموالي وظلمت غيرهم كثيراً من العرب أيضاً. وإذا كانت هذه السلطة قد شجعت على إثارة العصبيات القديمة فإن معظم الفئات من الناس لم تنكر عليها هذا التشجيع، بل استجابت له وانساقت وراءه؛ والسبب في ذلك أنها ما زالت تحتفظ في أعماق صدورها بالعصبيات الجاهلية البغيضة التي حاربها الاسلام ورفضها فالمجتمع العربي في العصر الأموي المتمسك بقبلياته قد ساهم هو أيضاً على جعل الموالي يشعرون باتضاع مكانتهم الاجتماعية، والسياسية والعسكرية وبغربتهم في الوطن العربي. ولعل ما قاله بعض الموالي يصور هذا الواقع بصدق. قال أحدهم:

إنا وإن كرمت أوائلنا ... لسنا على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثل ما فعلوا[3]

وقال شاعر آخر في هذا المجال:

مالي عقلي، وهمتي حسبي ... ما أنا مولى ولا أنا عربي
إن انتمي منتم إلى أحد ... فانني منتم إلى أدبي

تكاثر الموالي

عندما تسلم الخلافة الأمويون، وذلك في أواسط القرن الأول للهجرة بدأ عدد الموالي يزداد وأخذ عدد الرقيق يتكاثر بموالاة الحرب والأسر أو الاهداء، لأن كثيراً من العمال كانوا يبعثون بالمئات والألوف الرقيق الأبيض والأسود إلى بلاد الخلفاء هدية أو بدلاً من الخراج أو نحوه[4]، والخليفة كان يفرق ذلك في قواده وبطانته، وهؤلاء

(1) العقد الفريد ج 2 ص 249.

(2) الكامل في التاريخ ج 5 ص 24.

(3) العقد الفريد ج 3 ص 411. راجع الموالي في عصر بني أمية للاستاذ عبد الوهاب النجار، دار المعارف بمصر.

(4) مروج الذهب ج 2 ص 354.

بدورهم يفرقونهم فين حولهم أو يبيعونهم، فينتقل الموالي والرقيق إلى الناس على اختلاف طبقاتهم، فمن أنجب من أولئك الأرقاء أو أعتق لسبب من الأسباب صار مولى، وهذا بطبيعة الحال غير الذين كانوا يدخلون في الولاء بالعقد وغيره... وبذلك ازداد عدد الموالي في العصر الأموي زيادة ملحوظة. لكنهم أخذوا يتقربون من مواليهم بما يحتاجون اليه من شؤونهم، مما سهل للعرب استخدامهم في جميع مصالحهم الصناعية والزراعية والعلمية... ثم دخلوا في معركة السياسة فتوصلوا إلى أعلى المراتب، ونبغ منهم الكثير في جميع حقول المعرفة من كتاب وحجاب، وقراء وشعراء، وفنيين مغنين، وعلماء وفقهاء، فتكاثروا كثيراً.

وبعض الموالي أثرى ثراء واسعاً فأخذ يبتاع العبيد ويعتقهم فيصيرون من موليه، وهؤلاء الجدد إذا استطاع أحدهم شراء العبيد واعتاقهم فعل ولم يتردد. وهكذا حتى يتفق أحياناً أن يكون الواحد منهم مولى مولى، أو مولى مولى مول أو أكثر.

جاء في الأغاني أن عبد الله بن وهب الفقيه المالكي الشهير كان مولى يزيد بن أنس الفهري، وكذلك حماد بن سامة والليث بن سعد وأبو أسامة وغيرهم. وكان ابن مناذر الشاعر مولى سليمان القهرمان، وسليمان مولى عبيد الله بن أبي بكرة، وعبيد الله من موالي النبي ﷺ[1].

وداود بن خالد بن دينار وأخوته من أهل الحديث وكلهم من موالي آل حنين، وآل حنين موالي مثقب، ومثقب موالي مسحل، ومسحل مولى شماس وهذا مولى العباس[2] بن عبد المطلب وبذلك أصبح كل واحد من هؤلاء مولى مولى مولى مولى مولى فبلغت نسبة الولاء خمس درجات. وقس على ذلك مما يدل على تكاثر الموالي في العصر الأموي وفيهم الفارسي، والتركي، والديلمي، والرومي، الخراساني، والسندي وغيرهم اشتغلوا بما كان يحتاج اليه العرب من الصناعات والمهن والفنون والآداب. إلى جانب هذا كان الموالي المحاربون، فقد كان في كل قبيلة من العرب عدد لا يستهان به منهم، فإذا خرجت إلى الحرب خرجوا معها يحاربون في سبيل نصرتها. واختلف عدد الموالي بالنسبة إلى مواليهم باختلاف العصور والظروف.

---

(1) الأغاني ج 17 ص 9.

(2) المعارف ص 197.

ففي عهد الامام علي بن أبي طالب كانت نسبة الموالي ممن يخرجون إلى الحرب كنسبة واحد إلى خمسة[1]. أي الخمس. ثم تكاثر عددهم بصورة ملحوظة في عصر الأمويين حتى انه زاد على عدد الأحرار.

ومع ذلك لاقوا الكثير من الظلم والاضطهاد من بني أمية زمناً طويلاً فصبر البعض منهم على ذلك منتظراً الفرج، لكن البعض الآخر لم يستطع تحمل الجور ففر من سلطانهم، كما فعل ميمون، جد ابراهيم الموصلي المغني المشهور[2].

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان تكاثر عددهم كثيراً وزاد خطرهم كثيراً فأدرك معاوية ذلك وأخذ يسعى بترتيب الأمر. وبعد أن فكر قرر أن يقتل بعضهم والبعض الآخر يقيمون الأسواق ويعمرون الطرق. لكنه قبل تنفيذ مشروعه استشار بعض رجالاته الذين يثق برجاحة عقلهم ومنهم: الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب فقال لهما: «إني رأيت هذه الحمراء[3] قد طعنت على السلف، وكأني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع شطراً لاقامة السوق وعمارة الطريق، فما ترون؟ فقال الأحنف، وكان معروفاً برجاحة عقله، أرى أن نفسي لا تطيب بقتل أخي لامي وخالي ومولاي وقد شاركناهم وشاركونا في النسب».

فقال سمرة: اجعلها إلي أيها الأمير، فأنا أتولى ذلك منهم وأبلغ إلى ما تريد منه. فقال: قوموا حتى أنظر في هذا الأمر. قال الأحنف: فقمنا وأنا خائف، وأتيت أهلي حزيناً. فلما كان بالغداة أرسل إلي، فعلمت أنه أخذ برأي وترك رأي سمرة»[4].

وجاء في فجر الاسلام «وأن أكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالي، وكان هؤلاء يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة، وأكثرهم من الفرس في جنسهم وفي لغتهم، جاؤوا الكوفة أسرى حرب ثم دخلوا في الاسلام ثم أعتقهم مالكوهم العرب، فكانوا موالي لهم، وبذلك صاروا أحراراً، ولكنهم ظلوا في حاجة إلى

(1) الكامل في التاريخ ج 3 ص 173.

(2) الأغاني ج 5 ص 2.

(3) يقصد الموالي.

(4) العقد الفريد ج 3 ص 413.

حماية سادتهم منهم حاشية العرب وأتباعهم في السلم والحرب»[1].

وجاء في معجم ياقوت أن من قتلوا في موقعة الحرة بالمدينة في عهد يزيد بن معاوية من الموالي بلغوا حوالي خمسة آلاف، بينما قتل من الأنصار وقريش ثلاثة آلاف[2].

أما البلاذري فيروي أن معاوية بن أبي سفيان أرسل إلى عمر بن الخطاب أربعة آلاف من سبي قيسارية[3]. وكتب التاريخ بصورة عامة تنبئنا أن الموالي زاد عددهم كثيراً حتى أنهم فاقوا السكان الأصليين ففي العراق أكثر السكان من الفرس والعرب أقلية. قال أحمد أمين: «أحصي من تجب عليهم الجزية في العراق فكانوا خمسمائة ألف وخمسين ألفاً، وهذا عدا من أسلموا من الفرس ولم تجب عليهم الجزية. هؤلاء الموالي كانوا يحالفون العرب ويدخلون في ولائهم لحمايتهم، ويعدونهم سادتهم، ويتعصب كل قوم منهم للقبيلة التي حالفوها من العرب»[4].

دور الموالي في الحضارة الأموية

للموالي فضل يؤثر في بناء الحضارة الأموية، وإذا تصفحنا كتب الأدب والتاريخ وجدنا معظم الحفاظ وأهل اللغة والتفسير والشعر وسائر العلماء من الموالي، لأن العرب في تلك الفترة انشغلوا عن هذه العلوم بالسياسة والتنازع على السلطة. ومعظم الموالي الذين خدموا العرب في صدر الاسلام من بقايا الفيء والغنائم في فارس وغيرها، وأكثرهم كانوا غلماناً في جملة السبي، فاعتنقوا الاسلام ونبغوا في سائر العلوم الاسلامية كالتفسير والحديث والفقه... كما نبغ من أولادهم عدد كبير كانوا عوناً كبيراً للمسلمين في العلم والحرب والدين والأدب. منهم موسى بن نصير القائد المعروف الذي فتح المغرب والأندلس، فأبوه كان منهم. وحمران مولى عثمان بن عفان[5].

---

(1) فجر الاسلام ص 92 وما بعدها.

(2) معجم البلدان مادة (حرة).

(3) فتوح البلدان ص 142.

(4) فجر الاسلام ص 181.

(5) الكامل في التاريخ ج 2 ص 192.

ومنهم أيضاً صاحب المغازي والسير، محمد بن إسحاق فجده يسار مولى[1]. وحماد الراوية أصل أبيه من الديلم وهو من سبي مكنف بن زيد الخير. ومروان بن أبي حفصة الشاعر المعروف أصله يهودي من سبي اصطخر[2]. وأبو دلامة الكوفي، كان عبداً لرجل من بني أسد فاعتقه[3]. وقس على ذلك سائر مشاهير الموالي من علماء وأدباء وشعراء وفقهاء...

وبصورة عامة لا يزال المولى أحط مقاماً من العربي. لكن في صدر الاسلام كانوا يتولون الكثير من مصالح الدولة التي تحتاج إلى ثقة وأمانة، فضلاً عن العلم والدين، وكان لهم رواتب سنية[4].

لكنهم كانوا محرومين من المناصب الرفيعة التي تحتاج إلى شرف وعصبية، كالقضاء مثلاً، فإنهم كانوا يعدونه فوق مرتبتهم ولا يستحقونه. فعمر بن عبد العزيز لما أراد أن يولي مكحولاً القضاء، رفض هذا المنصب وقال: قال النبي ﷺ: لا يقضي بين الناس إلا ذو الشرف في قومه، وأنا مولى[5].

وقد نبغ كثير منهم في مناحي المعارف والعلوم وبصورة خاصة الفقه حتى غلبوا على معظم المناطق والأقاليم. وجاء في العقد الفريد: فقال: «قال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى وكان جائراً شديد العصبية. من كان فقيه البصرة؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن قال: ثم من؟ قلت: محمد بن سيرين، قال: فما هما؟ قلت: موليان. قال: فمن كان فقيه مكة؟ قلت: عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبير وسعيد بن جبير، وسليمان بن يسار، قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالي، قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم ومحمد ابن المنكدر ونافع بن أبي نجيح، قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالي، فتغير لونه ثم قال: فمن أفقه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي وابن أبي الزناد، قال: فما كانا؟ قلت: من الموالي، فأربد وجهه، ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وهمّام بن منبه، قال: فما هؤلاء؟ قلت من الموالي، فانتفخت أوداجه وانتصب قاعداً ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت:

(1) وفيات الأعيان ج 1 ص 483.

(2) الأغاني ج 10 ص 71.

(3) وفيات الأعيان ج 1 ص 501.

(4) الأغاني ج 10 ص 163.

(5) العقد الفريد ج 1 ص 22.

عطاء بن عبد الله الخراساني، فقال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى، فازداد وجهه تربداً واسود اسوداداً حتى خفته، ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول، قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى، فازداد تغيظاً وحنقاً، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت ميمون بن مهران، قال: فما كان؟ قلت مولى، قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة قال: فوالله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عيينة وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: ابراهيم الشعبي قال: فما كانا؟ قلت: عربيان قال: الله أكبر، وسكن جأشه[1]. أما على الصعيد العلمي فلم يقتصر فضل الموالي على ميدان معين، بل نراهم قد تفوقوا في جميع الميادين، الأدبية، والسياسية، والقضائية والفنية. وقد كان بعضهم على جانب كبير من التقوى والصلاح وحسن السيرة، ونبل في الأخلاق. وكثير منهم كانوا عادلين معدلين شهاداتهم مقبولة عند القضاة.

ذكر أبو الفرج الأصفهاني أن دحمان مولى بني ليث بن بكر كان معدلاً مقبول الشهادة عند قضاة المدينة. وكان أبو سعيد مولى فائد أيضاً ممن تقبل شهادته، وكان معبد في أول أمره مقبول الشهادة، فلما حضر الوليد بن يزيد وعاشره على تلك الهنات وغنى له سقطت عدالته[2].

سادساً: المرأة العربية

كانت المرأة العربية تتمتع بقسط وافر من الحرية منذ عهد الخلفاء الراشدين حيث كان النساء يختلطن بالجمهور، ويسمعن خطب الخلفاء، ويحضرن المحاضرات. أما في العصر الأموي فقد أدخل كثير من العادات البيزنطية في بلاط الخلفاء وبصورة خاصة في عهد الوليد الثاني الذي أدخل اتخاذ الحريم واتخاذ الخصيان أمناء لهن في قصره[2].

والنساء اللواتي اشتهرن في العصر الأموي كثيرات اخترت عدداً منهن على سبيل الذكر لا الحصر. مثل:

أسماء بنت أبي بكر المرأة المثالية في الجرأة والاقدام والشهامة والاحترام وبعد النظر وقوة الحجة. وقد تجلت شهامتها حين سار الحجاج إلى مكة وحاصرها

---

(1) العقد الفريد ج 3 ص 415 وما بعدها.

(2) الأغاني ج 6 ص 21.

وضرب الكعبة بالمجانيق، وأرغم أهلها على طلب الأمان وانضم اليه كثير ممن أحبوا الدنيا وخافوا الموت في سبيل الحق. إلا عبد الله بن الزبير وعدد من أنصاره المخلصين.

دخل عبد الله على أمه أسماء وقال لها: يا أماه! قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي، ولم يبق معي إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة. والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا! فما رأيك؟

فقالت بكل إباء: أنت أعلم بنفسك؛ إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية يلعبون بها. إن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، ومن قتل معك، وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين. كم خلودك في الدنيا، القتل أحسن.

فقال: يا أماه! أخاف إن قتلني أهل الشام أنه يمثلوا بي ويصلبوني فقالت؟ يا بني! إن الشاة لا تألم بالسلخ بعد ذبحها، فاقض على بصيرتك واستعن بالله، فقبل رأسها وقال: «هذا رأي فطفقت أمه تدعو له وتشجعه»[3].

فهذه مثال المرأة العربية الشهمة الحرة تأبى الباطل والذل وتمضي في سبيل الحق مهما كان الثمن فتضحي بفلذة كبدها من أجل مقاومة الباطل ونصرة الحق. والحمد لله يوجد في كل عصر أسماء في جنوب لبنان وفي فلسطين المحتلة وفي الجزائر المحررة وفي كل بلد عربي شريف.

الزرقاء بنت عدي

ساهمت المرأة المسلمة المؤمنة في جميع المجالات السياسية والاجتماعية والأدبية وشقت طريقها وأنارت حياتها بنور الاسلام وفضل العلم والايمان. وفي حرب صفين التي دارت بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان والي الشام ظهر كثير من النساء المجاهدات اللواتي أبلين بلاء حسناً في نصرة الحق ومساندة بيت أهل النبوة منهن كانت الزرقاء بنت عدي

---

(1) المخصص لابن سيدة ج 3 ص 17 وما بعدها.

(2) كان الاغريق أول من سن تلك السنة السيئة.

(3) تاريخ ابن الأثير ج 4 ص 147.

التي دار حوار بينها وبين معاوية. كانت من ربات الفصاحة لا تعرف التملق ولا المواربة، ناصرت علياً في صفين، ولما تم الأمر لمعاوية بالحيلة والدهاء بعد مهزلة التحكيم، طلبها معاوية إليه بعد أن أوفد إلى عامله بالكوفة. ولما قدمت على معاوية دار بينهما الحوار التالي:

قال: مرحباً وأهلاً، هل تعلمين لما بعثت اليك؟

قالت: سبحان الله أنى لي بعلم ما لا أعلم، وهل يعلم ما في القلوب إلا الله؟

قال: بعثت إليك أسألك، ألست راكبة الجمل الأحمر يوم (صفين) بين الجيشين توقدين الحرب وتحرضين على القتال، فما حملك على هذا؟

قالت: يا أمير المؤمنين، إنه قد مات الرأس وبتر الذنب، والدهر ذو غير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعده الأمر.

قال: هل تحفظين كلامك يوم صفين؟ فقالت ما أحفظه. قال: احفظه الله أبوك لقد سمعتك تقولين «أيها الناس إنكم في فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن المحجة فيا لها من فتنة عمياء صماء تسمع لناعقها ولا تسلس لقائدها، إن المصباح لا يضيء في الشمس وان الكواكب لا تنير مع القمر، وإن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا الحديد.

ألا إن من استرشدنا أرشدناه، ومن استخبرنا أخبرناه، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها. فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار فكأن قد اندمل شعب الشتات والتأمت كلمة العدل، وغلب الحق باطله، فلا يعجلن أحد فيقول كيف العدل وأنى؟ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

«ألا إن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء والصبر خير عواقب الأمور. أيها الناس إلى الحرب قدماً غير ناكصين ولا متشاكسين فهذا يوم له ما بعده. ثم قال معاوية:

والله يا زرقاء لقد شركت علياً في كل دم سفكه.

فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير، وأدام سلامتك، مثلك من بشر بخير وسر جليسه.

قال لها: وقد سرك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سرني قولك فإني لي بتصديق الفعل. فقال معاوية:

ولوفاؤكم له بعد موته أعجب إلي من حبكم له في حياته. اذكري حاجتك قالت: يا أمير إني قد آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً»[1].

ومن شهيرات نساء العصر الأموي:

أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك

اشتهرت بقوة حجتها وبعد نظرها وشدة فصاحتها وعلو بلاغتها كان لها مكانة خاصة في بلاط الخليفة الوليد حيث كانت ساعده الأيمن في تصريف شؤون الخلافة ويستشيرها في أمور الدولة الهامة تحضر مجالس الأدباء وتلقي الخطب وتجادل وتحاور في شتى المواضيع السياسية والأدبية والاجتماعية والادارية.

عائشة بنت طلحة

هي أيضاً من النساء الأديبات اللواتي نبغن في الحقل الأدبي والتاريخي والعلمي وبصورة خاصة أيام العرب، وعلم النجوم الذي كان له شأنه في تلك اويام، وقد أخذه العرب عن الفرس. استدعاها يوماً هشام بن عبد الملك وقال لها: أتدرين ما أوفدك إلينا؟ قالت: حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق. قال: إني سأعرفه حقك، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية الذين لهم باع واسع في أيام العرب وأشعارهم فقال:

إن عائشة عندي فأسمروا عندي الليلة. فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته، فقال لها هشام: أما الأول فلا أنكره، وأما النجوم فمن أين لك؟ قالت: أخذتها عن خالتي عائشة، فأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة.

يروي الأصفهاني أن عاتكة بنت يزيد بن معاوية استأذنت عبد الملك في الحج فقال لها: «إرفعي حوائجك واستظهري، فإن عائشة بنت

---

(1) راجع أعلام النساء لعمر رضا كحالة والعقد الفريد لابن عبد ربه، وبلاغات النساء لابن طيفور.

طلحة تحج، ففعلت فجاءت بهيئة جهدت فيها، فلما كانت بين مكة والمدينة إذا موكب قد جاء فطفطها، وفرق جماعتها، فقالت أرى هذه عائشة بنت طلحة فسألت عنها، فقالوا: هذه خازنتها. ثم جاء موكب آخر أعظم من ذلك... فسألت عنه، فقالوا: هذه ماشطتها... ثم أقبلت كوكبة فيها ثلثمائة راحلة، عليها القباب والهوادج فقالت عاتكة: ما عند الله خير وأبقى»[1].

فإذا كانت بنت الخليفة يزيد حفيدة معاوية لا تبلغ مبلغ عائشة بنت طلحة في زينتها وهيبتها، فماذا كانت تلك الهيبة والزينة؟ وقد روي أنها لما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج إلى مال لها بالطائف عظيم وقصر لها، فتتنزه وتجلس فيه بالعشيات، ثم يفد عليها الشعراء فتجيزهم[2].

ومن شهيرات العصر الأموي: السيدة سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب.

السيدة سكينة بنت الحسين بن علي

سيدة نساء عصرها ومن أظرفهن وأحسنهن أخلاقاً. يقول صاحب الأغاني: «كانت السيدة سكينة عفيفة برزة من النساء تجالس الأجلة من قريش، ويجتمع اليها الشعراء، وكانت أحسنهم شعراً، لها ذوق جيد فيه، تنقد الشعراء وتفاضل بينهم»[3].

وإذا روي شيء من ترفها وبذخها فأكبر الظن إنما هو رمز لترف البيئة، فقد كانت المدينة، رجالاً ونساءً في العصر الأموي غارقة في ألوان مختلفة من الترف وأصباغ من النعيم.

وحفلات الزواج كانت عندهم في غاية البساطة، وهو يومان: يوم الاملاك ويوم العقد، وفيه يجتمع ذوو الفتاة في ساحة دارهم، ويقدم أهل الفتى وعند اجتماع الشمل يخطبهم ولي الفتى خطبة رقيقة، ثم يرد عليه ولي الفتاة في خطبة قصيرة يضمنها القبول والرضا.

---

(1) الأغاني ج 10 ص 60.

(2) الأغاني ج 10 ص 61.

(3) الأغاني ج 14 ص 173.

وبعد ذلك تنحر الجزر وتمد الموائد، وتسمى وليمة ذلك اليوم النقيعة. واليوم الثاني يوم البناء، وفيه يتبارى العرب في الاحتفال فيلعب الفتيان بالرماح، ويتسابقون على الخيل، ويجلس النساء على النمارق وتلبس العروس الحلى وتجلس على مكان مرتفع قليلاً، ثم يسير في حشد من أترابها ويغنيها النساء مشيدات بمآثر آبائها وعشيرتها ومحامد قومها. وإذا انقضى ذلك الحفل انصرف النساء وودعن الفتاة بقولهن: باليمن والبركة وعلى خير طائر[1].

أما اليوم فيقولون: بالرفاه والبنين.

سابعاً: ثراء وترف

كانت المدينة في عصر الخلفاء الراشدين عاصمة الدولة الاسلامية، وقد أخذت الأموال تسيل إليها من داخل الجزيرة العربية ومن خارجها. روى اليعقوبي أن الأسلاب التي قسمت بعد موقعة القادسية بلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً، وسهم الراجل سبعة آلاف ومئة[2]. ويقال إن خراج سواد الكوفة وحدها من بلاد العراق بلغ في خلافة عمر بن الخطاب عشرين ومائة ألف ألف درهم وكان صاحب الكوفة يحمل إلى المدينة من هذا الخراج نحو عشرين أو ثلاثين ألف ألف[3]. وبعد سنة خمس عشرة للهجرة توالت الفتوح وجاءت إلى المدينة أحمال من كنوز الأكاسرة من جواهر نفيسة وذهب وفضة وثياب فاخرة، وكان في المدينة بعض المرازبة الفرس فسأله عمر كيف يضبطون العطاء في بلادهم فوصف له ما سموه «ديواناً» ومنذ ذلك الحين دون عمر الدواوين وفرض العطاء.

وقد بدأ بالعباس عم النبي ﷺ وبقية بني هاشم، ثم الأقرب فالأقرب إلى النبي، وفرض للناس بحسب السابقة في الاسلام فلأهل بدر خمسة آلاف، ولمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف، في ذلك من شهد الفتح وقاتل. ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين، وفرض لأهل البلاء البارح منهم ألفين وخمسماية وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً.. وأعطى نساء النبي عشرة آلاف. وجعل لنساء أهل بدر

---

(1) المرأة العربية لعبد الله عفيفي ج 1 ص 155.

(2) اليعقوبي ج 2 ص 165.

(3) المصدر نفسه ص 174.

خمسماية، ونساء من بعدهم إلى الحديبية أربعماية، ونساء من ذلك إلى القادسية ثلاثماية ونساء أهل القادسية مائتين، ثم سوى بين الناس بعد ذلك وجعل الصبيان سواء في مائة مائة[1].

وقد سقنا كل ذلك لندل على مدى ما كان يصيبه أهل المدينة من أموال طائلة في عهد الخلفاء الراشدين.

وقد استمرت الفتوح في ارتفاعها حتى عصر عثمان بن عفان حيث زادت كثيراً وظهر كثير من أصحاب الملايين الذين ملكوا العقارات والقصور والعبيد. يروي البلاذري فيقول: إن عبد الله بن سعد بن أبي سرح صالح بطريق افريقيا بعد فتحها في عهد عثمان على ثلاثماية قنطار من الذهب، وقدر ذلك بعض المؤرخين بمليونين ونصف من الدنانير[2]. ويقال ان عثمان أمر لمروان بن الحكم بخمس هذا المال[3]. ومع دخول المال إلى المدينة كان دخول العبيد والرقيق الذي كان يسبى في الحروب من رجال ونساء.

ومن المعروف أن هذا الرقيق كان يحمل معه عادات وتقاليد بلاده وكان يعرف ألواناً من الحضارة الوافدة لا يعرفها أهل المدينة القدماء. وقد كان منه من الفرس والشام وافريقيا الذين أخذوا يؤثرون في حياة أهل المدينة تأثيراً عميقاً[4]. وقد تغير إثر ذلك أهل المدينة تغيراً كبيراً عما كانوا عليه من تقشف، ويكفي أن نشير إلى ما تركه كبار الصحابة من ثروات. يروي المؤرخون: أن عثمان خلف خمسين ومائة ألف دينار، وألف ألف درهم، وعقارات بلغت قيمتها ثلاثماية ألف دينار.

وطلحة خلف ثلاثماية بهار من الذهب والفضة، والبهار مزود من جلد عجل[5]

والزبير خلف خمسين ألف دينار، بينما خلف زيد بن ثابت مائة ألف دينار، وبلغ الربع في تركة عبد الرحمن بن عوف أربعة وثمانين ألف دينار، ومات يعلى بن منبه عن خمسماية ألف دينار وديون وعقارات بلغت قيمتها مائة ألف دينار. وقد

---

(1) تاريخ الطبري ج 1 ص 2412.

(2) البلاذري فتوح البلدان ص 227.

(3) اليعقوبي ج 2 ص 191.

(4) راجع العقد الفريد ج 1 ص 18.

(5) العقد الفريد ج 2 ص 279.

عقب المسعودي بعد ذكره لهذه الثروات الطائلة بقوله: وهذا باب يتسع ذكره، ويكثر وصفه، فيما تملك من الأموال في عهد عثمان[1].

يتضح مما سبق أن ثراء المدينة قد اتسع واتسعت معه الرفاهية التي لم تكن معروفة سابقاً. ومن مظاهر هذه الرفاهية والترف بناء الدور بالآجر والجص وإعمار القصور الفخمة واتخاذ أبوابها من الساج، وبدأ بذلك الخليفة عثمان نفسه وتبعه أعيان أهل المدينة[2]، مثل سعد بن أبي وقاص، وطلحة والمقداد، وعبد الرحمن ابن عوف، صهر عثمان. أما سعد فروي أنه ابتنى له داراً بالعقيق، رفع سمكها، ووسع فضاءها، وجعل على أعلاها شرفات. وأما طلحة فقد ابتنى له داراً أيضاً بالجص والآجر والساج، وأما المقداد فكانت داره بالموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة، وجعل على أعلاها شرفات، وصيرها مجصصة الظاهر والباطن، وكذلك بنى عبد الرحمن بن عوف له داراً كبيرة ونمضي إلى العصر الأموي فنجد الفتوحات الواسعة والثراء الواسع والأموال الطائلة والقصور الشاهقة، فقد زاد أولاد الصحابة على آبائهم وتفننوا كثيراً في ملح العيش ومتع الحياة بشتى ألوانها ومختلف مباهجها.

ومن ثم نقل معاوية بن أبي سفيان عاصمة الخلاف من المدينة إلى دمشق التي كان والياً عليها طيلة عشرين سنة. ومع ذلك ظلت المدينة لا تحرم من فيء الفتوح، وقرر لكل شخص في المدينة في نيته المطالبة بالخلافة عطاءً مميزاً. ولا ريب أن هذه سياسة ذكية منه ألهت أهل المدينة في الثراء والاماء، وقد كانوا في غالبيتهم ضد الحكم الأموي. ثم أوصى من جاء بعده من الخلفاء الأمويين لاتباع السياسة نفسها. فقد روي عن الوليد بن عبد الملك، الذي فتحت في عهده الأندلس، كما فتح شطر كبير من الهند، انه قد زار المدينة، وقسم فيها رقيقاً كثيراً بين الناس، كما قسم آنية من الذهب والفضة وأيضاً فانه قسم أموالاً[3].

هذا التقليد الذي ابتدعه معاوية، استرضاء للخصوم بالمال، اتبعه خلفاء بني أمية من بعده، فكانوا يجيزون من يفد عليهم من أهل المدينة، الجوائز السنية والعطايا الثمينة. يريدون بذلك أن يصطنعوهم لأنفسهم، وان يتقوا غضبهم

(1) مروج الذهب ج 4 ص 253.

(2) أ مروج الذهب ج 4 ص 253.

(3) الطبري ج 2 ص 1233.

وموجدتهم، لأن المال، كما هو معروف من اسمه، يميّل القلوب ويغير النفوس، ويبدل المواقف. وأوضح مثل على ذلك، زياد ابن أبيه، كان في أول الأمر مع علي يخاصم بني أمية ويقاتل ضدهم، ولما استرضاه معاوية بالمال اصطنعه لنفسه وغيّر موقفهِ وانتقل إلى صف معاوية يقاتل ضد علي وأعوان علي. واليوم وكل يوم التاريخ يعيد نفسه.

وكان بيت بني هاشم على رأس البيوت التي تستقبل استقبالاً كريماً في دمشق، فكان معاوية إذا وفد عليه أحد منهم وصله بالجوائز[1] ويروى أن معاوية قد أجاز الحسن بن علي بمائة ألف، وجعل له ما في بيت ماله وخراج دارابجرد، وكان فيه خمسة آلاف ألف[2]. وجاء بعد معاوية ابنه يزيد، فجرى على سنة أبيه في اصطناع الناس بالمال، فأعطى عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أربعة آلاف ألف[3]، وبعث إليه عثمان بن محمد بن أبي سفيان عامله على المدينة وفداً منها، فأحسن إليهم، وأعظم جوائزهم، وأعطى كلاً منهم مائة ألف درهم[4]. كما وفد عليه أيضاً زعيم الأنصار، عبد الله بن حنظلة في المدينة، ومعه ثمانية بنين فأعطاه مائة ألف درهم، وأعطى بنيه لكل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وما حملهم عليه[5].

ثم تبعت المدينة عبد الله بن الزبير، فولى أخاه مصعباً، وكان جواداً كريماً، يروى أنه أهدى صديقاً له في المدينة، عبد الله بن أبي فروة، كنزاً وجده عامله في خراسان، وهو نخلة كانت لكسرى مصنوعة من الذهب عثاكيلها من لؤلؤ وجوهر وياقوت أحمر وأخضر، وقد قومها المقومون لمصعب بألفي دينار! فأصبح ابن أبي فروة أيسر أهل المدينة[6]. كما منح عاصم بن عمر ستة عشر ألف دينار، ومنح كذلك عبد الله بن جعفر ضعف ذلك[7].

---

(1) العقد الفريد ج 1 ص 145.

(2) الطبري ج 2 ص 4.

(3) العقد الفريد ج 1 ص 145.

(4) الطبري ج 2 ص 402.

(5) المصدر نفسه ص 422.

(6) الوزراء والكتاب للجهشياري ص 44.

(7) المصدر نفسه ص 46.

ولما انتقلت الخلافة من آل سفيان إلى آل مروان أخذ هؤلاء يقطعون ألسنة الناس بالمال، وبصورة خاصة أهل المدينة. وقد زارها سليمان بن عبد الملك سنة 97 هـ وقسّم فيها أموالاً وفرض لقريش خاصة أربعة آلاف فريضة[1].

وكما نرى عم الثراء لسكان المدينة من مصدرين أساسيين في العصر الأموي الأول ما جاءت به الفتوح قديماً ونموه حديثاً، والثاني من خزائن دمشق ليقطعوا ألسنتهم ويتلهون بمباهج الدنيا عن المطالبة بالخلافة. وكان لهم ديوان خاص بهم استمر لا ينفذ، وما انقطع عنهم ما يأتيهم منه، إلا سنة واحدة حسب رواية الاصفهاني، في عهد هشام بن عبد الملك، فإنه منع عطاءهم بسبب خروج زيد بن علي عليه، ولكنه لم يلبث أن توفي فأعاده عليهم الوليد بن يزيد حسب سنة آبائه وأجداده[2].

يتضح مما تقدم أن أهل المدينة كان معظمهم في نعمة ويسار طوال الحكم الأموي، وبعضهم كان واسع الثراء امتلك القصور والعقارات والعبيد والحلال الكثير.

وما يجدر ذكره أنه كان يقترن بهذا الثراء الواسع ضروب من الحضارة الواسعة التي لم تعرفها المدينة قبل هذا العصر.

بدأ التغير والاقتباس يتسع ويتطور منذ عصر عثمان، حيث بنى بعض الصحابة الدور الفخمة والقصور الواسعة الأنيقة، ولكنه كان اقتباساً محدوداً في حدود ضيقة. أما في العصر الأموي فقد نشأ جيل جديد لم تكن له أي صلة بالحياة القديمة، ولا الحياة الجاهلية بل كل صلته كانت بالحياة الجديدة والحضارة الأجنبية التي نهل منها الشيء الكثير، وقد سموا هذا الجيل، جيل التابعين الذي كان خليطاً من العرب والموالي[3]. وهؤلاء هم جماعة سبوا في الفتوح هم وأبناؤهم وقد زاد عددهم كثيراً في المدينة مع ازدياد وتوسع الفتوح «حتى أن الزبير بن العوام مات وقد ترك منهم ألف عبد وأمة»[4].

---

(1) اليعقوبي ج 1 ص 358.

(2) الأغاني ج 7 ص 22.

(3) راجع طبقات ابن سعد ج 5 فيه ترجمة للتابعين والأنصار والموالي.

(4) المسعودي في مروج الذهب ج 4 ص 254.

وقد اشترك هؤلاء الموالي في حياة المدينة سلمها وحربها، كما مر معنا في البحث السابق. ففي السلم كانوا ينهضون باعداد الحياة للانصار والمهاجرين، إذ كانوا يقومون على خدمتهم.

جاء في المقدمة: «لما ملك العرب فارس والروم استخدموا بناتهم وأبناءهم، ولم يكونوا في ذلك العهد في شيء من الحضارة، فقد حكي أنه قدّم لهم المرقق، فكانوا يحسبونه رقاعاً، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى، فاستعملوه في عجينهم، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقوَمة عليه أفادهم علاج ذلك، والقيم على علمه، والتفنن فيه، مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله، فبلغوا الغاية من ذلك، وتطوروا بتطور الحضارة والترف في الأحوال، واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخُرْثيّ. فأتوا من ذلك وراء الغاية»[1].

ونمضي في العصر الأموي فنجد العرب في المدينة ومكة والشام، يضربون في الحضارة الأجنبية بحظوظ وافرة، فنوعوا في ألوان الأطعمة، وأصبحوا يأكلون في أوان من الذهب والفضة[2].

وكما عرفوا التنعم في المطعم عرفوا التنعم أيضاً في الملبس، فاتخذوا الخز والديباج والإستبرق.

لقد تغيرت ثياب النساء فاستبدلن الشعر وأوبار الجمل بالحرير والديباج[3]، ولبسن الثياب المعصفرة والرقيقة الشفافة.

ولم يقف الأمر عند النساء بل تعداه إلى الرجال أيضاً فأخذوا يلبسون المضرجات والممصّرات والملوَّنات[4]. ويروي ابن قتيبة أن أول من لبس الطيلسان في المدينة جُبَيْر بن مطعم[5]، واشتهر عبد الله بن جعفر بلبس الخز[6]،

---

(1) المقدمة لابن خلدون ص 144.

(2) راجع المستطرف للابشيهي ج 1 ص 162 والعقد الفريد ج 1 ص 111.

(3) الطبقات ج 8 ص 352.

(4) الأغاني ج 18 ص 204.

(5) المعارف ص 274.

(6) الأغاني ج 11 ص 76.

ومروان بن أبان بن عثمان يلبس سبعة قمصان بعضها أقصر من بعض كأنها درج، وفوقها رداء عدني بألفي درهم[1]. وعمر بن عبد العزيز، أول وال على المدينة، كان يلبس الثوب بأربعماية فيقول: ما أخشنه وأغلظه[2].

وكان فتية بني مروان يرفلون في القوهي والوشي كأنهم الدنانير الهرقلية[3] كما كانوا يكثرون من استعمال الطيب والعطور مقلدين بذلك الموالي والوافدين، وأشهر من كان يتطيب أهل المدينة، وعلى رأسهم الوالي عمر بن عبد العزيز قبل أن يتزهد. روى الأصفهاني عن هارون بن صالح عن أبيه قال: «نا نعطي الغسال الدراهم الكثيرة حتى يغسل ثيابنا في إثر ثياب عمر بن عبد العزيز من كثرة الطيب فيها يعني المسك»[4].

وعلى نحو ما بالغوا في ملابسهم ومآدبهم وطيبهم بالغوا كذلك في حليهم وجواهرهم فكان النساء يتحلين باللؤلؤ والياقوت واشتهرت عائشة بنت سعد بن أبي وقاص بزينتها من قلائد الذهب[5].

وقد قلد الرجال النساء، فكانوا يتخذون مثلهن الحلي والجواهر، في أيديهم وعلى صدورهم. والمترفون منهم بالغوا في التأنف فاتخذوا أوانيهم ومواد موائدهم من الذهب والفضة.

ولا ريب أن هذه المظاهر الفارغة تمت عندهم تحت تأثير ما سموه الحضارة الجديدة التي دخلت على المدينة والشام ومكة من خلال السبي إثر الفتوح، فغرق فيها العرب في العصر الأموي حتى آذانهم، لقد جذبتهم إغراءات الحياة الجديدة التي لم يروا مثلها من قبل.

(1) المصدر نفسه ج 17 ص 89.

(2) الطبقات ج 5 ص 246.

(3) الأغاني ج 1 ص 310.

(4) الأغاني ج 9 ص 262.

(5) الأغاني ج 8 ص 273 والطبقات ج 8 ص 343.

الفصل الرابع

الحياة الأدبية والفكرية في العصر الأموي

اعتنى العرب في صدر الاسلام عناية هامة بالعلوم الدينية مثل القرآن وتفسيره، والحديث وروايته، والأحكام الفقهية واستنباطها، والفتاوى الشرعية فيما يجد من مشاكل وما يعرض من أحداث. ولذلك نلاحظ أن العلوم الدينية قد انتشرت في العصر الأموي أكثر من العلوم العقلية كالطب والفلسفة والرياضيات والكيمياء والفيزياء التي علا شأنها وتجلت في العصور العباسية.

وفي العهد الأموي كانت الحياة الأدبية امتداداً لما كانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين مع تطور في الأسلوب ووفرة في المادة.

أما التدوين بمعناه العلمي فلم يظهر إلا بعد العهد الإسلامي الأول. لأن المسلمين لم يكن عنده كتاب مدون سوى القرآن الكريم.

والسبب في ذلك يرجع إلى عدة عوامل. بعض الرواة كان يزعم أن من الخلفاء قد لجأ إلى منع التدوين خشية أن يصرف الناس نشاطهم إليه. ومنهم من يرى أن حركة التدوين لم تنشط لأن المسلمين كانوا لا يزالون قريبين من عهد النبوة، في حين يرى آخرون أن التدوين قد يخلط القرآن بالحديث وهذا وهم بلا ريب لأن كلام الله لا يختلط به شيئاً وسوره وآياته كلها محصية بأمر إلهي لا يقبل الشك بأي حال. فالعناية الإلهية شاءت ألا تعبث بالقرآن يد التحريف والتبديل فقال سبحانه في كتابه العزيز **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾**[1]، وقد اختلف في أول من ألف الكتب ودون الأخبار، غير أن ابن النديم يشير إلى أن

(1) الحجر الآية 9.

عبيداً الجرهمي الذي عاش في القرن الأول الهجري هو أول من دوّن أخبار ملوك العرب والعجم، وان مجاهد بن جبير هو أول من دوّن كتاباً في التفسير، ووهب بن حنين 116 هـ هو أول من كتب التاريخ والمغازي[1].

أما تدوين الحديث النبوي الشريف فقد دون رسمياً في عهد عمر بن عبد العزيز سنة 98 هـ - 99 هـ عندما أمر ولاته إلى التدوين الرسمي للحديث النبوي الذي تأخر تدوينه إلى هذا التاريخ لاسباب سياسية خالصة اقترحها معاوية بن أبي سفيان[2].

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين اعتبر التفسير فرعاً من فروعه لكنه لم ينظم بطريقة علمية إلا في العصر العباسي.

أما علم الفقه فلم يطرأ عليه تطور يذكر في العهد الأموي والمعروف أن الخلفاء الراشدين كانوا يرجعون في أحكامهم إلى القرآن الكريم والسنة الشريفة، وإذا لم يجدوا يجتهدون بآرائهم. ولما انتشر كبار الصحابة في البلدان إبان الفتوحات التف حولهم طلاب العلم ليسمعوا إلى آرائهم ويأخذوا من علومهم ويحفظوا عنهم، فنشأت ن ذلك مدارس فقهية، تمخضت في أواخر القرن الأول عن مدرستين مشهورتين: مدرسة الحجاز التي تميز أصحابها بالحديث دون الرجوع إلى الرأي، ومدرسة العراق التي تميزت باستعمال الرأي أي الاجتهاد لحل كثير من اشكالات الأمور دون الرجوع إلى الحديث إلا نادراً.

ولما اختلط العرب مع كثير من الموالي الذين كانوا يتكلمون غير العربية وتعرضت اللغة العربية إلى اللحن والفساد دعت الضرورة عندئذٍ إلى تقويم اللسان العربي فكان علم **النحو:**

نشأ علم النحو في البصرة والكوفة، أهم مراكز الثقافة في القرن الأول الهجري ومنهما انطلقت علوم الفقه والعقائد ونشأت مدرسة النحويين واللغويين وكان يقيم في هاتين المدينتين كثير من الجاليات التي تنسب إلى قبائل عربية مختلفة اللهجات، كما كان يسكنها الآلاف من الموالي والمهنيين الذين يتكلمون

---

(1) حضارة العرب للدكتور الرافعي ص 168.

(2) نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية للمؤلف ج 1 ص

الفارسية والرومية والسريانية إلى جانب هذا كله زواج بعض العرب من نساء أجنبيات، ومنهم خلفاء كزوجة الرشيد مثلاً وغيرها كثيراً. هؤلاء الأمهات أدخلن اللحن إلى لسان أطفالهن وهناك أسباب أخرى كالجواري والمغنيات والخادمات....

لهذه الأسباب تعرضت العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد فأصبح من الضرورة بمكان حفظ اللسان العربي وتقويمه حتى لا يتعرض القرآن الكريم إلى التحريف وضع علم النحو في القواعد العربية.

وأول من تصدى لهذا العلم في العهد الأموي أبو الأسود الدؤلي الذي تلقى أصوله عن الامام علي بن أبي طالب[1]. وضع أبو الأسود أصول علم النحو في مدرسة البصرة التي اعتمدت القياس والمنطق تمييزاً لها عن مدرسة الكوفة. وقد تأثرت مدرسة البصرة بالمذاهب الفلسفية التي ظهرت فيها قبل غيرها من المدن الأخرى، وكان بين نحاة البصرة كثير من علماء الشيعة والمعتزلة الذين أفسحوا المجال للحكمة الأجنبية كي تؤثر في مذاهبهم الكلامية. ومن أبرز علماء مدرسة البصرة أبو عمرو بن العلاء 153 هـ الذي اهتم بالتفسير، والخليل بن أحمد واضع علم العروض وصاحب كتاب (العين) الذي يعتبر أول معجم وضع في اللغة العربية.

أما العلوم اللسانية فلم تتطور في العصر الأموي ولم تتغير كثيراً عما كانت عليه في الماضي؛ وإذا كان بعض التطور الذي سجلته فإنما كان بتأثير القرآن والحديث، اللذين وحدا اللهجات العربية وهذبا ألفاظها.

وبدافع الفتوحات الواسعة والتنظيمات الادارية استلزم إدخال كلمات جديدة استعربت واستعملت بدافع الحاجة اليها.

أما الأدب في فرعيه الشعر والنثر فقد تطور تطوراً ملموساً تبعاً لتطور المجتمع الأموي، هذا المجتمع الذي نشطت فيه العصبيات، وتعاظمت الاختلافات، ونشأت الفرق، وتضاربت السياسات.

ومهما يكن من أمر فقد كانت نزعة الأمويين جاهلية لا تميل إلى التفكير الفلسفي، بل يؤثر عندهم الشعر الجيد والخطبة البليغة، حتى أصبح الشعر عندهم

---

(1) راجع الفهرست لابن النديم ص 60 وما بعدها.

سلاحاً سياسياً، ووسيلة من وسائل الدعاية، وقد غالى الخلفاء والأمراء من أجل ذلك في تشجيع الشعراء واستخدامهم في أغراضهم السياسية وتأييد وجهة نظرهم في الحكم.

وعملاً بهذه السياسة أتاحوا للحجاز حياة مترفة هادئة فأغدقوا عليه المال والجواري، وقد أعطت هذه الحياة ثمارها فكان الشعر الغزلي الرقيق الذي تحول فيما بعد إلى مجون ومن أشهر الشعراء فيه عمر بن أبي ربيعة.

أما الغزل العفيف، البعيد عن الفحش فقد نما في بادية الحجاز، ونشأ في بني عذرة وخزاعة ومثله في عصر بني أمية، جميل بثينة وكثير عزة. وفي نوعيه الماجن والبريء فلمس فيه عذوبة ورقة لم تتوفر لشعر العصور السابقة، وتجديد في بعض الصور الشعرية اقتضته طبيعة الحياة ومتطلبات الثقافة في المجتمع الحيوي الجديد.

وقد وجدت خارج الحجاز ضروب أخرى من الشعر، فنبغ المثلث الأموي الفرزدق وجرير والأخطل وكلهم من أهل العراق مولداً ومنشأ، ونزحت عناصر نشيطة منذ الفتح الاسلامي إلى الأقاليم العربية كالعراق والشام. وبلغت المنافسة أشدها بين جرير والفرزدق فكانت النقائض التي تميزت بالهجاء العنيف المقذع. وقد اكتسب الشعر من جراء هذه المنافسة درجة عظيمة من الاتقان والجودة وأصبح المعين الثري الذي اغترفت منه اللغة العربية في عصرها الجديد. وكان لكل من جرير والفرزدق أنصار يعصبون له ولشعره، يدلنا على ذلك الانقسام الذي حدث بين جند أبي صفرة والي خراسان عند مسيرته لحرب الأزارقة من الخوارج. ففريق كان يحبذ جريراً وآخر فضل الفرزدق. ثم انضم إلى هذا العراك الأخطل، وكان مسيحياً هواه مع الفرزدق وقد اتخذه الأمويون كبير شعرائهم وأعظم مؤيديهم وكان من المقربين لعبد الملك بن مروان. يدخل عليه دون استئذان وعليه صليب من ذهب متدل من رقبته بسلسلة ذهبية، وهو مرتدٍ أفخر الثياب الحريرية.

كما كان للأحزاب السياسية الأخرى شعراء أبلوا بلاءً حسناً في تأييد مذاهبهم وآرائهم والدفاع عنها والدعوة اليها. نذكر منهم عمران بن حطان عن الخوارج، وعبد الله بن قيس الرقيات عن الزبيريين، والكميت بن زيد عن الشيعة.

ونظراً لتطور الادارة الحكومية وتعدد حاجاتها استدعى ذلك انشاء الدواوين، من هذه الدواوين وأقربها اتصالاً بالحياة الأدبية، ديوان الانشاء والرسائل الذي أوجد

نوعاً من النثر لم يكن للعرب عهد به من قبل. وقد سمي هذا النثر: النثر الفني. ويقصدون به تلك الرسائل التي كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاته وعماله في الأقاليم. وقد استخدم النثر كالشعر للدعايات السياسية، واعتمد وسيلة للتفاخر والتفاضل في الصراع القائم بين الأحزاب والفرق كالخوارج والشيعة والزبيرية والأمويين، واليمنية والقيسية، والعرب والشعوبيين وبصورة خاصة الفرس[1].

وقد نما هذا النوع من النثر الفني حتى ظهر في آخر عهد الدولة الأموية عبد الحميد الكاتب (134 هـ) وعبد الله بن المقفع (143 هـ).

الشعر في خدمة الدولة الأموية

تعددت ألوان الشعر وتنوعت أساليبه في رحاب البلاط الأموي وفي ركب سياساتهم، وقد كان إسهام الشعر في نطاق الحزبية الأموية مدرسة لها أصولها وميزاتها.

لم يكن شعراء الأمويين يسكنون دمشق عاصمة الخلافة كما ألفنا ذلك عند الخلفاء العباسيين وإنما كانوا يرسلون بقصائدهم في تأييد بني أمية من حيث هم مقيمون ويفدون إلى العاصمة في بعض الأحيان فمن الحجاز يفد إلى دمشق الأحوص آتياً من المدينة، ومن العراق عبد الله بن الزبير الأسدي وجرير والفرزدق، الأول يأتي من الكوفة ويجيء الآخران من البصرة حيث اتخذا من مربدها مسرحاً رحيباً لنقائضهما المشهورة. ومن الجزيرة يأتي شاعرا ربيعة الأخطل والقطامي.

وهكذا نجد شعراء الدولة الأموية المدافعين عن سياستها والمتكسبين من أموالها متفرقين في الأمصار، إلا شاعراً واحداً أقام في دمشق متفرغاً لمدح الوليد بن عبد الملك هو عدي بن الرقاع. ولا ريب أن أشهر هؤلاء الشعراء جميعاً فرسان القول الثلاثة الأخطل وجرير والفرزدق.

وما يجدر الاشارة إليه نقطتان هامتان هما:

الشعر في خدمة الخليفة يستغله في أخذ البيعة لابنه دون غيره.

---

(1) راجع الوزراء والكتاب للجهشياري ص 72.

والشعر في خدمة الخليفة كرئيس لحزب سياسي وعلى الخلافة التي تطبق فلسفة الحزب الحاكم بمبادئه المؤيدة لسياسته.

فأما أخذ البيعة من الأب للابن فهو تقليد جديد في ظل الخلافة الاسلامية فمعاوية حينما استقر له الأمر لم يكن ليسمح بخروج السلطة من البيت الأموي وفوق هذا لقد جعل الخلافة وراثية في عقبه وولده يزيد على وجه التحديد.

وكان يعلم جيداً أن بعض رؤوس بني أمية يعارضون في ذلك وعلى رأسهم سعيد بن العاص ومروان بن الحكم. لذلك رأينا معاوية يوعز لشاعره مسكين الدارمي لينشد قصيدة يقترح فيها ولاية العهد لابنه يزيد واقترح على الشاعر إلى اختيار انشادها في وقت يكون هؤلاء الأعيان الثلاثة حضوراً وكان للدارمي قيمة فنية لشعره لها صداها الواسع في نفوس المعجبين برقته. فانتهز الشاعر المكلف فرصة وجود الثلاثة وأنشد القصيدة السياسية المشهورة التي ورد فيها:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر	ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فانما	يلونها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاّه ربه	فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والخدّ صاعدٍ	لكل أناس طائر وجدود
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً	تشيد أطناب له وعمود

فقال معاوية بعد سماعه القصيدة ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله. وقيل أيضاً أن سامعي القصيدة كانوا يهزون رؤوسهم إعجاباً بنسجها وإنشادها وليس تسليماً بما تهدف إليه فاعتبر هز الرؤوس موافقة على أخذ البيعة ليزيد.

ولا ريب أن هذا التغيير في السياسة الاسلامية قد أثار كثيراً من المسلمين حتى الذين يمتّون بصلة الدم والعشيرة إلى بني أمية واعتبر هذا الإجراء إجراء رومياً وكسروياً، واعتبر معاوية أول ملك في الاسلام.

وما ان مات معاوية حتى توج يزيد ملكاً على المسلمين وكان الدور التنفيذي لهذه العملية السياسية شعر مسكين الدارمين.

وأصبح الأمر بعد ذلك سنة تحتذى وأخذ كل خليفة يريد أخذ العهد لابنه يتخذ الشعر خادماً مطيعاً يقوم بدوره المطلوب في حذق سياسي والوجه الثاني في خدمة الحزبية الأموية العام كان خادماً لها في دروبها الضيقة ومسالكها الملتوية يتدخل في أدق شؤون الدولة بالتوجيه السياسي ولذلك كثر الشعراء المداحون والمتكسبون في بلاط الأمويين وتهافتوا من جميع الفئات والمناطق ليقولوا ويتكسبوا. مما دفع بهم لأن يضفوا على القوم جميع مؤهلات الرئاسة وأسباب الزعامة.

ولا غرابة فالطير يجتمع حيث ينتثر الحب وأكثر الشعراء لم يلتزموا بمبادىء سليمة وقواعد ثابتة بل مالوا مع المال. ومن هؤلاء الفرزدق فهو الذي أضفى على آل البيت الهاشمي صفات الامامة والهدى عاد يمدح وينادي بأحقية بني أمية في إمارة المؤمنين وقد غلا فيه ولم يقصر في هذا المجال. ولا ندري هل كان ذلك التحول طمعاً أم خوفاً؟ فهو الذي مدح الامام علي زين العابدين فقال فيه:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته　　　والبيت يعرفه والحل والحرم

ثم عاد ليقول في مدح عبد الملك بن مروان عندما انتصر على الزبيريين

فالأرض لله ولاّها خليفته　　　وصاحب الله فيها غير مغلوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به　　　كذاب مكة من مكر وتخريب
راموا الخلافة في غدر فأخطأهم　　　منها صدور وفازوا بالعراقيب
والناس في فتنة عمياء قد تركت　　　أشرافهم بين مقتول ومحروب
دَعَوا ليستخلف الرحمن غيرهم　　　والله يسمع دعوى كل مكروب
تراث عثمان كانوا الأولياء به　　　سربال ملك عليهم غير مسلوب[1]

ثم يذهب الفرزدق مذهباً بعيداً في تحمسه للملوك الأمويين عندما يمدح يزيد بن عبد الملك ويصفه بأنه خليل الله، وأنه لو كانت هناك نبوة بعد محمد المصطفى ﷺ لكان يزيد ذلك النبي فيقول:

لو كان بعد المصطفى من عباده　　　نبي مد لهم منهم لأمرِ العزائم

---

(1) ديوان الفرزدق ج 1 ص 25.

لكنت الذي يختاره الله بعده | لحمل الأمانات الثقال العظائم
وورثتم خليل الله كل خزانة | وكل كتاب بالنبوة قائم[1]

لقد أوغل في تجامله بحيث جعل من الأمور دعوة دينية خالصة، أكثر منها صراعاً على كرسي الحكم أو نزاعاً بين بني أمية وبني هاشم، والغرابة في هذا كله أن صاحب هذا الشعر هو الفرزدق الذي عاش في اسلامه وكأن الدين الحنيف لم ينزع عنه الثوب الجاهلي، ولم يهذب من نفسه ومن أبناء عمومة الفرزدق الشاعر المعروف جرير الذي أفنى حياته في الولاء لبني أمية ومدحهم بالدرر الثمينة التي قلدها ملوكهم وعمالهم.

مدح جرير عبد الملك مدحاً سياسياً بأسلوب رقيق مطبوع مألوف في معركة سياسية خالصة بين الخوارج والشيعة والزبيريين. قال فيه:

أنت الأمين أمين الله لا سرف | فيما وليت ولا هيابة ووع
أنت المبارك يهدي الله شيعته | إذا تفرقت الأهواء والشيع
فكل أمر على يمن أمرت به | فينا مطاع ومهما قلت تستمع
يا آل مروان إن الله فضلكم | فضلاً عظيماً على من دينه البدع[2]

ومن مدح الاب إلى مدح الابن الوليد الذي جعله الامام الذي اصطفاه الله بالنصر وقدر تعالى أن يكون خليفة على المسلمين فقال:

إن الوليد هو الامام المصطفى | بالنصر - هُزَّ لواؤه - والمغنمِ
ذو العرش قدر أن تكون خليفة | ملكت فاعل على المنابر واسلمِ

إذا كان الشعراء قد بالغوا كثيراً في مدحهم للامويين فلأنهم أحسوا أن مشاعر الناس وقلوبهم قد أصبحت بعيدة عن حبهم لهم رغم اتساع ملكهم وسخاء أيديهم.

وإذا كان هذا قول جرير فماذا عسى أن يكون دور الأخطل؟

خاض الأخطل في خضم السياسة الأموية وكان يلقب بشاعر أمير المؤمنين

---

(1) ديوان الفرزدق ج 1 ص 829.

(2) ديوان جرير ص 355 والورع: الجبان.

ومن أشهر قصائده في مدح بني أمية، قصيدته في عبد الملك بن مروان المعروفة «بخف القطين» فقد استفاضت الأخبار حول جودة إنشادها وشدة إعجاب عبد الملك بها حتى وصف الأخطل بعد إنشادها إياه بأنه أشعر العرب ونال عليها أثمن جائزة.

قصيدة جيدة النسج، سلسلة الأسلوب، قوية التركيب أفاض فيها الشاعر ألواناً من المديح على ممدوحه فوصفه بالجواد الفياض والامام الذي يستسقى به المطر، والفرات المتدفق كرماً ونبلاً حتى عده في الذورة من قريش فيقول:

إلى إمام تغادينا فواضله	أظفره الله فليهنأ له الظفر
الخائض الغمر والميمون طلعته	خليفة الله يستسقى به المطر
وما الفرات إذا جاشت غواربه	في حافتيه وفي أوساطه العشر
يوماً بأجودَ منه حين تسأله	ولا بأجهر منه حين يجتهر[1]

وكما نرى قام الشعر الأموي بدور بارز في معركة الحزبية وفي ميادين النضال المذهبي والسياسي بتنوع في الاسلوب وعديد من الشعراء. وقد أشعل نار المعارك وألهب أوارها وباعد بين أصحابها وأجج نيران العداوة بينهم.

«وأكثر هذا الشعر الذي قيل رغم جودته لم يكن صادراً دائماً عن إيمان قائله بحزبه وتفانيه في سبيله، فالذي لا مراء فيه أن شعراء الخوارج وعدداً كبيراً من شعراء الشيعة كانوا ينشدون شعرهم عن إيمان صادق وعقيدة أصيلة في أنفسهم، ولكننا نجد في الوقت نفسه بعض شعراء بني أمية قالوا شعرهم السياسي تقليداً أو استنشاداً أو رغبة في صلة أو تحامياً لأذى أو تحاشياً لاضطهاد، غير أننا نسجل في الوقت نفسه وبكثير من الثقة أن هذا الشعر السياسي الحزبي هو ضرب مبتدع من القول الجديد، جعل هذا الفن يسير في موكب السياسة ممسكاً بأسبابها غير متخلف قيد أنملة عما جرى من أحداث وما نشب من عظائم الأمور»[2].

وما يجدر ملاحظته أن الشعر اللأموي بمجمله كان يستقصي المعاني دون الألفاظ والمضمون دون الشكل، فجاء غنياً جداً بالأفكار العميقة والمعاني المكثفة لكنه يكاد يخلو من زخرف اللفظ وتنميق الكلام.

---

(1) ديوان الأخطل والغوارب: الأمواج ـ العشر: شجر.

(2) رحلة الشعر للدكتور مصطفى الشكعة ص 104.

الغناء

لون من ألوان الترف وعنصر من عناصر الحضارة عند العرب، الغناء بدأ منذ العصر الجاهلي وتجلى فناً مستقلاً على يد الخلفاء الأمويين وأهم مراكز الغناء عندهم في المدينة ومكة، ولا غرابة في الأمر فالسياسيون يخترعون ما يطيب لهم من أساليب من أجل مصالحهم الشخصية، وتثبيت حكمهم، وجذب الناس إليهم، وإسكات معارضيهم بأي طريقة من الطرق. لذلك عمدوا إلى تنشيط فن الغناء لينغمس الناس في الملاهي فيتشاغلون بها عن المطالبة بالحكم ويتلهون في الحياة الدنيا ومباهجها.

تاريخ الغناء عند العرب

شغف العرب بالغناء منذ القديم بلونيه المفرح والمبكي، فقد كانوا يرقصون أطفالهم بالغناء، كما كانوا يبكون موتاهم بالنواح[1]. واشتهروا أيضاً بأغانيهم وأشعارهم الخماسية في الحروب وبحدائهم للإبل في مسيرهم وترحالهم[2].

جاء في العقد الفريد عن البلدان العربية التي تفشى فيها الغناء بشكل ظاهر. قال ابن عبد ربه: «كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودُومة الجندل»[3].

فالمدينة كانت إحدى مواطن الغناء المهمة في العصر الجاهلي، وقد ورد نصوص عديدة تؤكد أن الغناء كان شائعاً في المدينة وأن نساء العرب كن يشتركن فيه. كما عرفت المدينة القيان الأجانب اللواتي استخدمن في الغناء في «مدن الجزيرة العربية وفي بعض القبائل»[4]. وأكثرهن كان من الفرس أو اليونان كن يغنين بلسان عربي، أو بلسانهن الفارسي أو اليوناني. روى الأصفهاني عن أخبار النابغة الذبياني أن أهل المدينة أمروا إحدى القيان أن تغنيه بشعر له، كان فيه إقواء، فعرف موضع خطئه ولم يعد إليه.

---

(1) راجع تاريخ الطبري ج 1 ص 1116 والمسعودي ج 8 ص 95.

(2) المرجع نفسه.

(3) العقد الفريد ج 3 ص 241.

(4) الفن ومذاهبه د. شوقي ضيف ص 46.

ومن الملاحظ أنه لم تكن هناك قواعد مرسومة للغناء في العصر الجاهلي، حيث لم يكن عند هؤلاء المغنين من قيان وغير قيان نظام خاص في غنائهم، بل كان كل يغني حسب شعوره وعواطفه وغايته التأثير في سامعيه، إذ كان العرب لا يزالون أميل إلى الفطرة في حياتهم وفنونهم التي كانت في طورها البدائي.

وفي عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ظل الغناء محدوداً لا إسراف فيه، لكن بعض الفئات على كل حال كانت تأخذ منه بنصيب.

والنبي ﷺ لم يكن يحرم الغناء ولم يدع إلى نبذه، وعندما وفد الأعشى عليه ليمدحه كان يرصده رجال من قريش، ولما مرّ بهم تعرضوا له قائلين: إلى أين يا أبا بصير؟ قال: أردت صاحبكم لأسلم فقالوا: إنه ينهاك عن خلال، ويحرمها عليك، وكلها بك رافق ولك موافق، فلما سألهم عن هذه الخلال، ما هن؟ قال أبو سفيان بن حرب، الزنا والقمار والربا والخمر»[1]. فلو كان الغناء محرماً لذكره من بين هذه الخلال، ولو كان النبي ﷺ قد حرمه لذكره أبو سفيان حتى يرد الأعشى عن الاسلام، إذ كان مغنياً يغني شعره على الصنج ولذلك سمي صناجة العرب[2].

أما ما جاء من كراهية العرب للغناء فيما بعد، فإنه جاء متأخراً ومتأثراً بآراء شخصية لبعض الصحابة والتابعين. ومع مرور الزمن أخذ الناس يختلفون في تحريم الغناء وإباحته. فالبعض منهم حبذه وأباحه والبعض الآخر كرهه وحرمه. قال ابن عبد ربه:

«اختلف الناس في الغناء فأجازه عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق»[3]. ثم أخذ رأي أهل العراق ينتشر ويسود في العصور المتأخرة وخاصة عند المتشددين.

وإذا ما انتقلنا إلى عصر أبي بكر وعمر وجدنا المدينة مشغولة بالحروب والفتوح. ومما ورد عن أبي بكر وعمر من أحاديث أنهما كانا يكرهان الغناء وهذا ما جعله لا يشيع في عصرهما.

---

(1) الأغاني ج 9 ص 125.

(2) المصدر نفسه ج 9 ص 109.

(3) العقد الفريد ج 3 ص 230.

أما في عصر عثمان فقد اتسعت دائرة الغناء واكتظت المدينة بجماهير الأسرى التي أخذت تتعرب، فالفتوح هدأت وتحولت معيشة العرب إلى رفاهية وهدوء وبدأت تتلون بألوان الحضارة التي رآها العرب في الأمبراطورية البيزنطية والفارسية والتي جاء بها الأسرى من فرس ورومانيين ومصريين وشآميين.

وشرع أشراف المدينة يبنون القصور التي كانت تكتظ بالمغنين والمغنيات، فكل شخص من قريش كان يأتي لنفسه بمغن أو مغنية، وأحياناً بجوقة من الفريقين معاً. جاء في الأغاني: أن عامراً والي عثمان على البصرة اشترى إماءً صناجات وأتى بهن إلى المدينة فكان لهن يوم في الأسبوع يلعبن فيه، وسمع الناس منهن وأخذوا عنهن»[1].

وفي عهد عثمان أول من غنى بالعربية طويس المغني المشهور من الموالي غنى بالمدينة وألقى الخُنْثَ بها[2]. كما اشتهر مغن آخر هو فِنّد كان مولى لسعد بن أبي وقاص[3].

وبفضل هؤلاء الموالي الأجانب تحولت المدينة إلى مركز غنائي هام في العصر الأموي.

وفي عهد علي بن أبي طالب توقفت الحركة الغنائية لانشغال أهل المدينة بالحروب المستمرة التي نشبت بين علي وبين معاوية من جهة، وبينه وبين الخوارج من جهة أخرى. وما أن هدأت الأمور حتى أقبلت المدينة على الغناء لتسترد ما فاتها منه ولتتفوق فيه تفوقاً ملحوظاً.

الغناء في العصر الأموي

أهم مراكز الغناء: المدينة ومكة

المدينة: اهتم أهل الحجاز بالغناء اهتماماً بالغاً، ويأتي على رأس المهتمين به الأشراف منهم، حتى أصبح إقليمهم أشهر الأقاليم العربية بهذا الفن. أما أهل العراق فلم يكونوا يعجبون بالغناء وكذلك أهل الشام في أول الأمر[4]. ولم يذكر لنا المؤرخون عن مغن أجنبي في مكة أثناء عصر الخلفاء الراشدين، ولعل السبب في

---

(1) الأغاني ج 8 ص 321.

(2) المصدر نفسه ج 3 ص 27.

(3) العقد الفريد ج 3 ص 245.

(4) الأغاني ج 8 ص 324.

ذلك أن المدينة كانت قد سبقت غيرها إلى الثراء من الفتوح وهي التي سبقت أيضاً إلى اتخاذ الرقيق، وكانت عاصمة الدولة الاسلامية، فأسرعت إليها هذه الموجة من موجات الحضارة الوافدة. ومما يظهر أن التنافس قديم بين المدينة ومكة.

فلم تلبث هذه أن عنيت بالغناء وأصبحت تنافس المدينة فيه، فظهر عندها المغني المعروف ابن مسحج وتلاميذه، وابن سريج تلميذ طويس[1]. واستمرت المدينة مشهورة بفن الغناء حتى العصر العباسي، فلا ينكره عالمهم ولا يدفعه عابدهم على حد قول أبي الفرج الأصفهاني، ولم يبق في المدينة مخبأة، ولا شابة، ولا شاب، ولا كهل، إلا خرج يبصره[2].

ومن ثم بدأ المغنون يؤلفون طبقة مميزة في العصر الأموي واننا نجد كثيراً من العرب كانوا يطلبون الغناء ويقدرونه، وقد أخذ يظهر فيه بوضوح عنصر الرجال من الموالي والأجانب والعرب مثل المغني العربي المعروف، مالك بن أبي السمح الطائي، ولم يكن هذا العنصر معروفاً في العصر الجاهلي إنما كان المعروف عنصر القيان.

وقد تميز الرجال من الموالي أول الأمر بأنهم كانوا من المخنثين، وهي جماعة من الرجال كانت تذهب مذهب النساء فتلبس ملابسها، وتقلدها في حركاتها وعاداتها، وأول محترف معرف للموسيقى والغناء في المدينة من هذه الجماعة هو طويس[3] الذي مر ذكره.

ثم اتسعت موجة الغناء فشملت جماعات أخرى من الموالي غير المخنثين ومن العرب أنفسهم بحيث نرى والي المدينة عمر بن عبد العزيز يصنع مجموعة من الأصوات يسجلها له صاحب كتاب الأغاني[4]. وهكذا أصبح الغناء في المدينة فناً معروفاً وعملاً شريفاً. فقاضي المدينة ابن حنطب يعرف الغناء، وفقيه المدينة مالك بن أنسب يعرف الغناء ويحبذه ولم يبق أحد في المدينة إلا وكان يتغنى، فإن لم يتغن كان يستمع إلى الغناء، ويعجب به. روى الأصفهاني قال: حدث حسين ابن دحمان الأشقر قال: «كنت بالمدينة، فخلا لي الطريق وسط النهار فجعلت أتغنى:

---

(1) راجع الأغاني ج 3 ص 276 والعقد الفريد ج 3 ص 242.

(2) الاغاني ج 3 ص 245.

(3) الأغاني ج 3 ص 27.

(4) المصدر نفسه ج 9 ص 250.

مـا بـال أهـلـك يـا ربـابُ   خُـزْراً كـأنـهـم غـضـاب[1]

قال: فإذا خوخة قد فتحت، وإذا وجه قد بدا، تتبعه لحية حمراء فقال: يا فاسق أسأت التأدية، ومنعت القائلة، وأذعت الفاحشة، ثم اندفع يغنيه، فظننت أن طويساً قد نشر بعينه فقلت له: أصلحك الله من أين لك هذا الغناء؟ فقال: نشأت وأنا غلام، أتبع المغنين وآخذ عنهم فقالت لي أمي: يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه فدع الغناء، واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء.. فقلت له: فأعد جعلت فداءك فقال: لا، ولا كرامة، أتريد أن تقول: أخذته عن مالك بن أنس، وإذا هو مالك بن أنس ولم أعلم».

وكما اندفع الرجال إلى الغناء اندفع أكثر النساء وكان على رأسهن **عزة الميلاء**، يقصدها أهل المدينة لسماع الغناء، وكان لها دار كبرى في المدينة للغناء. وقد عقد صاحب الأغاني للمغنين والمغنيات فصولاً طويلة في كتابه واهتم بتسجيل أخبار كثير منهم نذكر من هؤلاء: طويس ومعبد ومالك الطائي ويونس الكاتب ودحمان وعطرد وجميلة التي كان لها دار كبرى للغناء في المدينة. وكان هؤلاء يغنون الناس في المدينة بدون ستارة تفصل بينهم.

عزة الميلاء:

مولاة الأنصار، وهي أقدم مغنيات المدينة، كانت تغني أولاً أغاني القيان، أمثال سيرين وزينب وخولة والرباب وسلمى ورائقة. ولما قدم المغني المعروف نشيط المدينة أخذت عنه، كما أخذت عن زميله سائب خاثر، فكانت أول من غنى الغناء الموقع بالحجاز من الجوارني[2].

وكانت عزة من النساء الفاتنات الجميلات فتنت «طويس» الذي قال عنها: «هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع»[3]. وكان لها دار اتخذتها تغني فيها الناس. وممن شغف بها ابن أبي عتيق وعبد الله بن جعفر، وعمر بن أبي ربيعة وقد قصدوها يوماً فغنتهم وطربوا طرباً لا يوصف، وغنت عمر في شيء من شعره فشق ثيابه وصاح صيحة عظيمة صعق معها من شدة الطرب[4].

---

(1) المصدر نفسه ج 4 ص 222 وخزراً ينظرون بلحظ العين كناية عن الغضب.

(2) الأغاني ج 16 ص 13.

(3) الأغاني ج 16 ص 14.

(4) الأغاني ج 16 ص 14.

وجمعت عزة بين القديم والحديث فكانت تضرب بالمزاهر والمعازف القديمة، كما كانت تضرب بسائر الآلات الحديثة[1]. ومن تلامذتها ابن محرز وابن سريج في مكة، والبردان في المدينة.

لكن العرب وإن تأثروا بالغناء الأجنبي إلا أنهم لم ينقلوا من الفرس ولا من الروم نظريتهم الغنائية، إنما نقلوا بعض الأنغام والألحان والأدوات الموسيقية التي عرض لها المسعودي في كتابه: مروج الذهب، بالتفصيل ومن أشهر أخباره عن المغنيات المغنية:

جميلة:

كانت تغني في بيتها وقد بلغت شوطاً بعيداً في الفن الغنائي حتى وصلت فيه إلى أرقى درجاته. كانت تغني بمصاحبة جوقة كبيرة تضرب على العيدان والأوتار، حتى لتبلغ الجوقة أحياناً خمسين شخصاً، وكانت تضرب في أثناء غنائها وتضرب الجوقة على ضربتها[2]. وكان يرافق الجوقة في الغناء راقصات. روى صاحب الأغاني أنها لبست برنساً طويلاً وألبست من كان عندها برانس أقصر منه ثم قامت ورقصت وضربت بالعود، وعلى عاتقها بردة يمانية، وقام ابن سريج يرقص ومعه معبد، والغريض وابن عائشة ومالك وفي يد كل منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصها، فغنت وغنى القوم على غنائها ثم دعت بثياب مصبغة، ودعت للقوم بمثل ذلك فلبسوا ثم ضربت بالعود وتمشت وتمشى القوم خلفها، وغنت وغنوا بغنائها بصوت واحد[3].

وقد سئلت أنى لك هذا الغناء فأجابت:

«كان أبو جعفر سائب خائر لنا جاراً وكنت أسمعه يغني ويضرب بالعود فلا أفهمه، فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائي وسمعتني مولاتي وأنا أغني سراً ففهمتني، ودخلن عليّ، وقلن:

---

(1) الأغاني ج 16 ص 14.

(2) مروج الذهب ج 8 ص 90.

(3) الأغاني ج 8 ص 218 وجميلة هي مولاة بني سليم وكان لها زوج من موالي بني الحارث بن الخزرج، وكانت تنزل فيهم فغلب عليها ولاء زوجها فقيل إنها مولاة الأنصار وهي أصل من أصول الغناء في المدينة.

قد علمنا في تكتمينا، فأقسمن عليّ، فرفعت صوتي وغنيتهن، فحينئذٍ ظهر أمري، وشاع ذكري، فقصدني الناس وجلست للتعليم، فكان الجواري يتناوشنني، فربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئاً، وقد كسبت لموالي ما لم يخطر لهن ببال[1].

واتخذت جميلة لنفسها في المدينة داراً كبيرة، تمتلىء دائماً بالمغنين والجواري وتقام فيها حفلات باذخة للغناء، وكان يشترك في هذه الحفلات بعض المغنين من مكة مثل ابن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز. ومن المدينة أيضاً مثل معبد ومالك بن أبي السمح الطائي وابن عائشة ونافع بن طنبورة وغيرهم كثير[2] وإلى جانب المغنين كانت دار جميلة تكتظ بالمغنيات مثل سلامة القس، وحبابة، وخليدة، وربيحة، وعقيلة، وقرعة، وبلبلة ولذة العيش.

وكثيراً ما كانت جميلة تجمع سكان المدينة وتقوم باستعراض كبير يضم مشاهير المغنين والمغنيات، لا في المدينة فقط، بل في مكة أيضاً.

وقد بلغ الغناء في دار جميلة كل ما كان ننتظره من رقي وازدهار، وعاشت حتى عصر يزيد بن عبد الملك[3].

والحقيقة أن الفن الغنائي بلغ مرتبة عالية من الرقي في العصر الأموي ما كان يحلم به العربي. وقد تأثر الناس بالغناء تأثراً يفوق الوصف.

يروي الأصفهاني أن عمر بن أبي ربيعة لما سمع صوت من جميلة تأثر كثيراً حتى أنه شق جيب قميصه إلى أسفله فصار قباءً، وهو لا يدري[4] ومن تلميذات جميلة مغنية مشهورة ذاع صيتها في المدينة اسمها:

حبابة:

باعها مولاها إلى يزيد بن عبد الملك، ولما سلمها إليه غنت صوتاً رائعاً فأخذ بلباب مولاها كل مأخذ، وكان بجواره شمعة تحرق نفسها وتحرق معها

(1) الأغاني ج 8 ص 188.

(2) المصدر نفسه.

(3) الأغاني ج 9 ص 67.

(4) الأغاني ج 8 ص 206.

قلبه، ومن شدة تولهه عرض لحيته للشمعة فاحترقت، وهو لا يدري[1].

سلامة القس:

مولدة من مولدات المدينة أخذت الغناء من جميلة ومعبد وابن عائشة. وسميت سلامة القس لأن أحد قراء أهل مكة وكان يسمى عبد الرحمن بن عمار الجشمي، ولقب بالقس لعبادته، سمعها فشغف بها وشهد فيها وفي أختها ريّا قال فيهم ابن قيس الرقيات:

لقد فتنت ريا وسلامة القسا ... فلم تتركا للقس عقلا ولا نفسا

فتاتان أما منهما فشبيهة الـ ... هلال وأخرى تشبه الشمسا[2]

كانت سلامة جميلة الصوت وجميلة الشكل، وطارت شهرتها فطلبها يزيد بن عبد الملك واشتراها من مولاها بعشرين ألف دينار ويروى أن أهل المدينة جاءوا يشيعونها حين أرادت الخروج، فملأوا رحبة القصر ووراء ذلك. واستمرت عند يزيد حتى توفى فرثته بشعر من تأليفها وناحت عليه[3] ثم طلب إليها الوليد بن يزيد أن تغنيه شعرها في أبيه فغنته، وهي تتنغص من ذلك وتدمع عيناها[4].

تحول الغناء في المدينة إلى فن له مصطلحاته:

كان أول محترف في فن الغناء الذي حاول السير في هذه الطريق: شيخ المغنين في المدينة «طويس»[5] الذي صنع الهزج والرمل وأبدع في هذا الغناء

---

(1) الأغاني ج 1 ص 316.

(2) الأغاني ج 8 ص 337.

(3) الأغاني ج 8 ص 346.

(4) الأغاني ج 8 ص 348.

(5) هو عيسى بن عبد الله كنيته أبو عبد المنعم ولقبه طويس، كان طويلاً أحول اشتهر في عصر عثمان كان لا يضرب بالعود وإنما ينقر بالدف. قال أبو الفرج إن أول غناء غناه:

قد براني الحب حتى ... كدت من وجدي أذوب

الأغاني ج 3 ص 28 هو أول من تغنى في المدينة غناء يدخل في الايقاع، الغناء المتقن. أول من صنع الهزج والرمل في الاسلام ولما طلب مروان بن عبد الملك المخنثين وقال: من جاءني بمخنث فله عشرة دنانير، فر طويس الى السويداء، فلم يزل بها حتى مات في ولاية الوليد بن عبد الملك. الأغاني ج 3 ص 29.

المتقن الجديد مخالفاً فيه الغناء العربي القديم. وفي ذلك كان يعتمد في أغلب الأمر على عروض الشعر وذوق المغني.

قال ابن الكلبي: إن غناء العرب قديماً كان على ثلاثة أوجه: النَّصب والسِّناد والهزج. فالنصب هو أغاني الركبان والقينات، والسناد هو أنغام ثقيلة، والهزج هو غناء خفيف[1].

ومما يجب ملاحظته أن المصطلحات الغنائية التي تمت له وأصبح بها فناً قائماً له رسومه قد تكونت تحت أيدي الموالي، فقد أخذوا عن العرب وهؤلاء أخذوا عنهم. يذكر الأصفهاني مغنياً فارسياً اسمه نشيط اشتراه عبد الله بن جعفر وكان يغني بالفارسية في المدينة[2]. ثم يزيد قائلاً: إن سائب خاثر أخذ عنه غناءه الفارسي كما أخذ هو عن سائب الغناء العربي وفي ترجمة عَزَّة: إن نشيطاً وسائب خاثر قدما المدينة، فغنيا أغاني بالفارسية وأخذت عزة عنهما أنغاماً، وألفت عليها ألحاناً[3].

وإذا رجعنا الى أخبار المغنين والمغنيات في كتاب الأغاني نجد الخلفاء الأمويين منذ الوليد بن عبد الملك كانوا يستقبلونهم استقبالاً يتفوق على استقبالهم للشعراء إذ كانوا يجيزونهم جوائز سنية. فيزيد بن عبد الملك وفد عليه معبد ومالك بن أبي السمح وابن عائشة، فأمر لكل منهم بألف دينار، والوليد بن يزيد كان أكثر كرماً وسماحاً فأعطى معبداً اثني عشر ألف دينار. واستقدم جميع مغني ومغنيات الحجاز وأجازهم جوائز كثيرة[4]. ويزيد اشترى

---

(1) مروج الذهب ج 8 ص 93.

(2) الأغاني ج 1 ص 38.

(3) الأغاني ج 16 ص 13.

(4) الاغاني ج 8 ص 218 وجميلة هي مولاة بني سليم وكان لها زوج من موالي بني الحارث بن الخزرج، وكانت تنزل فيهم فغلب عليها ولاء زوجها، فقيل إنها مولاة الأنصار. وهي أصل من أصول الغناء في المدينة وقد سئلت أنّى لك هذا الغناء، فأجابت:

«كان أبو جعفر سائب خاثر لنا جاراً وكنت أسمعه يغني ويضرب بالعود فلا أفهمه، فأخذت تلك النغمات فبنيت عليها غنائي وسمعتني مولاتي وأنا أغني سراً ففهمتني، ودخلن عليّ، وقلن: قد علمنا فما تكتمينا فاقسمن عليّ، فرفعت صوتي وغنيتهن، فحينئذٍ ظهر أمري، وشاع ذكري، فقصدني الناس وجلست للتعليم، فكان الجواري يتناوشنني، فربما انصرف أكثرهن ولم يأخذن شيئاً. ولقد كسبت لمواليّ ما لم يخطر لهن ببال» (الأغاني ج 8ص 187).

واتخذت لنفسها في المدينة داراً كبيرة، تمتلىء دائماً بالمغنين والجواري وتقام فيها حفلات باذخة للغناء،

سلامة بعشرين ألف دينار[1]. واشترى حبابة بأربعة آلاف دينار[2]. وهكذا كانت الدولة الأموية تحبذ الغناء وتعترف به وتجيز أصحابه.

وإن مرجع هذا التقدير كله يرجع إلى ما أحرزه المغنون والمغنيات في هذا العصر من تفوق باهر ومهارة بارعة في فن الغناء. لقد كانت نهضة عظيمة وتغيراً جذرياً في الحياة الجديدة حيث الترف والمال والجواري والتأنق في الملبس والمأكل والمسكن. وقد توج هذه الحركة تلميذ مبدع للمغني معبد يدعى «يونس الكاتب» فألف كتاباً دوّن فيه جميع المغنين والمغنيات في عصره مع ذكر أخبارهم وما غنوا من ألوان الغناء العربي والأجنبي. يقول أبو الفرج الأصفهاني: «كتابه في الأغاني ونسبتها إلى من غنى فيها هو الأصل الذي يعمل عليه ويرجع إليه»[3].

هذه الجماعات التي احترفت الغناء لم تلبث أن حولته إلى فن له مصطلحاته.

مكـة

ازدهرت التجارة في مكة ازدهاراً ملحوظاً في العهد القرشي، إذ أصبحت تحتكر التجارة في بلاد العرب، ومحطة كبيرة للقوافل الآتية من الجنوب، تجارة اليمن وما يأتيها من الهند والحبشة، والقوافل الآتية من الشرق المحملة بالتوابل والتي كانت تهبط على الخليج الفارسي. وكانت الحقبة الأخيرة من

وكان يشترك في هذه الحفلات بعض المغنين من مكة مثل ابن مسجح وابن سريج والغريض وابن محرز الأغاني ج 8ص 188. ومن المدينة أيضاً مثل معبد ومالك بن أبي السمح الطائي وابن عائشة ونافع بن طنبورة وغيرهم كثير (المصدر نفسه).

إلى جانب المغنين كانت دار جميلة تكتظ بالمغنيات مثل سلامة القس وحبابة، وخليدة، وربيحة، وعقيلة، وفرعة وبلبلة ولذة العيش. وكثيراً ما كانت جميلة تجمع سكان المدينة وتقوم باستعراض كبير يضم مشاهير المغنين والمغنيات، لا في المدينة فقط، بل في مكة أيضاً.

وقد بلغ الغناء في دار جميلة كل ما كان ينتظره من رقي وازدهار. وعاشت حتى عصر يزيد بن عبد الملك. (الأغاني ج 9 ص 67).

(1) الأغاني ج 1 ص 55 وما بعدها.

(2) الأغاني ج 8 ص 227.

(3) الأغاني ج 4 ص 398.

العصر الجاهلي حقبة ذهبية لتجارة مكة. فقد حققت أرباحاً باهظة وذلك بسبب الحروب التي كانت تحدث بين الفرس والروم. جاء في القرآن الكريم: **﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾**[1].

فرحلة الشتاء كانت إلى اليمن، وأما رحلة الصيف فكانت إلى الشام[2]. وهكذا كانت قوافل قريش تجوب بلاد العرب شمالاً وجنوباً وشرقاً تنقل تجارة المحيط الهندي والبحر الأحمر إلى سواحل البحر المتوسط. فمن افريقية كانت تنقل الرقيق والعاج والتبر والصمغ عن طريق اليمن، ومن اليمن كانت تنقل العطور والبخور والجلود والثياب العدنية الغالية. ومن العراق كانت تنقل توابل الهند، ومن الطائف كانت تنقل الذهب والزبيب. كل هذه البضائع كانت تنقلها إلى الشام ومصر، ثم تعود منها محملة بالغلال والزيوت والسلاح والأقمشة القطنية والكتانية والحريرية[3].

من هنا كانت أهمية مكة في العصر الجاهلي. وهذه الأهمية جعلت أبرهة والي الحبشة يغزوها عام 670 م ليستولي على ما فيها من ثروة. لكنه فشل في مهمته وولى عنها مهزوماً. وكان لهذه الغزوة فائدة كبرى عند العرب، إذ أنها جمعت قلوبهم حولها وجعلتهم يحسون بشيء من القومية والشعور بواجبهم المقدس اتجاه أمتهم. ويا ليتهم اليوم يحسون بما يمليه عليهم واجبهم الديني والقومي تجاه أمكنتهم المقدسة!

ومنذ ذلك الحين أصبحت مكة خالصة للعرب وكانت بكعبتها المقدسة رمزاً لاستقلالها وقوتهم، ومن هنا سميت أم القرى. والله سبحانه وتعالى جعلها آمنة لا تدخلها أمة ولا تدين لأمة. قال تعالى: **﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا﴾**[4].

قال الجاحظ: «لم تزل مكة أمناً ولقاحاً لا تؤدي إتاوة ولا تدين للملوك»[5]

---

(1) قريش الآية 1 و2.

(2) المسعودي ج 3 ص 121 والايلاف: المعاهدة مع الملوك.

(3) راجع دائرة المعارف الاسلامية (مكة).

(4) البقرة الآية 125.

(5) الحيوان ج 3 ص 141.

وقال الأديب الفرنسي المعروف (لامنس) عنها: «كانت جمهورية ويمكن مقارنتها بالبندقية»[1].

وفي هذا كله ما يدل على عظم شأن مكة في الجاهلية وما كان لها من دور تجاري هام وقد ساهم في هذه التجارة كل فرد من أفراد قريش حتى النساء كن يساهمن فيها. ومن الذين اشتهروا بالثراء فيها قبل الاسلام بيتان كبيران: بيت الأمويين، وبيت المخزوميين. وغيرهم أيضاً مثل عبد الله بن جدعان من قبيلة أبي بكر الصديق، كان يتجر في الرقيق.

يذكر اليعقوبي أن سادات قريش كانوا فوق آل جفنة وفوق كسرى[2] وسيد قريش كان سيد العرب.

وكما ورد معنا أن مكة كانت مدينة فيها مجلس شيوخ وفيها البطون الممتازة، بطون النبلاء التي تنزل في البطاح ووراءهم قريش الظواهر ومعهم الحلفاء والنازلة[3] والموالي والرقيق. ويروي الأصفهاني عن بعض المخزومين أنه كان له رقيق من الحبشة يحترفون جميع المهن، وكان عددهم كثيراً[4]. والتركيب الاجتماعي لمجتمع مكة من أحرار وعبيد أو أشراف ورقيق، كثير الشبه بمجتمع أثينا القديمة.

وقد بلغ أشراف مكة مبلغاً واسعاً من الترف والثراء فكانوا يصيّفون في الطائف ويشتّون في جدة، وأبو سفيان كان يملك ضيعة في سوريا ينزل فيها أثناء تجارته[5]. ويبدو استهزاء الله بهم في سورة الزخرف. قال تعالى:

﴿أو من ينشئوا في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾ الآية 18.

ويقال انه كان بينهم من يلبس الثوب بخمسين ديناراً أو نحو ذلك[6] وكما

---

(1) Lamens: La Mecque (Beyrouth 1, 24).

(2) اليعقوبي ج 1 ص 281 قارن بالحيوان الجاحظ ج 2 ص 246.

(3) الطبري ج 1 ص 1203 والحيوان ج 7 ص 214.

(4) الأغاني ج 1 ص 65.

(5) اليعقوبي ج 2 ص 13.

(6) مسند أحمد ابن حنبل ج 3 ص 403.

تأنقوا في ملابسهم تأنقوا أيضاً في مآدبهم فعرفوا أنواعاً من طعام الأمم الأجنبية مثل الفالوذج وغيره[1].

وكان العرب في الجاهلية يحجون إلى الكعبة لما كانت تحوي من أصنامهم وأوثانهم مثل اللات والعزى ومناة وهبل...» وذلك ليقربوهم إلى الله زلفى.

وكل هذا يدل على ارتفاع شأن مكة في الجاهلية فقد كانت تعد عاصمة الجزيرة العربية. زد على ذلك سوق عكاظ الذي اتخذت منه ملتقى الخطباء والشعراء والأدباء، فضلاً عن تراثهم ومكانتهم التجارية والدينية والأدبية في الجزيرة العربية.

مكة في العصر الاسلامي

ما زالت مكة محافظة على مركزها التجاري والديني حتى بعث الله آخر الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله ﷺ. وشرع ﷺ بتلبية دعوة ربه ونشر الدين الحنيف. وقد عرفت بمعاندتها له وتعذيب من أسلموا ودخلوا في دينهم الجديد. وعلى رأس هؤلاء كان أبو جهل[2]. ولما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من العذاب والجهد الشديد أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة. وكان ذلك في السنة الخامسة للبعثة فخرج أولاً اثنا عشر رجلاً ثم خرج سبعون[3]، فأكرم النجاشي وفادتهم.

ثم أخذت أخبار الرسول ﷺ ودعوته المباركة تنقل من مكة إلى القبائل المجاورة والبعيدة. ولأن مكة كانت مركزاً تجارياً يلتقي العرب في أسواقها فطبيعي أن تسمع القبائل بهذه الدعوة الجديدة.

وفي هذه الأثناء لقي الرسول ﷺ جماعة من أهل المدينة فدعاهم إلى الاسلام فأسلموا[4]. وكانت بيعة الخزرج وبعض الأوس (بيعة العقبة الأولى) ثم

---

(1) الأغاني ج 8 ص 329.

(2) السيرة لابن هشام ج 1 ص 311.

(3) اليعقوبي ج 2 ص 28.

(4) السيرة ج 2 ص 70.

تلاها بيعة العقبة الكبرى التي كانت إيذاناً بانتقال النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، ولم تمضِ بضعة أشهر حتى نزلوها جميعاً. وعندها دقت البشائر في المدينة واستقبله أهلها استقبالاً كريماً.

وقد أحفظ ذلك قريش مكة فجمّعت الأحزاب والقبائل ضده وخرجت في العام الخامس للهجرة يناصرها في ذلك بنوا النضير الذين أجلاهم الرسول عن المدينة[1]. ولما رأى الرسول أن لا قبل له بأعدائه حفر خندقاً حول المدينة، وبذلك سميت الغزة غزوة الخندق.

ثم دخلت خزاعة في عقد مع الرسول، في حين دخلت كنانة في عقد مع قريش فشجر خلاف بينهما، وأعانت قريش كنانة وقتلوا في خزاعة، حينئذٍ استنجدت خزاعة بالرسول وبما بينها وبينه من عقد، فصمم ﷺ على غزو مكة، وجمع لها كثيراً من القبائل التي دخلت الاسلام. ولما رأت مكة أن لا طاقة لها به أرسلت أبا سفيان وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء ليأخذوا لها الأمان، وقد تم ذلك وفتح له علي نبية الكريم وكفاه القتال. ودخل الجيش الاسلامي مكة ودخل رسول الله ﷺ الكعبة وأزيلت الأصنام ومحيت الصور وخطب ﷺ في القوم فقال: «ألا كل دم ومال ومأثرة[2] في الجاهلية فإنه موضوع تحت قدميَّ هاتين إلاّ سدانة الكعبة وسقاية الحاج فإنهما مردودان إلى أهليهما، ألا وإن مكة محرمة بحرمة الله لم تحلّ لأحد من قبلي ولا تحل لأحد من بعدي... فهي محرمة إلى يوم القيامة لا يُختلى خلاها ولا يعضد شجرها[3]، ولا ينفر صيدها ولا تحل لُقْطتها إلا لمنشد» واستسلمت كنانة وقريش وانتهى الصراع بين الرسول ومكة.

نتج عن ذلك أن زعزع مركز مكة التجاري لأن الطريق إلى الشام كان قد قطعه الرسول والمسلمون من حوله فتدهورت التجارة بمكة وأخذت الأموال التي كانت تصرف في سبيل التجارة للبيع والشراء تستخدم في حرب الرسول والمهاجرين وأهل المدينة. فخسرت مكة بعض رؤوس الأموال وخسر بعض

---

(1) السيرة ج 3 ص 199.

(2) اليعقوبي ج 2 ص 58.

(3) يختلى: يقطع والخلا: الكلأ، ويعضد: يقطع.

المهاجرين الذين كانوا من كبار التجار أمثال عثمان بن عفان وصهره عبد الرحمن بن عوف حيث غيروا وجهة سيرهم فأخذوا يرسلون بالبعير إلى الشام، وبذلك نافست المدينة مكة في الحقل التجاري.،وما يجدر ملاحظته أنه لما فتحت مكة انتقل كثير من الأسر المهمة إلى المدينة وقد ازداد هذا الميل إلى الهجرة أثناء حكم الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول وقليل جداً هم الذين عادوا بعد هجرتهم[1] وانتقلت بطون بأكملها[2]. وتحول سلطان مكة القديم إلى المدينة، ولم يعد لسوق عكاظ وذي المجاز أخبار تذكر.

وهذا كله يوضح لنا كيف أن مكة أخذت تضعف بعد الفتح، ولم تعد كما كانت البلدة الأولى في الحجاز، بل سبقتها المدينة ونافستها وأصبحت تابعة لها ولى عليها رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد بقي عليها حتى عهد عمر بن الخطاب حيث ولى عليها ولاة مختلفين أهمها نافع بن عبد الحارث الخزاعي، أما عثمان فقد ولى عليها خالد بن العاص، ولما خلفه علي ولى عليها قُثم بن العباس بن عبد المطلب[3].

مكة في العصر الأموي

في أوائل العصر الأموي لم تكن مكة مغاضبة لمعاوية عندما نهض يطالب بدم عثمان والأخذ بالثأر. غير أن الظروف تغيرت وتبدلت حيث أخذ أهل مكة والحجاز جميعاً ينقمون على الأمويين لنقلهم عاصمة للدول الاسلامية إلى دمشق في الشام. لكن الأمور تفاقم خطرها وعظم شرها عندما تولى يزيد الحكم. فالمدينة بكل من فيها ثارت عليه بعد مقتل الامام الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) في وقعة كربلاء المعروفة، وخرج عبد الله بن الزبير إلى مكة وأعلن هناك العصيان فطرد والي يزيد ومكث ينظر تطور الأمور.

أرسل يزيد جيشاً كبيراً بقيادة مسلّم بن عقبة لينتقم من الثائرين في مكة والمدينة. هاجم مسلم المدينة في وقعة الحرة، ولما انتهى منها خرج قاصداً مكة وابن الزبير، لكن القائد وافته المنية في الطريق فاستخلف مكانه الحصين بن نمير

(1) طبقات ابن سعد ج 5 ص 328.

(2) المصدر نفسه ج 5 ص 336.

(3) راجع السيرة لابن هشام ج 4 ص 143 وطبقات ابن سعد ج 5 ص 339.

الذي قدم مكة بجيشه فحاصرها ورماها بالنيران حتى احترقت الكعبة الشريفة[1].

وفي هذه الأثناء توفي يزيد فرفع الحصار عن مكة، عندها أراد الحصين أن يقدم نصيحة لابن الزبير فقال له:

«هل لك أن أحملك إلى الشام، فليس بالشام أحد فأبايع لك، فليس يختلف عليك اثنان؟ فرد ابن الزبير بصوت جهوري: لا والله الذي لا إله إلا هو أو نقتلَ بأهل الحرة أمثالهم من أهل الشام، فقال له الحصين: من زعم أنك داهية فهو أحمق، أقول لك ما لك سراً وتقول لي ما عليك علانية[2]، ثم انصرف إلى الشام.

ولم يلبث ابن الزبير أن أعلن نفسه خليفة المسلمين وتبعه كثير من البلدان مثل الحجاز، ومصر، والعراق، وخراسان، وبعض بلدان الشام، ولم تبق ناحية خارجة عليه سوى الأردن. وكان عليها يومذاك بَحْدل الكلبي[3].

أما الخطأ الكبير الذي ارتكبه ابن الكلبي فهو طرده لبني أمية من المدينة إلى الشام، فساروا جميعاً إليها وعلى رأسهم مروان بن الحكم[4].

وفي الشام أعلن مروان نفسه خليفة في مؤتمر عقد في الجابية[5].

سار مروان مع أصحابه إلى دمشق فالتقوا بالضحاك بن قيس في مرج راهط فدارت الدائرة عليه. وبذلك خلصت الشام لمروان، ولم يقف عندها بل ولى وجهه نحو مصر فدخلها وصالح أهلها وأعطوه الطاعة[6] في هذه الأثناء اضطرب حبل الأمور في العراق، ولما أحس مروان بدنو أجله ولى ابنه عبد الملك المعروف بدهائه.

من أهم دهائه بدعة الحج إلى مسجد بيت المقدس. رأى عبد الملك أن ابن الزبير يتصل بأهل الشام فخاف أن يفسدهم عليه لذلك منعهم من الحج، فقالوا

---

(1) الطبري ج 2 ص 426.

(2) اليعقوبي ج 2 ص 301.

(3) اليعقوبي ج 2 ص 304.

(4) الطبري ج 2 ص 467.

(5) اليعقوبي ج 2 ص 304.

(6) اليعقوبي ج 2 ص 305 و306.

له: أتمنعنا من حج بيت الله الحرام، وهو فريضة واجبة فرضها الله على المسلمين؟ فماذا أجابهم؟ قال لهم:

أما سمعتم ابن شهاب الزهري الذي يروي عن رسول الله ﷺ قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي ومسجد بيت المقدس». وبذلك صرفهم مؤقتاً عن المسجد الحرام إلى مسجد بيت المقدس. ثم استغل الصخرة فيه التي يروى أن رسول الله ﷺ وضع قدمه عليها حين صعوده إلى السماء، فأقامها لهم مقام الكعبة، فبنى قدمه عليها حين صعوده إلى السماء، فأقامها لهم مقام الكعبة، فبنى عليها قبة، وعلق فوقها الستور الديباجية، وأقام لها سدنة، وأمر الناس أن يطوفوا حولها كما يطوفون حول الكعبة[1].

ولا ريب أن هذه الحوادث التي ألمت بمكة من عام 63 هـ إلى عام 73 هـ جعلتها تقف في صفوف المعارضة من بني أمية، هذه المعارضة التي كان موطنها العراق حيث الشيعة والخوارج. لكن هذه المعارضة أخذت تضعف مع مرور الزمن، لكنها استمرت كالنار تحت الرماد مطوية النفوس على الاحن. غرقت مكة في حوادث ابن الزبير وتعاقب عليها ولاة مختلفون أشهرهم نافع بن علقمة الكناني الذي شدد في الغناء والمغنين والنبيذ[2] ونوجز القول أن مكة انصرفت عن بني أمية وحدثت هوة كبيرة بينها وبين العاصمة الأموية الجديدة دمشق فسالت بينها وبينهم الدماء منذ قام فيها ابن الزبير.

الغناء في مكة

أولع العرب بالغناء منذ العصر الجاهلي وبين أيدينا نصوص كثيرة تدل على ذيوع الغناء وانتشاره في كل مكان في الجزيرة العربية. قال المسعودي: «لم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب»[3] والشعر الجاهلي والغناء كانا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً في حياة العرب، في سلمهم وحربهم، ومن يقرأ الشعر الجاهلي، وخاصة المعلقات، يجد فيه ذكر الشراب والغناء، والأعشى سمي

(1) اليعقوبي ج 2 ص 311.

(2) الأغاني ج 11 ص 20.

(3) المسعودي ج 8 ص 93.

صناجة العرب لأنه كان يغني بشعره[1] من ذلك قال حسان بن ثابت:

تغنَّ بالشعر اما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار[2]

وهذا يدل أن العرب كانت تزن الشعر بالغناء.

ومما يروى أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس[3]. فالشاعر كان يستقبل بالغناء والأزاهيج.

ومكة لم تكن بعيدة عن هذا الجو العام، بل لعلها كانت مبرزة في هذا الجانب وذلك لما كان فيها من المال الوافر والثراء الغادق، ولا يفوتنا أن بجانبها سوق عكاظ الذي تلقى فيه القصائد المطولات، ولا غرابة فلعلها كانت تغنى أيضاً، «إذ كانت أسواق العرب مجتمع الشعراء والمغنين والمغنيات[4] حتى أن صلاتهم كانوا يؤدونها في مكة صفيراً وتصفيقاً. جاء في القرآن الكريم: ﴿**وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية...**﴾ (الانفال 35).

وفي ذلك العصر كان النساء يتمتعن بما يتمتع به الرجال من الحرية والمشاركة «فكن يشتركن في الغناء على شكل جوقات وخاصة في الأعراس إذ كن يعزفن على الدفوف والمزامير»[5].

ويروي الطبري نفسه أن هنداً بنت عتبة وبعض نساء قريش كن يضربن على الدفوف في غزوة أحد، فهند تنشد الشعر، وهن يرددن عليها. ولا ننسى القيان في مكة اللواتي كن كثيراً في العصر الجاهلي، يغنين، ويشربن، ويرقصن. وقد مر وصفهن في القرآن الكريم: ﴿**ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم**﴾ لقمان-الآية 6. يروي الزمخشري في الكشاف ان النضر بن الحارث كان يشتري المغنيات فلا يظفر بأحد يريد الاسلام إلا انطلق به إلى قينته،

---

(1) الأغاني ج 9 ص 109.

(2) الموشح للمرزباني ص 29.

(3) العمدة لابن رشيق ج 1 ص 37.

(4) الطبري ج 1 ص 1307 ودائرة المعارف الاسلامية ج 1 ص 403.

(5) الطبري ج 1 ص 1126.

فيقول: «أطعميه واسقيه وغنيه، ويقول: هذا خير مما يدعوك اليه محمد»[1]. هؤلاء القينات كن إما فارسيات وإما يونانيات وإما روميات[2].

نخلص من هذا كله أن موجة من الغناء اكتسحت مكة في العصر الجاهلي حتى بلغ من بعض القوم هناك أن يرتحل إلى مكة والمدينة ليتعلم الغناء ثم يعود فيعلمه قومه، لكن الغناء في ذلك العصر الجاهلي لم ترسم له قواعد، إنما كان المغنون والمغنيات والقيان، كل يغني حسب ميوله ومزاجه وذوقه، لأن العرب كانوا لا يزالون أقرب إلى الفطرة في جميع فنونهم.

أما في عصر صدر الاسلام: فقد خفت حركة الغناء لكنها لم تحطم أدواته ذلك أن القرآن لم يحرم الغناء بآية صريحة جاء في سورة فاطر الآية الأولى: **﴿يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾** قال المفسرون أن الله تعالى يشير في هذه الآية المباركة إلى الصوت الحسن.

كما ورد في الأحاديث النبوية عن لسان الغزالي في إحياء علوم الدين إن النبي أباح الغناء ولم يدع إلى تحريمه في نص صريح.

ومما يرجع أن الغناء ظل واستمر في مكة في عصر الخلفاء الراشدين وخاصة بعد أن أقبلت الفتوح الاسلامية بأسلابها ومغانمها على الحجاز في عهد أبي بكر وعمر، ولا نصل إلى عصر عثمان حتى نرى في حياة العرب قد بدأت بالتحول إلى الترف وما يتبعه من ألوان الملاهي المختلفة.

وبعد فتح البلدان وتمصير لأمصار عاد العرب إلى ديارهم وحجورهم مملوءة بالمال فبنوا القصور على مثال ما رأوا في بلاد فارس وبلاد بيزنطية وأخذوا يستبدلون بحياتهم القديمة حياة جديدة فيها تأثر واضح بألوان الحضارة الأجنبية، ومن ذلك فن الغناء، وكان كثير منهم يجلب معه بعض المغنين والمغنيات، ومن طريف ما روي أن عبد الله بن عامر والي البصرة لعثمان بن عفان اشترى جوقة من الاماء الصناجات[3].

---

(1) راجع تفسير الكشاف في سورة لقمان.

(2) الأغاني ج 16 ص 15.

(3) الأغاني ج 8 ص 321.

وفي العصر الأموي: أقبل الناس على الغناء إقبالاً شديداً حتى أصبحت أيام الناس ولياليهم كلها غناء في كل مكان، ويرى المسعودي «أن الغناء لم ينمُ في مكة والمدينة إلا منذ عصر يزيد بن معاوية»[1].

والحقيقة أن الغناء أخذ ينمو بمكة والمدينة تحت تأثير العناصر الأجنبية التي جلبها الفاتحون. ولا نصل إلى أول العصر الأموي حتى نجد مغنين مشهورين يتقنون فن الغناء على قواعد عربية حديثة.

من هؤلاء مسجح وابن محرز وابن سريج والغريض وغيرهم... لكن هؤلاء جميعاً لم يبلغوا ما توصل اليه المغنون في المدينة أمثال عزة الميلاء وجميلة التي خرجت الكثيرت من المغنيات المشهورات وينبغي أن نلاحظ أن أكثر المغنيات اللائي اشتهرن في دار جميلة كن يزرن مكة. ولا نستطيع في هذا العصر أن نفصل بين المغنين والمغنيات في مكة والمدينة، فدائماً هناك اتصال بينهم يتبادلون فن الغناء وما توصل إليه من أمور مستجدة.

ولم يكن هذا شأن المغنين وحدهم، فقد كان أيضاً شأن المغنيات بل كان شأن الناس جميعاً. وكنا نرى كل شاعر مكي معروف يزور المدينة، وكل شاعر مشهور في المدينة يزور مكة. حتى نيخيل إلى الباحثين وكأنما إحدى البلدتين كانت ضاحية للأخرى.

وهذا الاتصال الدائم كان سبباً في اختلاط النصوص فلم يكد الباحثون يميزون في شاعر مشهور مثل عمر بن أبي ربيعة هل كانت بلدته التي عاش فيها أهي مكة أو المدينة؟

ومن يرجع إلى كتاب الأغاني يعرف جيداً مدى ما كانت عليه نهضة الغناء واتساعها في مكة والمدينة في العصر الأموي، ويجد أخبار المغنين والمغنيات، ودورهم ونواديهم ومواكبهم. من الدور والنوادي الشهيرة في مكة دار كانت ببعض أطرافها، وكان يأتيها ابن سريج والغريض في كل جمعة ويجتمع فيها ناس كثير من مكة، ويوضع لكل منهما كرسي يجلس عليه، ثم يغني كل منهما صوتاً أو دوراً[2]. وكذلك كانت دور بعض الأشراف والشريفات تعدُّ وكأنها نواد، كدار ابن أبي

---

(1) المسعودي ج 5 ص 157.

(2) الأغاني ج 1 ص 276.

ربيعة التي كان يقصدها المغنون والمغنيات وعلى رأسهم ابن سريج، ودار الثريا بنت علي بن عبد الله بن الحارث الأموية وقد تخرج منها الغريض ويحيى وسمية[1]. وكان المغنون يقصدون إلى بعض دور الأشراف فيغنونهم، كما كانوا يظهرون في الأعراس وفي حفلات الختان[2].

اندفع الناس في مكة يعجبون بهذا الغناء الذي تعودوا عليه وأحبوه حتى الفقهاء منهم مثل عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس الصحابي المعروف ويروي الرواة انه ختن ابنه واستدعى في ختانه الغريض وابن سريج[3].

وكما كان فقهاء مكة يعجبون بالغناء كان يعجب به كذلك قضاتها وعلى رأسهم الأوقص المخزومي. ومما يبدو أنه التحق بدور المغنين منذ أول حياته.

وفي هذا ما يدل على أنه لم يبق أحد في مكة إلا وكان يعجب بالغناء، وأخذ هذا الإعجاب يتزايد على مر الزمن. وكانت جمهرة المغنين في أول الأمر من المخنثين، وهي فئة كانت تخضب أيديها وتلبس ملابس النساء[4] غير أنا لا نمضي بعيداً في العصر الأموي حتى نجد هذه الطبقة تضعف تدريجياً، وحتى نجد الغناء يصبح عملاً مألوفاً وممتازاً يشترك فيه إلى جانب الموالي الكثير من العرب.

نخلص من هذا كله أن الغناء قد شاع في مكة أثناء العصر الأموي وخيم منه جو كله فرح ودعابة وفرح وغناء، ساعد في إحيائه وإنمائه المال الوفير والقيان الحسان والجواري الأجنبيات.

إغراء وثراء

ما تميزت به مكة في العصر الجاهلي ثراء كبير فقد كان فيها بيوت ثرية جداً أهمها بيت بني أمية وبيت بني مخزوم. روى اليعقوبي أن الأرباح في قافلة بدر بلغت خمسة وعشرين ألف دينار تنازل عنها أصحابها لحرب النبي ﷺ[5] وهذا ما يدل دلالة واضحة أن أصحاب هذه الأموال من كبار الأثرياء، أشهرهم

---

(1) الأغاني ج 2 ص 359.

(2) الأغاني ج 1 ص 278.

(3) الأغاني ج 1 ص 278.

(4) الأغاني ج 1 ص 249 وص 252 و256.

(5) اليعقوبي ج 2 ص 47.

أسرة سعيد بن العاص كان لها في قافلة بدر ثلاثون ألف دينار ولبقية الأمويين عشرة ألاف، ومن بني مخزون الوليد بن المغيرة وعبد الله والد عمر بن أبي ربيعة. وقد دفعوا للرسول ﷺ عشرة آلاف درهم وافتدوا رفات قتيل لهم[1]. وأخبار كثيرة غير هذه تفيد أنه كانت هناك ثروات ضخمة في الجاهلية لكنها أخذت تتأثر بمهاجرة كثير من أهلها إلى المدينة، وبالحروب التي حدثت بين النبي ﷺ وبين مكة. غير أن مكة فتح لها طريق آخر غير طريق القوافل وهو طريق الحروب التي انتهت بالعرب إلى كنوز بلاد فارس ومصر والشام، حيث كان القرشيون مميزين في هذه الفتوح، وكثير منهم من كان يترأس الجيوش والحملات فجمعوا أكثر كنوز الأرض في حجورهم وعاشوا أعلى درجات البذخ والترف. قال ابن خلدون:

«إن بحار الرفة زخرت لديهم حتى كان يقسم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب»[2]. وفي موقعة القادسية بلغ سهم الفارس أربعة عشر ألفاً وسهم الراجل سبعة آلاف ومائة وخراج سواد الكوفة وحدها بلغ في عهد عمر بن الخطاب عشرين ومائة ألف ألف وفي سنة 15 من الهجرة رأى عمر أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت، وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفيسة والثياب الفاخرة قد تتابعت، لذلك دوّن الدواوين وفرض العطاء وجعل لكل واحد من المسلمين نوعاً مقرراً تراوح بين ألف وخمسة آلاف في العام. وقد أثرى الكثير من أهل مكة ثراءً واسعاً، من أهم أثريائها في العصر الاسلامي الأول عبد الله بن عامر والي عثمان على البصرة. ولهم في جودهم قصص غريبة، فمنهم من كان يهب البستان قيمته ستمائة ألف درهم، ومنهم من كان يهب الجارية ابتاعها بمائة ألف درهم.

ولما صار الحكم إلى معاوية اهتم ببلدته اهتماماً كبيراً فأجرى فيها العيون، واتخذ فيها البساتين، واستمر الأمويون يعنون بها، فكانوا يستنبتون بها الأشجار ويحفرون الخزانات والآبار[3]. روى اليعقوبي قال:

وأراد سليمان بن عبد الملك الحج فكتب إلى عامله خالد القسري والي

---

(1) السيرة لابن هشام ج 3 ص 265.

(2) المقدمة ص 177.

(3) راجع مكة في دائرة المعارف الاسلامية.

مكة يأمره أن يجري له عيناً من الماء العذب، فعمل خالد بركة في أصل «نبير» بحجارة منقوشة، واستنبط ماءها من ذلك الموضع، ثم شق من هذه البركة عيناً تجري إلى المسجد الحرام في قصب من رصاص، حتى أظهرها فوارة تسكب في فسقية رخام بين الركن وزمزم[1].

ومن مظاهر الحضارة الأموية اتخاذ الدور والقصور وبناؤها بالجص والآجر واتخاذ أبوابها من الساج. وقد استقدموا لبنائها أجانب من الروم والفرس. بنى معاوية لنفسه دوراً بمكة يقال لها الرقط لاختلاف ألوانها، بناها له فرس من العراق بالجص والآجر[2].

واتسع بناء القصور في مكة أثناء حكم ابن الزبير حتى أنهم بالغوا كثيراً ببناء هذه الدور والقصور حتى أصبحت تنافس دور دمشق وقصورها. روى الأصفهاني أن معاوية حج ذات مرة فوقف أمام دار عبد الله بن الحارث يتعجب من حسن بنائها، فخرج إليه عبد الله يقول: لا أشبع الله بطنك! أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار[3].

وما يجدر ذكره أن هذه التغييرات الحضارية الجديدة لم تكن في بناء الدور والقصور فحسب بل تطورت إلى الحياة الاجتماعية حيث أخذت معيشة القوم تتغير في مآدبها وأعراسهم وطرق حياتهم التي نقلت إليهم عن طريق الرقيق والجواري الروميات والفارسيات مع الفاتحين. وكان القواد أنفسهم يرسلون بهم إلى الخلفاء والحكام، فقد أرسل معاوية إلى عمر بأربعة آلاف من سبي قيسارية؛ ثم استمرت هذه السيول من الرقيق تتدفق فيما بعد، والذي ساعد عليها ثراء الناس وسعة عيشهم. ولا ريب أن هذا الرقيق الرومي والفارسي غيّر كثيراً من معيشة القوم بما حملوه معهم من عادات وتقاليد بلادهم.

والحقيقة أن أهل مكة وأهل المدينة والعرب جميعاً في دمشق وبغداد ومصر اقتحمتهم الحضارات الأجنبية اقتحاماً وغزتهم في عقر دورهم. وقد أقبلوا على ذلك حذرين على نحو ما أقبل عمر بن الخطاب في الأخذ بنظام الدواوين الفارسية

---

(1) اليعقوبي ج 2 ص 351.

(2) الأغاني ج 3 ص 281.

(3) الأغاني ج 1 ص 211 وعبد الله هو جد الثريا صاحبة عمر بن أبي ربيعة.

فاقتصر على ديوان العطاء[1]، وما وصل الأمر إلى معاوية حتى أخذ بتنظيم الدواوين الفارسية كلها[2].

وهذا ما حدث في جميع مرافق الحياة فقد كان الصحابة إلى عصر عمر لا يتعمقون في الأخذ من الحضارات الأجنبية ولا يأخذون منها إلا بالظاهر، حتى كان عصر عثمان بن عفان فأخذوا منها أكثر، وكلما تقدموا في الزمن تقدم بهم التأثر بهذه الحضارات[3]، والذي ساعد أهل مكة على البعد في هذا التأثر الأموال الطائلة التي ورثوها عن آبائهم في الجاهلية والثروات التي اكتسبوها في الفتوحات الاسلامية.

ونقطة هامة أخرى يحسن ذكرها وهي أن الأمويين كانوا يغدقون الكثير من أموالهم على شباب مكة والمدينة ليلهوهم عن طلب الملك والخلافة والتلهي بالترف المادي والنعيم الدنيوي[4]، وهذا ما سبب البذخ الذي عرفته مكة عقب الفتوح. فمعاوية كسا الكعبة بالديباج واشترى لها العبيد[5]، والوليد أرسل إلى عبد الله القسري والي مكة بثلاثين ألف دينار ليجعلها على باب الكعبة وعلى الأساطين في داخلها، فكان من ذهب البيت في الاسلام[6].

هذا البذخ والثراء اعتبروه لوناً من ألوان الحضارة الوافدة في ذلك العصر، وقد غزا مكة وأخذ منه أهلها بحظوظ مختلفة.

ترف مادي ونعيم دنيوي

هذا الثراء في العصر الأموي سرعان ما تحول إلى ضروب من الترف المادي والنعيم الدنيوي، وكل أسباب الترف موجودة فالمال يفيض من جيوبهم والجواري الروميات والفارسيات تملأ قصورهم. ولا ريب أن هؤلاء الجواري والعبيد يحملون عادات وتقاليد بلادهم ويفهمون الحياة بصورة تختلف عن الصورة العربية. وبذلك

---

(1) الوزراء والكتاب للجهشياري ص 17.

(2) المصدر نفسه ص 24.

(3) المسعودي ج 4 ص 253.

(4) العقد الفريد ج 1 ص 145.

(5) اليعقوبي ج 2 ص 283.

(6) اليعقوبي ج 1 ص 340.

دخلت هذه الصورة دور مكة وقصورها وشبابها وشيبها، لأن كل جديد يستحسن وكل غريب يستهجن.

وبون شاسع بين حياة العرب المكيين في العصر الجاهلي وبين حياتهم في هذا العصر. فقد بدلوا حياتهم الخشنة وغزواتهم المستمرة إلى حياة جديدة مستقرة عرفوا فيها كل ضروب النعيم والترف في المطعم والملبس وكل فنون الزينة المختلفة، إذ أتيح لهم أن يأخذوا بنصيب وافر في كل جانب من جوانب الحياة الجديدة «فطعموا الألوان المختلفة المترفة من الطعام[1]، وأكلوا وشربوا في أواني الفضة والذهب[2]، ولبسوا السندس والديباج والاستبرق ومقطعات الخز والحلل الموشاة، حتى إبلهم كانوا يضعون فوقها القطوع والديباج[3]، كما كانوا يضعون في أعناق خيولهم أطواقاً من الذهب. والشاعر العَرجي كان يلبس الحلتين بخمسماية دينار أو نحو ذلك[4].

وكما نال الرجال قسطاً وافراً من هذا كله فغرقوا في زخارف الحياة المادية فكذلك النساء هن الأخريات غرقن أيضاً في فنون الزينة المختلفة، سواء في ملابسهن أو في حليهن وقد تفنَّن في اتخاذ الثياب الشفافة الرقيقة[5] والحلى والجواهر.

وقد لمعت أسماء كثيرة من الفتيات والسيدات مثل السيدة عائشة بنت طلحة، على سبيل الذكر، فقد كانت تقيم في المدينة سنة وفي مكة سنة، وتصيف بالطائف ولها ماشطتها الخاصة التي تعنى بطيبها وعطرها[6] على نحو ما نسمع ونرى نحن اليوم عند كبار الفنانين ومعظم الفنانات من النساء، كل واحدة منهن ولها ماشطها الخاص بها، كما لها خياطها الذي يخترع لها كل يوم(موضة) جديدة و(موديل) جديد. وعلى مثال عائشة كانت الثريا بنت علي بن عبد الله بن

(1) المستطرف للابشيهي ج 1 ص 162.
(2) العقد الفريد ج 1 ص 111 والطبقات لابن سعد ج 4 ص 126.
(3) الأغاني ج 5 ص 66 وج 1 ص 221 وص 278.
(4) المصدر نفسه ج 1 ص 395.
(5) المصدر نفسه ج 1 ص 404 والطبقات ج 8 ص 343.
(6) المصدر نفسه ج 10 ص 61 وج 10 ص 60.

الحارث بن أمية كان والدها من كبار أثرياء مكة، وتملك قصراً رائعاً وكانت مثل عائشة تصيف بالطائف[1]. ومما ذكره الأصفهاني عن دارها بمكة:

كانت تكتظ بالرقيق والجواري، فقد تخرّج منها اثنان من أشهر المغنين هما الغريض ويحيى، كما تخرّجت منها أيضاً سمية المغنية[2].

هؤلاء المغنين والمغنيات كانوا يسرفون في ذلك، فالمال وافر والعطر يحف بهم من كل جانب، والطيب حولهم، وكذلك حوانيت الثياب العدنية واليمنية والهروية. وكما هو معروف أن المرأة من عادتها إن حصلت على المال أنفقته على ملابسها وهيئتها وتبرجها وزينتها. وقد تعدت هذه العدوى النساء إلى الرجال فكنا نرى جمهرة من شباب تلك البيئة فارغين من أي عمل ليس عندهم ما يشغلهم ذلك أن بني أمية انصرفوا عنهم بعد ثورتهم مع ابن الزبير، فلم يتخذوهم على الولايات، ومع ذلك لم يمنعوهم من العطاء، بل كانوا يزيدون فيه من وقت لآخر. زد على ذلك ما ورثوه عن آبائهم في الجاهلية من أموال ضخمة. كل ذلك كان سبباً في تكوين طبقة من الشباب المترف العاطل هذا الشباب لأنه لم يوجه لدراسات فكرية فقد اتجه إلى اللهو وبعض الملاهي ليملأ فراغه في المتعات المختلفة من حوله، ومن أهمها في ذلك العصر: متعة الغناء، ولعب الشطرنج والنرد وما إلى ذلك من الملاهي.

روى الأصفهاني قال: «اتخذ عبد الحكم الجمحي بيتاً فيه شطرنجات ونردات وقرقات ودفاتر فيها من كل علم، وجعل في الجدار أوتاداً، فمن جاء علق ثيابه على وتد منها، ثم جرّد دفتراً فقرأه أو بعض ما يلعب به، فلعب به مع غيرهم»[3]. وعلى هذا النحو انتشرت بعض الملاهي في مكة وخيم حولها المرح والفرح والضحك والتندر. ولعل أهم ما يلاحظ في هذا العصر أننا نجد في مكة مكاناً خاصاً سموه «المضحك» كانوا يتخذونه للتندر والدعابة. فالوقت فراغ والمال كثير ويوجد أناس احترفوا الضحك والتندر من هؤلاء نذكر الشاعر الخفيف الظل والروح يدعى

---

(1) المصدر نفسه ج 1 ص 211.

(2) الأغاني ج 2 ص 359 وكانت الثريا جميلة جداً وكان فيها دَلّ وإعجاب بنفسها على عادة السيدات المترفات في عصرها.

(3) الأغاني ج 4 ص 253.

«الدارمي»[1]. من بعض نوادره أنه كان عند بعض الولاة يحدثه، فاغفى الوالي، فعطس الدارمي عطسة هائلة، ففزع الوالي فزعاً شديداً، ثم استوى جالساً وقال له: أتفزعني؟ قال: كلا! ولكن هكذا عطاسي فقال ائتني ببينة على ذلك، فخرج فأتاه برجل، فسأله الوالي: بم تشهد لهذا؟ قال: أشهد أني رأيته مرة عطس عطسة فسقط ضرسه، فأغرف الوالي في الضحك[2]. وكما كان يضحك الرجال كان يضحك النساء أيضاً وله معهن جولات طويلات، وكن لا يطيب لهن متنزه إلا به[3].

وكان الدارمي في مكة يشبه أشعب مضحك المدينة، لكن كان فيه بخل وحرص. روى الأصفهاني عن مداعباته مع النساء قال:

«طلبت منه جارية طيباً، فوعدها باحضاره، ثم ثاب إلى رشده، وتصادف أن التقيا، فعاتبته إلى أن قالت له: يا دارمي أتحبني، فقال: نعم، أفتحبينني؟ قالت: نعم. قال: فيا لك الخير! فأنت تحبينني وأنا أحبك فما مدخل الدراهم بيننا؟»[4].

وكان يتمتع ببديهة حاضرة، قال له محمد بن ابراهيم الامام: لو صلحت عليك ثيابي لكسوتك، قال: فديتك! إن لم تصلح عليَّ ثيابك صلحت علي دنانيرك[5].

هذا المجتمع الذي تخيم على ربوعه ظلال المرح وتفرح جلساته بالضحك والمرح والفكاهة، كان يأخذ بنصيب وافر من الحرية. ولا ريب أن من طبيعة المجتمعات المتحضرة أن يكون فيها لقاء الرجال بالنساء أمراً عادياً، فالمرأة في مكة كانت خليلة الرجل في ذلك العصر تلتقي معه في أي وقت وتحدثه وتمازحه وتعقد معه جلسات شعرية لطيفة. كل ذلك كان يتم عن طريق صداقة شريفة ينبغي أن لا نسيء فهمها. وهذا ما نلاحظه في مكة أثناء ذلك العصر. يروي أبو الفرج أن عائشة بنت طلحة كانت تسفر ولا تستر وجهها من أحد[6].

---

(1) ترجم له أبو الفرج ترجمة طريفة ذكر فيها مجموعة من نوادره.

(2) الأغاني ج 3 ص 47.

(3) الأغاني ج 3 ص 48.

(4) الأغاني ج 3 ص 47.

(5) الأغاني ج 3 ص 48.

(6) الأغاني ج 10 ص 54.

في وسط هذا الجو من الحرية لا نستغرب لقاء عمر بن أبي ربيعة بالثريا وبغيرها من شريفات مكة[1]. وأمثال عمر هم كثر من الشباب الذين يملكون المال الوافر والوقت الفراغ. وما يبيحه المجتمع يصبح مألوفاً وعادياً، والمجتمع المكي في ذلك العصر أباح اللقاء الشريف بين الرجال والنساء، وأعطى الجميع الحرية الشخصية بحدودها.

إن كل عصر يقاس بظروفه وحاجاته التي قد تختلف من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل، فلا نستطيع أن نقيس الماضي بكل ما فيه على الحاضر، وما يجري في المدن على ما هو موجود في الريف، وننظر إلى بعض جوانب الحياة نظرة ضيقة محدودة؛ فالحياة تتغير وتتطور وتعرى وتكتسي كالأشجار، تمر في فصول مختلفة، يأتي الربيع فتلبس ثوبها الأخضر القشيب وتثمر وتعطي، ثم يأتي بعده الخريف فتذهب الأثمار وتتساقط الأواق، وتتعرى كهياكل منتصبة جامدة لا رونق فيها ولا حياة. وهكذا هي الحياة البشرية في شتى مراحلها. ضيق ومفقر وملل أو غنى ومال وضحك، والحظ يلعب دوره بلا خجل!...

عمر بن أبي ربيعة

هو أشهر من مثل الغناء في العصر الأموي، لم تذكر كتب الأدب العربي شاعراً في عصر صدر الاسلام أو في العصر الأموي نال مكانة في قلوب أهل الحجاز ومنزلة في نفوسهم كتلك التي احتلها عمر بن أبي ربيعة. كما لا تعلم أن شاعراً من قريش أصاب شعره من الحظوة في عيون أبناء قبيلته مثل الذي أصابه شعر عمر. حتى ليذكر بعض الرواة أن بعض مشيخة قريش كانوا يفضلونه على غيره من الشعراء وربما استحسنوا منه ما يستقبح من غير، لأنه غلب على قلوبهم فمالت أهواؤهم إليه وملك نفوسهم بسحر شعره. ولم يعرف لقريش أثر عظيم في الشعر حتى كان عمر فزادت به مكارمها مكرمة جديدة. روى الأصفهاني قال:

«إن العرب كانت تقر لقريش بالتقدم في كل شيء إلا في الشعر فإنها كانت لا تقر لها به حتى كان عمر بن أبي أبية فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعها شيئاً»[2].

---

(1) الأغاني ج 1 ص 91 وص 105.

(2) الأغاني ج 1 ص 35.

وحين كتب ابن خلكان في سيرة عمر قال: «لم يكن في قريش أشعر منه»[1] وكان لشعر عمر تأثير كبير في نفوس في معاصريه حتى قيل:

«إذا أعجزك أن تطرب القرشي ففنه بلحن ابن سريج وشعر عمر فإنك ترقصه»[2]. قال إسحق الموصلي: «كان قديماً يقال: إذا قسا عليك قلب القرشي ففنه بشعر عمر بن أبي ربيعة وغناء ابن سريج. وكذا فعل أشعب برجل من أهل مكة. قال أشعب: فلما دخلت عليه غنيته لابن أبي ربيعة القرشي:

ولولا أن تقول لنا قريش ... مقال الناصح الأدنى الشفيق
لقلت إذا القينا قبّليني ... وإن كنا بقارعة الطريق

فقال أحسن والله! هكذا يطيب التلقي، لا بالخوف والتوقي.

قال: فلما رأيته قد طرب غنيته من غناء ابن سريج وقول عمر بن أبي ربيعة.

ما زلت أمتحن الدساكر دونها ... حتى ولجت على خفي المَوْلج
فوضعت كفي عند مقطع خصرها ... فتنفست نفساً ولم يتلهج
قالت وحق أخي وحرمة والدي ... لأنبهن الحي إن لم تخرج
فخرجت خيفة قولها فتبسمت ... فعلمت أن يمينها لم تحرج
فرشفت فاها آخذاً بقرونها ... رشف النزيف ببرد ماء الحشرج

فصاح الهاشمي: أواه! أحسن والله وأحسنت! وأمر لي بألف درهم وثلاثين حلة وخلعة كانت عليه»[3].

ومن تأثير شعر عمر على القرشيين أن أحدهم سمع قوله:

يا ليتني قد أجزت الحبل نحوكم ... حبل المعرّف أو جاوزت ذا عُشُر

فقال: «إن لشعر عمر بن أبي ربيعة لموقعاً في القلب ومخالطة في النفس ليسا لغيره، ولو كان شعر يسحر لكان شعره سحراً»[4].

---

(1) وفيات الأعيان ج 1 ص 538 وقد ذكر العبارة نفسها البغدادي في كتابه خزانة الأدب ج 1 ص 240.

(2) الأغاني ج 1 ص 112.

(3) العقد الفريد ج 6 ص 51 وقالوا إن هذه الأبيات لجميل بثينة ولو صحت لجميل عليه عندئذٍ أن يخرج من جماعة العذريين.

(4) الأغاني ج 1 ص 48 والمعرّف. موضع الوقوف بعرفة.

وكانوا يتفاضلون في عصره في من هو أشعر قريش. روى الأصفهاني قال:

«ذكر بحضرة ابن أبي عتيق شعر عمر بن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزوميين فقال رجل من ولد خالد: صاحبنا الحارث أشعر. فقال ابن أبي عتيق: دع قولك يا ابن أخي! فلشعر ابن أبي ربيعة لطة بالقلب، وعلق بالنفس، ودرك للحاجة، ليست لشعر الحارث، وما عُصي الله بشعر قط أكثر مما عصي بشعر ابن أبي ربيعة. فخذ عني ما أصف لك:

أشعر قريش من رق معناه، ولطف مدخله، وسهل مخرجه، وتعطفت حواشيه، وأنارت معانيه، وأعرب عن صاحبه»[1].

ولما علم الحارث رفض هذا التفضيل ولام ابن أبي عتيق على ذلك. فرد عليه هذا الأخير: «يغفر الله لك يا أبا عمرا إن ابن أبي ربيعة يبرىء الفرح ويضع الهناء مواضع النقب، وانت جميل الخفض. فضحك الحارث وقال له:

حبك للشيء يعمي ويصم. فقال ابن أبي عتيق. هيهات! انا بالحسن عالم نظّار.

وقد ورد في ديوان عمر بيت حول حوار ابن عتيق مع الحارث يقول فيه:

ودعاني ما قال فيها عتيق وهو بالحسن عالم بيطار

حتى أن الفقهاء ورجال الدين كانوا يعجبون بشعر عمر ويحفظونه. ومنهم عبد الله بن عباس. وكذلك كان بعض موالي قريش كانوا يتذوقون شعر عمر معجبين بشعر هذا القرشي المترف.

ذكر عن سعيد بن المسيب أنه كان يعنى بشعر عمر ويفضله على شعر عبيد الله بن قيس الرقيات.

رووا أنه مر بسعيد نوفل بن مساحق فقال سعيد لنوفل:

«من أشعر، صاحبنا أم صاحبكم؟» يريد ابن أبي ربيعة أو عبيد الله بن قيس الرقيات. فقال نوفل: حين يقولان ماذا؟...

قال حين يقول صاحبنا:

---

(1) أمالي القالي ج 2 ص 17.

خليليَّ ما بال المطايا كأنما نراها على الأدبار بالقوم تنكص
وقد قطعت أعناقهن صبابة فأنفسنا مما يلاقين شخَّص
وقد أتعب الحادي سراهن وانتحى بهن فما يألو عجول مقلِّص
يزدنا بنا قرباً فيزداد شوقنا إذا زاد طول العهد والبعْد ينقص

ويقول صاحبك ما شئت. فقال له نوفل: صاحبكم أشعر في الغزل وصاحبنا أكثر أفانين شعر. فقال سعيد: صدقت!»[1].

ولم تبق شهرة عمر محصورة داخل الحجاز وحدها بل تجاوزت شهرته إلى سائر الأمصار، فحفظ شعره الخلفاء الأمويون وقدّروا قيمته وحفظوه فيزيد بن معاوية روى شعر عمر وكذلك عبد الملك بن مروان كان يحفظ شعره ويناقشه به ويأخذ عليه مواقفه المستهترة في اللهو والغَي[2] وقد لقيه مرة في المدينة لما حج فقال له ألست القائل:

ولولا أن تعنفني قريش مقال الناصح الأدنى الشفيقِ
لقلت إذا التقينا قبليني ولو كنا بقارعة الطريق

فاغرب عن وجهي[3].

وقد وفد الخليفة عبد الملك مرة أخرى على الحجاز، وقابل عمر، وسأله ان ينشده من شعره، فأوعز عمر إلى غلامين له كانا يحفظن شعره أن ينشداه، فأنشداه، فطرب الخليفة وأجزل صلة عمر ورد الغلامين[4].

ووفدت على الوليد صاحبة عمر ثريا المغنية المشهورة من أجل قضاء دين عليها وحوائج لها، فأقبل عليها وأخذ يسألها قائلاً: أترويين من شعر عمر بن أبي ربيعة شيئاً، قالت: نعم! ثم روت له شيئاً من شعره فقضى حوائجها وانصرفت[5].

---

(1) الأغاني ج 1 ص 50 وراجع الديوان ص 394.
(2) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص 351.
(3) المرزباني ص 203 في كتابه الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء.
(4) الأغاني ج 1 ص 52.
(5) الأغاني ج 1 ص 93.

وظل لشعر عمر أثره في نفوس الملوك حتى العصر العباسي فقد روى الأصمعي قال: قال لي الرشيد أنشدني أحسن ما قيل في رجل قد لوّحه السفر، فأنشدته قول عمر ابن أبي ربيعة:

رأتْ رجلاً أمَّا إذا الشمس عارضت فيضحَى وأما بالعشيّ فيحصرَ
أخا سفر جواب أرض تقاذفت به فلواتٌ فهو أشعث أغبر

فقال الرشيد: أنا والله ذلك الرجل، وكان ذلك عقب قدومه من الروم ورووا أن بعض شعر عمر في الغزل كان سبباً إلى إيغار صدر الرشيد على البرامكة والتعجيل في الفتك بهم، وذلك حين تحيَّل بعض أعدائهم من البطانة فيما دسّوه للمغنين والمغنيات من الشعر احتيالاً على اسماعه للخليفة وتحريك حفائظه. وهو قوله:

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

ومن الذين فضلوا شعر عمر بعض الشعراء الفحول فمدحه جماعة منهم وفضله آخرون على كثير من شعراء عصره. فقد ذكر أن الفرزدق سمع رجلاً ينشد قصيدة لعمر يقول فيها:

فقالت وأرخت جانب الستر إنما معي فتحدَّث غير ذي رقبةٍ أهلي
فقلت لها ما بي لهمْ من ترقّبٍ ولكن سِرّي ليس يحمله مثلي

.....

فلما توافقنا عرفت الذي بها كمثل الذي بي حَذْوَك النعلَ بالنعل

عندها قال الفرزدق: «هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه»[1].

أما جرير فقال عندما سأله بعض أهل المدينة أن يسمعهم بعضاً من شعره: إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب وان أنسب الناس المخزومي، يعني ابن أبي ربيعة»[2].

(1) الأغاني ج 1 ص 36.

(2) الأغاني ج 1 ص 36.

وروى الرواة أن عمر وجميل كانا يتعارضان الشعر أحياناً فإذا قال أحدهما قصيدة قال الآخر قصيدة على رويها ووزنها[1].

ومما يبدو أن جميلاً لم يوفق في مناقضته الشعر مع عمر. زعم الرواة أنهما التقيا مرة بالأبطح فتناشدا الشعر، فبدأ جميل وأنشد قصيدته التي يقول فيها:

لقد فرح الواشون ان صرمت حبلي ... بثينة أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلاً يا جميل وإنني ... لأقسم مالي عن بثينة من مهل

حتى أتى على آخر القصيدة. ثم قال لعمر: يا أبا الخطاب: هل قلت في هذا الروي شيئاً؟ قال نعم. قال: فأنشدنيه! فأنشده قوله:

جرى ناصح بالود بيني وبينها ... فقربني يوم الحصاب إلى قتلي[2]
فلما اقتصرن دونهن حديثنا ... وهنَّ ظبيات بحاجة ذي الشكل
عرفن الذي تهوى فقلن إئذنني لنا ... نَطُفْ ساعةً في بَرْد ليل وفي سهل
فقالت فلا تلبثْن! قلن تحدثي ... آتيناك وانسبْن انسياب مها الرمل
وقمن وقد أفهمني ذا اللهب إنما ... أتين الذي يأتين من ذاك من أجلي

فقال جميل هيهات يا أبا الخطاب! لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالي. والله ما خاطب النساء مخاطبتك أحد».

وإذا تركنا الشعراء إلى غيرهم من الرواة النقاد ألفينا لعمر مكانة عظيمة في عيونهم. من هؤلاء نذكر حماد الراوية، وكان معجباً بشعر عمر قال حماد: «ذلك الفستق المقشر الذي لا يشبع منه».

شهرة الشعر العمري وأثره:

كان من شهرة هذا الشعر وسرعة انتشاره في عصره أنه أنشد في الحجاز ووصل دويه إلى سمرقند متجاوزاً اليمن والشام. قال أخوه الحارث بعد أن سمع شعره في اليمن: هذا والله شعر عمر قدّمتك وغدر»[4] وأنشد في الحجاز فبلغ الشام

---

(1) الأغاني ج 1ص 51.

(2) الأغاني ج 1 ص 51.

(3) العقد الفريد ج 5 ص 376 وذكر مثل هذا القول تماماً عن الأصمعي.

(4) الأغاني ج 1 ص 49.

وتمثل به يزيد. وقد زعموا أن أحدهم كان يحفظه ويظنه قرآناً. جاء في العقد الفريد: «ان عتّاب بن وقاء الرياحي خطب فقال: أقول لكم كما قال الله تعالى في كتابه العزيز:

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغانيات جرُّ الذيول[1]

كان أثر الشعر العمري قوياً في نفوس سامعيه وبصورة خاصة في نفوس النساء بحيث كان بعض الرجال يخشون على النساء منه قال ابن جريج: ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضر عليهن من شعر عمر بن أبي ربيعة»[2].

وهكذا نرى أن شعر عمر قد طغى على أكثر شعراء الغزل في عصره وبعد عصره، بحيث أصبح كثير من الشعر الغزلي المجهول النسب ينسب إلى عمر عند أكثر الرواة والمؤلفين. وقد تنبه بعض المؤلفين إلى هذا وأشاروا إليه.

ومن أثر الشعر العمري ومكانة صاحبه في عصره وبعد عصره، أن قلده كثير من الشعراء واقتبسوا منه وقلدوه فأصبح صاحب مدرسة غزلية. نذكر من الذين عاصروه:

الحارث بن خالد المخزومي، والعرجي، واسماعيل بن يسار النسائي ومن الذين سلكوا طريقه بعد عصره: العباس بن الأحنف، وبشار بن برد وغيرهما...

يقول مروان بن أبي حفصة في النساء اللواتي تغزل بهن عمر:

وتركن لابن أبي ربيعة منطقاً   فيهن أصبح سائراً محمولا

وللتدليل على أثر عمر في بعض الشعراء نذكر قصيدة قالها عمر في فتاة اسمها كلثم مطلعها:

ما على الرسم بالبليين لوّم   بيّن رجع التسليم أو لو أجابا[3]

فقلده اسماعيل بن يسار النسائي وقال في مطلع قصيدة:

ما على رسم منزل بالجناب   لو أبان الغداة رجع الجواب[4]

---

(1) العقد الفريد ج 5 ص 403.

(2) الأغاني ج 1 ص 35.

(3) الديوان ص 243.

(4) الأغاني ج 4 ص 120.

تخصص عمر بالغزل دون سواه؟

من أبرز خصائص الشعر العمري اقتصاره على الغزل حيث نجد التغزل بالمرأة والولع بجمالها بل بالجمال أنى وجده. لقد ولع عمر بجمال النساء ووقف جل شعره على وصفهن وبخاصة الغانيات من بنات عصره. فليس في ديوانه كله شعر لا يدور على المرأة سوى قصائد قليلة متفرقة. ويبدو أن هذه الميزة من التخصص في فن واحد فن الغزل، هي التي رفعت مكانته عند القدماء.

لقد رأى النقاد في عصره أن أشعر الناس وأوسعهم كلاماً وأقدرهم على القول أن يكون شعره مقتصراً على فن واحد لا يتجاوزه. ولهذا فضل الجاحظ العباس بن الأحنف على شعراء عصره[1]. وهذه الميزة، لزوم فن واحد من فنون الشعر التزم به عمر ابن أبي ربيعة فوصف عواطف الوجد والشوق، وألم البعاد ولذة الوصل، ومدح النساء وأطرى جمالهن، هذا التخصص هو الذي رفع من قدره وزاد في شهرته بين الشعراء. قال ابن رشيق القيرواني:

«الشعراء ثلاثة: جاهلي واسلامي ومولد، المهلهل وابن أبي ربيعة وعباس بن الأحنف. ثم قال: وهذا قول من يؤثر الأنفة وسهولة الكلام والقدرة على الصنعة والتجويد في فن واحد»[2].

أما عمر فقد أراد ألا يبتذل شعره في مدح رغبةً في عطاء أو رهبة من سلطان، فجعله وقفاً على جميلات النساء. وقد سأله مرة الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك قائلاً: ما يمنعك من مدحنا يا ابن أبي ربيعة؟ فقال: أنا لا أمدح الرجال وإنما أمدح النساء»[3].

فلسان عمر لا يجري إلا في النساء، وقريحته لا تجود إلا في وصفهن، وخياله لا يحلق إلا في فن الغزل. فقد خلق ليكون شاعر الغزل دون غيره من ضروب الشعر الأخرى. ومن طريف ما يروى عنه في هذا المجال ما رواه الأصفهاني قال:

خرج عمر هو والحارث بن خالد المخزومي، وأبو ربيعة المصطلقي، وابن أخت

---

(1) الأغاني ج 8 ص 16.

(2) العمدة ج 1 ص 63.

(3) الأغاني ج 1 ص 35.

الحارث، ورجل من بني مخزوم يشيعون بعض خلفاء بني أمية. ولما انصرفوا نزلوا بسَرِف، فلاح لهم برق، فقال الحارث كلنا شاعر فهلموا نصف البرق، فقال المصطلقي:

أرقتُ لبرقٍ آخرَ الليل لامعٍ   جرى من سناه ذو الربى فينابع[1]

وقال الحارث:

أرقتُ له لـيل التمام ودونَه   مـهامِهُ مَـوْماةٍ وأرض بـلاقـع

وقال المخزومي:

يضيء عِضاهَ الشوك حتى كأنه   مصابيحُ أو فجرٌ من الصبح ساطعُ

ولما جاء دور عمر قال:

أيا ربِّ لا آلو المودَّة جاهداً   لأسماءَ فاصنع بي ما أنت صانع

هذا التخصص بالغزل جعل شعر عمر يدور في مجمله على اللهو وحياة الشباب وما يخالج خواطرهم. روى الأصفهاني قال: ذهب عنترة بعامة ذكر الحرب، وذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب»[2].

لم يكن عمر أول شاعر قال في الغزل، فقد سبقه شعراء كثيرون منهم جاهليون ومنهم من أدرك الاسلام، لكن شعرهم بمجمله يغلب عليه الطابع التقليدي حيث كانت القصائد تصدر بمقاطع من الغزل يعتمدها الشاعر توطئة لغرض يرمي إليه من مدح أو هجاء أو وصف أو فخر.

ولا يخفى أنه ظهر في العصر الجاهلي شعراء شهروا بالحب والعشق، وقالوا شعراً غزلياً كامرىء القيس وعنترة والمرقش... لكنهم لم يبلغوا في هذا الفن ما بلغه ابن أبي ربيعة.

وفي العصر الأموي ظهر شعراء كثيرون شببوا بالنساء وقالوا في الغزل وشهروا به، لكنهم لم يقصروا شعرهم على الغزل كما كانت الحال عند ابن أبي

---

(1) الأغاني ج 1 ص 67 وينابع: اسم جبل.

(2) الأغاني ج 4 ص 125.

ربيعة؛ بطبيعة الحال نستثني من هؤلاء شعراء الحب العذري فقد كان منهم من قصر شعره على الغزل، ومات في سبيل الحب.

لكن أخبار العذريين هي أقرب إلى القصص منها إلى الواقع.

أما عمر فإنه تخصص في الغزل بوجه عام وفي وصف الجميلات، ومن هنا كانت شهرته، كما هي الحال عند شاعرنا اليوم شاعر المرأة الشاعر نزار قباني. كان عمر ابن أبي ربيعة شاعر الجمال، يقول في كل جميلة وفي كل الجميلات. فالجمال يحرك مشاعره ويفتق القول على لسانه بحيث كان يشعر انه موكل به يتتبعه في مكامنه، ويصفه حين لم يتمكن من التمتع به. وصف نفسه مرة فقال:

إني امرؤ مولع بالحسن أتبعه　　لاحظ لي فيه إلا لذة النظر[1]

ومن شعره الذي يصف فيه حبه للجمال وارتياعه بالشيء الحسن:

راعــنــي مــنــظره لــمــا بــدا　　ربمــا ارتــاع للشي الحسن[2]

وله في قصيدة أخرى قوله:

فرآها القـلـب لا شكـل لهـا　　ربمايعجب بالشيء الحسن[3]

وإذا لاحظنا اللواتي تغزل بهن عمر وتتبعنا أخبارهن وجدناهن جميلات في عصرهن مثل عائشة بنت طلحة، وفاطمة بنت عبد الملك، والثريا التي كان معجباً بها كثيراً لأنها كانت تفوق نساء عصرها جمالاً وتماماً[4]، ولبابة بنت عبد الله بن عباس التي رآها عمر أحسن خلق الله وكادت تذهب بعقله، والفتاة الجمحية التي لم يولد مثلها في الحجاز حسناً، وفاطمة بنت محمد الكندية، وزوجة أبي الأسود الدؤلي وغيرهن كثيرات.

بقي عمر مولعاً بالجمال يتبعه من مكامنه أينما وجده حتى في شيخوخته، فقد ذكروا عنه أنه قال لمصعب وعثمان ابني عروة بن الزبير: يا ابنيْ أخي! إني

(1) الأغاني ج 1 ص 64.

(2) الديوان ص 120.

(3) الديوان ص 123.

(4) الأغاني ج 1 ص 85 و88 و83 و41.

موكل بالجمال أتبعه، وإني رأيتكما فراقني حسنكما وجمالكما فاستمتعا بشبابكما قبل أن تندما عليه[1].

والآن سؤال يطرح ويجدر الاجابة عنه، لماذا ظهر هذا الغزل العمري وما هي الدوافع التي ساعدت على نموه وازدهاره؟ وما هو موقف السلطة الحاكمة من هذا التطور الجديد؟ وما هي البيئة التي نشأ فيها عمر؟

ولد عمر، هذا الفتى المخزوني في أسرة قرشية اجتمع لها السيادة والوجاهة والسعادة من كل جوانبها. أبوه كان من عمال الرسول ﷺ على بعض اليمن، وجده «أبو ربيعة» فارس مغوار وكريم الجاه بين قومه وأمه يمنية ولا يخفى ما لليمنيين من حظ وافر من الترف والنعيم.

وكانوا لذلك غزليين بطبعهم وبيئتهم. وجدته لأبيه كانت عطارة يحمل إليها العطر من اليمن[2].

وهذا كله جعل من حياة الفتى واسعة ممتدة الأطراف غير محدودة على مكة والحجاز. علماً أن الحجاز لم يبق على حاله من التخلف، بل أقبلت عليه الحياة غنية عريضة تحمل على سطحها كل معالم الغضارة ومظاهر الترف والحضارة. زد على ذلك كله أن عمر، كما وصفوه بين فتيان بني مخزوم، كان أفرعهم طولاً، وأجهرهم جمالاً وأبرهم شارة وعارضة وبيناً[3]. فكل هذه الدوافع والأسباب بذلت للشاعر كل ما يقتضي هذا الجمال من الجاه والترف والسيادة. فأمامه الجواري والعطور، والموسيقى والغناء، والمال والفراغ التي تتيح للنفس أن تقبل على ذلك إقبالاً ولا تنصرف إلى غيره. فشباب ومال وفراغ ثلاثة عناصر مبسوطة أمام يديه يغرف منها ما يشاء ويشرف منها على جميع ألوان المباهج. ولا ريب أن هذا السلوك أثار شاعرية الشاعر وجعل لها طعمها الخاص وأنغامها الخاصة بها.

وما نراه أن الشعر العمري يمثل الحياة الاجتماعية في العصر الأموي حيث الفتوحات الواسعة والأموال الطائلة ونقل مقر الخلافة من الحجاز إلى الشام،

---

(1) الأغاني ج 1 ص 36.

(2) الأغاني ج 1 ص 61.

(3) الأغاني ج 1 ص 160.

والهجرات والاختلاط والاستيطان، والأنظمة الجديدة التي توضع، والمجتمعات الأخرى التي نشأت عن الهجرة إلى الأمصار المختلفة والتواصل بين هذه المجتمعات في النواحي الفكرية والنواحي المادية على السواء. لقد أصبح آفاق كبرى امتدت واتسعت مع تقدم المجتمع الجديد فشملت كل الأقطار وكست مجتمع الحجاز بظلال جديدة واضحة حين دخله عمر بن أبي ربيعة، وما كان ينعكس على صفحة هذا المجتمع من أضواء وأنواء وتغييرات، وسوف نحاول توضيح هذه الظواهر والربط بينها وبين نتائجها في الحياة الاجتماعية.

ـ أنه في انتقال الخلافة من الحجاز إلى الشام أحس الأمويون بانعتاق من رقابة الجيل الذي نشأ في كنف الاسلام وتربى في ظلاله مثله وقيمة النبيلة، جيل الصحابة الأتقياء الزهاد وجيل التابعين الذين سلكوا نهج الرسول الأكرم ولم يروا عن سنته بديلاً. إنهم رجال الاسلام الأولون، وإن لهم آراءهم واجتهاداتهم.

ولما انتقلت الخلافة من الحجاز إلى الشام اجتهدت اجتهاداً خاصاً وأرادت أن ترضي نزعاتها في الاستئثار بالحكم والانتقال من الشورى التي نصت عليها التشريع الاسلامي إلى الوراثة، ومن الخلافة إلى الملك وهذا بلا ريب تصرف خاص من مستلزمات الملك بدا في إثارة العصبيات ومظاهر الترف والاسراف في الخلافة الأموية.

وإن مثل هذه الروح لن تقتصر على مركز الخلافة في دمشق، بل تعدتها إلى الأمصار الأخرى وكان لها أثر كبير في نفوس الجيل الجديد.

نتج عن هذا كله ظاهرة غريبة من الثراء الذي غمر بعض الطبقات الاسلامية ومكن لها حياة جديدة من النعيم وخفض العيش... وكما نعلم جميعاً أن لهذا الترف أجواءه ونتائجه في النفوس وفي الحياة، فهو أقرب الطرق إلى الاغراء بالطيبات والاقبال عليها بمختلف الوسائل مهما كانت العقبات.

ولا شك أن مثل هذا الترف أرخى ظلاله على سادة الحجاز وبصورة خاصة على الشاعر الموهوب بفن الغزل عمر بن أبي ربيعة.

الى جانب هذا نرى أن ركود الفتوح أدى إلى خمود في الروح الاسلامية التي كانت مجندة للجهاد في سبيل الدعوة الاسلامية، فقد استرخت نفوس المترفين وأحست وكأن عبء الجهاد قد ألقي عنها. والنفوس لا بد لها مما

يشغلها ويملأ عليها فراغها.... وهي إن لم يستبد بها الجد استبد بها الهزل، وما أقربها إلى اللين والضعف إن لم تخالطها القوة والعنف فقد تملكتها أهواؤها وخضعت لمشيئتها دون أي تحفظ.

آية هذا كله أن الحياة الاجتماعية في بعض طبقاتها المترفة أدت إلى شيء من التحرر والتحلل وأصيبت بلون من الانعتاق عند انتقال الخلافة إلى الشام فغرقت بالترف وكل ما يستتبع عادة من أجواء النعيم.

هذا من الجانب الاجتماعي، أما من الجانب السياسي والفني فإننا نجد أن الشعراء جلهم خاضوا في هذا المضمار، فمنهم من قال الشعر مادحاً أو هاجياً كجرير والأخطل والفرزدق، ومنهم من أوقف شعره للغزل لكنهم لم يستطيعوا أن يقفوا بعيداً عن المعارك الحزبية والسياسية حتى أصابهم منهم رشاش قليل أو كثير. فالحياة السياسية العنيفة والقاسية أجبرت أكثر الشعراء أن يقولوا الشعر في مدح الأمويين والاشادة بهم وذلك اما اجتلاباً لخير أو دفعاً لشر. وهذا بلا ريب تعبير عن قوة هذا التيار السياسي والاجتماعي الذي سخر الحياة الأدبية والفنية تسخيراً كاملاً عند الشعراء التقليديين، وتسخيراً في بعض الأحداث والمواقف عند الشعراء الغزليين.

أما في الحجاز فقد اتخذت السياسة سبيلاً آخر: قلنا أن في الشام والعراق أثار الحكم الأموي الخصومات والحزبيات وأشعل نارها فأغرى الشعراء أن يقولوا في الخلافة الأموية ما يدعم موقفها، فانعكس ذلك، من نحو فني، شعراً في المديح والهجاء والفخر.

وفي الحجاز أراد الأمويون شيئاً آخر... فلم يطمحوا في خيره، لكنهم أرادوا الوقاية من شره فباشروا في محاولة إلهاء القرشيين عن الخوض في السياسة والمشاركة فيها، فارتضوا منهم أن يقولوا في كلّ شيء ما عدا السياسة والمشاركة العملية في قيادة الدولة.

فانعكس هذا الاتجاه، وكان منه من نحو فني، عمر بن أبي ربيعة، والغزل العمري. وكما يبدو واضحاً أن مقومات هذا الاتجاه كانت:

ضرف الناس عن الحياة العامة، وقصرهم على حياة اللهو والترف فكان لا بد من إغداق المال والجواري وإغراق الشباب المحروم بهذه الاغراءات وإشغالهم

بها في كل حين. مال وجوار وشباب وفراغ! من هنا نشأت حركة الغناء في الحجاز وازدهرت ازدهاراً ملحوظاً، ثم انثالت منه إلى الشام والعراق.

إن غزل عمر بن أبي ربيعة هو انعكاس للحياة الاجتماعية والحياة السياسية التي انعكست في الحجاز بشكل مغاير لما كانت عليه في الشام والعراق لقد كان الغزل صدى لهذه الحياة لكنه انبعث من جوف مغاير.

الفصل الخامس

الحياة السياسية في العصر الأموي

كان النظام السياسي في عهد الخلفاء الراشدين نظام شورى وهي كما عرفها علماء الفقه الاسلامي «خلافة عن النبوة في حراسة الدين وسياسة الدين» ولما انتقلت الخلافة إلى الأمويين حولها معاوية بن أبي سفيان إلى ملك، فأصبحت تشبه الكسروية والقيصرية تحكم «بقوة السيف والسياسة والمكايد»[1].

ولما ولى معاوية ابنه يزيد ظهر عندها نظام التوريث وتحول النظام الاسلامي الذي يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين، إلى نظام ملكي يقوم على نظام التوريث ويستند إلى السياسة أولاً والى الدين ثانياً. وبذلك أصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسة منها إلى الدين، وهذا يعني أنها استحالت إلى ملك ولا يغرب عن بالنا أن الأمويين تأثروا بالبيئة التي عاشوا فيها وخاصة عند انتقال الخلافة إلى دمشق فمعاوية كان متأثراً جداً بالنظام الذي كان سائداً في الدولتين البيزنطية والفارسية، وسار في تحقيق هذه السياسة بمنتهى الحذق والمهارة. وقد أخذ لهذا الأمر عدته فأوحى إلى عماله على الأمصار ان يمهدوا السبيل لأخذ البيعة لابنه يزيد. وقد سار على هذا النظام العباسيون، فحرموا المسلمين الحق الطبيعي «الشورى» التي ألفها العرب المؤمنون، وجاء بها القرآن الكريم وأيدتها الأحاديث النبوية الشريفة. ثم غلا الأمويون في ذلك حتى أصبحوا يولون عهدهم اثنين بل ثلاثة، وأصبح الخليفة الأموي يعين ولي عهده ويأخذ البيعة له من وجوه الناس

(1) تاريخ الاسلام ج 1 ص 437.

وكبار القواد في حضوره، على حين أصبحت هذه البيعة تؤخذ في الأقاليم بحضور الوالي نيابة عن الخليفة.

يقول السيد أمير علي: «هذه الطريقة جمعت في نفسها كلاً من النظام الديمقراطي ونظام الحكم المطلق في آن واحد مع تجردها من مزايا كل منهما، إذ كانت البيعة تتم بأية طريقة سواء أكان ذلك بالوعيد أو بالوعود الخلابة. على أن هذا النظام أدى إلى ظهور العداوة والبغضاء بين أفراد البيت الأموي وأوغر صدور بعضهم على بعض فقام النزاع بينهم وتعدى ذلك إلى القواد والعمال، مما ساعد على سقوط الدولة الأموية[1].

وقد خرج عن هذه السنة الأموية خليفة واحد عاد إلى رشده وضميره هو معاوية الثاني

أبى هذا الخليفة أن يعهد لآل بيته أو لولده، بل ترك الأمر بين المسلمين شورى للناس، كما ينصب القرآن الكريم والحديث الشريف، فقال لهم: «فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم». وقال لهم أيضاً: «وما أنا بالمتقلد ولا بالمتحمل تبعاتكم فشأنكم وأمركم»[2].

الحياة الاجتماعية:

إن توسع الفتوحات العربية في العصر الأموي أدّى إلى تحول كبير في نسق الحياة الاجتماعية. ومن أبرز مظاهر هذه التغيرات الابتعاد عن الجو التقشفي الزاهد الذي عاش فيه المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين فلم يعد المسلمون كسابق عهدهم منصرفين إلى تثبيت ملكهم؛ بل أقبلوا بكل جوارحهم بظمأ على المتع والملذات التي أتاحتها لهم هذه الحياة. من أبرز هذه الملامح ازدياد الجواري في المجتمع الأموي ازدياداً كبيراً. وهؤلاء كن مثقفات بارعات ألفن طبقة جديدة في المجتمع الاسلامي.

الفن والثقافة في العصر الأموي

عاش المسلمون في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين عيشة التقشف

---

(1) تاريخ الاسلام ج 1 ص 438.

(1) المرجع السابق عن النجوم الزاهرة ج 1 ص 124.

وخشونة العيش والجهاد في سبيل الله، ولم يكن المجتمع الاسلامي حينئذٍ مسرحاً خصباً للفنون الجميلة بكل أنواعها: ففي أول عصر صدر الاسلام «كان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة أو البنيان والاسراف في غير قصد»[1] ولم يعرف العرب آنذاك المباني الفخمة والمصانع الضخمة التي كانت قليلة عندهم وعند غيرهم من الدول التي سبقتهم.

ولما اتسعت الفتوحات الاسلامية واختلط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى لاحظوا وقلدوا «وجمعوا شتى الاساليب الفنية القديمة وطبعوها بطابع دينهم الجديد»[2]. وبعد الاقباس والتقليد تفننوا في مختلف شؤون حياتهم واتسع أفق الفن في أعينهم، وازدادت معرفتهم حتى استطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لا تخرج عن الدائرة التي رسمها لهم الدين الاسلامي الحنيف. على أن الذي يلفت النظر أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير المجسم عنايتهم بالبناء والزخرفة «لأنهم رأوا في ذلك تشبهاً بعبدة الأوثان. ولهذا كان العنصر الأساسي في زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية»[3].

ولا ريب أن كل شعب من الشعوب يأخذ من الشعوب الأخرى ما يتناسب مع حالة معيشته وظروف حياته وجودة مهاراته، والعرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس اتخذوا طرازاً للبناء تناسب مع حالة معيشتهم ولهم في العهد الأموي قدح معلى في هذا المجال من تخطيط المدن وطراز البناء وفن الزخرفة والموسيقى والغناء.

أ ـ تخطيط المدن

كان العرب عند قيامهم ببناء مدينة يراعون الوضع الصحي والوضع الحربي والنواحي الجمالية لكل مدينة فيكثرون من المتنزهات والحدائق والبرك ويحيطون المدينة بالأسوار والخنادق. وكان لأصحاب كل حرفة حي خاص من أحياء المدينة يعرف بهم. وقد عرف عنهم كرههم للنظام المركزي لذلك كانوا أينما حلوا يتكتلون قبائل متميزاً بعضها عن بعض. ولكل حي من المدينة أبواب منيعة

---

(1) المقدمة لابن خلدون ص 312.

(2) فنون الاسلام لزكي محمد حسن ص 1.

(3) المصدر نفسه ص 25 وما بعدها.

تفصله عن الأحياء الأخرى. فإذا قامت ثورة في المدينة ينقطع الاتصال بين أجزائها المختلفة.

تمتاز العمارة العربية بالقباب والأعمدة والمنحنيات التي تشبه من بعض الوجوه صورة النخيل، الشجرة العظيمة جداً في حياتهم، حيث كانت مصدراً كريماً من مصادر أغذيتهم وثرواتهم.

من أهم المدن التي أسسها العرب

1- البصرة:

فطر العرب على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع ولم يتعودوا حياة المدن الكبيرة لأن مصدر حياتهم كانت المواشي التي تعتمد على المراعي والكلأ.

اختط البصرة عتبة بن غزوان سنة 16 هـ وكانت في أول أمرها أشبه بالقرية منها بالمدينة. فانشيء بها المسجد أولاً والى جواره دار الامارة. وخطط حولها لكل قبيلة مسجد ومقبرة. وقد اتخذت الدور من القصب أول الأمر ثم حولوها بعد أن اتسعت ثروتهم باللبن والآجر والحجارة.

ولم يمض على تأسيس البصرة حوالي عشرين سنة حتى تحولت إلى مركز تجاري هام وخاصة في التجارة بين الهند والصين بحراً. «وبذلك حلت محل الأبلة على الخليج الفارسي»[1]. ولم تلبث أن أصبحت مقصد القوافل ومحط رجال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مغاور الصحراء الكبرى.

ومعظم سكان البصرة من قبيلتي ربيعة ومضر، ثم وفدت اليها جاليات أخرى من الهند والسند والصين، كما كانت مقصداً للتجار العرب، وللادباء العرب وغير العرب فكان من أثر ذلك أن ظهرت فيها حياة جديدة تأثرت بالحضارات الوافدة وأثرت فيها أهمها الفارسية واليوانية.

2- الكوفة:

فكر العرب في بناء مدينة بعيدة عن المياه والمستنقعات والرسوبات تكون أصح من البصرة هواء وأفضل مناخاً فاختطوا مدينة الكوفة.

أرسل سعد بن أبي وقاص سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان يرتادان مكاناً

---

(1) راجع تاريخ الطبري ج 4 ص 148.

تتوافر فيه شروط صحية أفضل. فوقع اختيارهما على موقع غربي الفرات على مقربة من الحيرة وكان ذلك سنة 17هـ.

اختط شوارعها وأزقتها أبو الهياج بن مالك الاسدي فأسس بها جامعاً وبنى في مقدمته مظلة مقامة على أساطين من الرخام. كان الجامع في وسط المدينة تتفرع منه الطرق والدروب، وفي نهاية أحد هذه الطرق بنى دار سعد بن أبي وقاص اتخذ فيها بيت المال. قام في بناء المسجد ودار الامارة بناؤون من الفرس على مثال مباني الأكاسرة.

وقد زادت أهمية الكوفة حتى أصبحت من أهم المراكز العلمية والسياسية ووالي الكوفة أصبح يعين من قبله الولاة على المناطق. وأكثر أهالي الكوفة من اليمن[1].

ولما ولي الخلافة علي بن أبي طالب ترك المدينة ونقل مقر الخلافة إلى الكوفة لأن أكثرها من شيعته أنصاره، ثم لخصوبة أرضها وكثرة خيراتها ووقوعها في مكان متوسط بين أجزاء الدولة الاسلامية. لكن الأيام برهنت له فيما بعد أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن موفقاً. ومما يبدو أن اختياره الكوفة هو امتناع معاوية عن بيعته، وإن تركه المدينة قد أخل التوازن الذي كان بين القبائل العربية في عهد الخلفاء الراشدين. وهو يحبها ويؤثرها على المدينة حتى قال فيها: «الكوفة كنز الايمان وحجة الاسلام وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء»[2].

3ـ القيروان:

ولى معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع القهري افريقية سنة 48 هـ، وكان إذ ذاك يقيم بنواحي برقة، ومما انجزه هناك أنه دعا إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الذي بعث به معاوية ثم سار إلى افريقيا وافتتحها عنوة وأسلم على يده خلق كثير من البربر المعروفين بقدرتهم في الحروب.

وبعد أن حقق عقبة انتصاراً باهراً على البربر رأى أن يتخذ مدينة تحمي جند المسلمين من عدوان مرتقب من أهالي هذه البلاد فاختار موقع القيروان واختط

(1) المصدر نفسه ج 4 ص 141.

(2) المصدر السابق .

فيها داراً للامارة ثم بنى بها المسجد الجامع، ثم بنى الناس حولها الدور وموقع هذه المدينة التاريخية بعيد عن ساحل البحر ذلك حتى يكون المسلمون بمأمن من غارات الروم الذين كانوا يتحينون الفرص للهجوم على العرب.

كان سكان القيروان أخلاطاً من سائر الناس من قريش ومصر وربيعة وقحطان وسائر بطون العرب، إلى جانب هؤلاء فريق من الفرس من أهالي خراسان وبعض الروم والبربر. وكما كانت العادة عند العرب في تخطيط المدن أقيم سور مبني باللبن والطين، بناه القائد محمد بن الأشعث الخزاعي سنة 144 هـ. وفي العصر العباسي هدم هذا السور زيادة الله ابراهيم بن الأغلب سنة 209 هـ بعد أن خرج عليه أهل القيروان بزعامة المنصور. ثم أعاد بناءه المعز بن باديس بن منصور الصنهاجي سنة 444 هـ[1] وكانت القيروان عاصمة المسلمين في المغرب، ولم يزل محراب عقبة في مسجدها، ومأذنة هشام حتى اليوم.

وفي عهد عبد الملك بن مروان رأى عامله أن هذا المسجد يضيق بالمصلين، فكتب بذلك إلى الخليفة فأمره بشراء الأرض التي كانت بجانب المسجد لكي يستوعب عدداً أكبر من المصلين. ولما آلت ولاية العهد في افريقيا إلى ابراهيم بن أحمد بن الأغلب زاد في هذا الجامع وأدخل عليه عدة تحسينات وبني القبة المعروفة بقبة البهو[2].

ب ـ المساجد:

أبدع العرب في بناء المساجد ومحاريبها وقببها ومآذنها وبصورة خاصة في عصر بني أمية حتى أصبح لهم في فن العمارة طراز أموي خاص عرف بهم. وما زالت المساجد الاسلامية صورة رائعة لتطور الفن العربي والحضارة العربية في ذلك العصر.

1 ـ المسجد النبوي الشريف:

عندما وصل النبي ﷺ المدينة بنى مسجده الذي دفن فيه. اشترى الأرض

---

(1) تاريخ الاسلام ج 1 ص 522 عن المغرب في بلاد افريقيا ص 24 لأبي عبيدة البكري.

(2) المصدر نفسه ص 22.

وقطع النخل وشرع في بناء هذا المسجد من اللبن. وكان سقفه من الجريد وأعمدته من خشب النخل وارتفاعه قدر قامة. وجعل قبلته لبيت المقدس إلى أن حولت إلى الكعبة.

والى جانب المسجد بنى الصفة وهي موضع مظلل يأوي اليها فقراء المسلمين. وبنى بجواره بيوتاً باللبن وسقفها بجذوع النخل. وبعد فتح خيبر وازدياد عدد المسلمين زاد عليه الرسول بعض الشيء. وفي عهد عمر أراد الخليفة الراشدي شراء دار العباس عم الرسول ليدخلها في المسجد، فوهبها العباس لله وللمسلمين.

وأدخلها عمر في المسجد وجعل طوله مائة وأربعين ذراعاً وارتفاعه أحد عشر ذراعاً، وجعل له ستة أبواب.

وفي عهد عثمان جدد بناءه بالحجارة المنقوشة والفضة، وسقفه بالساج زاد فيه زيادة كبيرة ونقل اليه الحصباء من العقيق وكان ذلك (سنة 29 -30 هـ). وفي عهد الوليد بن عبد الملك أمر واليه عمر بن عبد العزيز بادخال حجرات زوجات الرسول في المسجد، وطلب إليه أن يكتب إلى امبراطور الروم ليرسل له البنائين المهرة لعمارة مسجد الرسول. فبعث إليه بأربعين رجلاً. كما أرسل اليه معهم ألف مثقال من الذهب وأحمالاً من الفسيفساء، فبنوا الأساس والجدران بالحجارة، وجعلوا أعمدته من الحجارة المحشوة بالحديد والرصاص، وجعلوا المحراب والمقصورة من الساج، ثم تولى الأمراء المسلمون مسجد الرسول بالعمارة والتجديد[1].

وما يحسن ذكره ان المساجد لم تكن للعبادة فقط بل كانت تدار فيها شؤون الدولة العامة قبل إنشاء الأبنية الخاصة بدور الحكومة. فالمسجد كان مركز الحياة السياسية والاجتماعية، كاستقبال السفراء وخطابة المسلمين كانت تتم من على المنبر في المسجد.

أضف إلى ذلك أن المساجد كانت تستخدم لتلقي العلوم واجتماع العلماء ومعاهد لتعليم التفسير والحديث واللغة والأدب، كما اتخذها القضاة لعقد

---

(1) راجع معجم البلدان لياقوت الحموي تحت كلمة يثرب.

جلساتهم وبذلك يتضح أنه لم يكن هناك من فصل بين الدين والسياسة والمصالح العامة.

2 - مسجد دمشق:

اختطه أبو عبيدة بن الجراح ثم تابع في بنائه الوليد بن عبد الملك واستمر في بنائه ثماني سنوات. والوليد كان مولعاً بالعمارة وخاصة المساجد ولما عزم على المباشرة في البناء جمع زعماء النصاري في دمشق وعرض عليهم رغبته في دمج مسجد المسلمين في كنيسة القدس يوحنا وقال لهم إنه على استعداد لأن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى في أي مكان أرادوا، لكنهم أبوا العرض مع عزمه على دفع ثمناً مضاعفاً لهم وحجتهم في ذلك العهد الذي أخذه المسلمون على أنفسهم بأن لا يتعرضوا لكنائس النصارى بسوء.

لكن الوليد لم يأبه لقولهم وسارع إلى هدم الكنيسة وبنى مكانها مسجد دمشق. وقد تأنق في بناء هذا المسجد حتى بات يضرب به المثل في جماله وزخرفة بنائه وحسن نظامه. وقد أنفق على بنائه خراج الدولة مدة سبع سنوات اعتقاداً منه انه يتقرب في عمله هذا من الدين. روى المسعودي في مروجه قال:

«لما ابتدأ الوليد بناء مسجد دمشق وجد في حائط المسجد لوح من حجارة فيه كتابة باليونانية، فعرض على جماعة من أهل الكتاب فلم يقدروا على قراءته فوجه به إلى وهب بن منبه فقال: هذا مكتوب في أيام سليمان الحكيم بن داود عليهما السلام، فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، يا آدم، لو عاينت ما بقي من يسير من أجلك لزهدت فيما بقي من طول أملك وقصرت عن رغبتك وحبلك، وإنما تلقى ندمك إذا زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك، وانصرف عنك الحبيب وودعك القريب، ثم صرت تدعى فلا تجيب. فلا أنت إلى أهلك عائد ولا في عملك زائد: فاغتنم الحياة قبل الموت والقوة قبل الفوت، وقبل أن يأخذ منك بالكظم ويحال بينك وبين العمل، وكتب زمن سليمان بن داود؛ فأمر الوليد ان تكتب بالذهب على اللازوردي في حائط المسجد: ربنا الله لا نعبد إلا الله. أمر بيناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين في ذي الحجة سنة سبع وثمانين. وهذا الكلام مكتوب بالذهب في مسجد دمشق إلى وقتنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثماية»[1] ولما أبلغ الوليد بالكميات الهائلة التي أنفقت لعمارة المسجد والتي بلغت حمل ثمانية عشر بعيراً، أقرها الخليفة الأموي

وقال: هو شيء آخر أخرجناه لله ولا نرجو من ورائه شيئاً.

ومسجد دمشق يعرف اليوم بالمسجد الأموي والحقيقة هو آية من آيات الفن العربي المطعم بالفن البيزنطي، وقد زرته قريباً فرأيته محافظاً على رونقه وبهائه وجماله. فهو كما وصفه أحد زواره: كامل الأوصاف جامع المحاسن، شامل الغرائب.

وقد غلا الوليد كثيراً في الانفاق على هذا المسجد الذي رصع محرابه بالجواهر الثمينة، عليه قناديل الذهب والفضة، ومحلى بالفسيفساء والسلاسل الذهبية. حتى رماه أكثر الناس بالاسراف والتبذير ولما كان عهد عمر بن عبد العزيز المعروف بعدالته وزهده، رأى أن المال الذي أنفق على بناء المسجد الأموي لم يكن في موضعه، وان بيت المال قد تأثر من جراء ذلك، عمد إلى نزع الفسيفساء واستبدل السلاسل الذهبية التي علقت فيها المصابيح بالحبال العادية، واسترجع بذلك بعض الخسائر التي مني بها بيت المال.

وكما ترى اهتمام الحكام الأمويين بالعمارة بصورة عامة وبالمساجد بصورة خاصة حتى أن الروم أنفسهم دهشوا عندما زاروا دمشق وشاهدوا مسجد دمشق الذي قالوا عنه: إنه رائع جداً، أفضل مما عندهم في بيزنطيا. جاء في فنون الاسلام: «ولد فن العمارة الاسلامية في عصر بني أمية ولكنه سرعان ما نما وترعرع فكانت من آثار الطراز الأموي عمائر يبدو فيها أن المسلمين أفادوا من فتوحاتهم ووجدوا كثيراً من العناصر الفنية في أجزاء دولهم وألفوا منها طرازاً ممتازاً»[2].

وأهم مزايا الفن العربي في العمارة:

1 - **القبب**: انتشر في البناء العربي في العصر الأموي البنايات الصلبة الشكل تزين سطوحها بالقاشاني الأخضر، ولهذا سميت بالخضراء وكان أشهرها خضراء معاوية في دمشق، وخضراء الحجاج في واسط.

2 - **شرفات الأبنية**: لم يكن يعرف العرب البناء المؤلف من طبقات أو حتى طبقتين لذلك كانت أبنيتهم خالية من الشرفات، أما في العصر الأموي فقد

(1) مروج الذهب ج 2 ص 152.

(2) فنون الاسلام لزكي محمد حسن ص 43.

بنوا العمارات من طبقتين أو أكثر فاستحدثوا الشرفات على شكل أسنان المنشار.

3 ـ **القرنصات**: وهي أشكال سداسية تشبه خلايا النحل وتكن عادة في واجهات العمارات وفي شقوق المباني.

4 ـ **الأقواس**: ومنها المدبب والمستدير، والعقود ذات الفصوص والأقواس المعقودة.

5 ـ **المآذن في الجوامع**: وهي حلزونية الشكل أو مستديرة أو مضلعة.

6 ـ **الزخارف**: أشكال هندسية تصنع من الجص والجبس.

7 ـ **الشبابيك**: تصنع من الجص المخرم المطعم بزجاج ملون.

جـ ـ الدور والقصور:

ذكرنا فيما سبق أن العرب تأثروا تأثراً واضحاً بالحضارتين الفارسية والبيزنطية وكان لاختلاطهم بهم أثر كبير في تغيير عاداتهم وبعض ألوان حياتهم الاجتماعية. ومعاوية المعروف بذكائه ودهائه استفاد من نظم الحكم التي أدخلها الروم في بلاد الشام، وأحدث منها ابتكارات لم يسبقه إليها أحد. من هذه التغييرات التي لم تكن معروفة عند الخلفاء الراشدين قبله: إقامة الحجّاب على بابه واتخاذ الحشم «فوضع المقصورة لخوفه مما جرى لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فإذا سجد قام الحرس على رأسه بالسيوف»[1].

أما عن إمامة الناس في الصلوات الخمس وفي صلات الجمعة، فبعد عمر بن عبد العزيز لم يهتم خلفاء بني أمية بأن يؤموا الناس في الصلوات الخمس بل اقتصروا على إمامتهم في صلاة الجمعة.

فكان الخليفة الأموي يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر، ثم يرقى لالقاء خطبة الجمعة وبيده الخاتم والعصا، وهما شارتا الملك. وكثيراً ما كان بعض الخلفاء الأمويين لا يحضرون صلاة الجمعة، بل ينيبون عنهم رئيس الحرس أو صاحب الشرطة.

جاء في مروج الذهب وصف لحياة معاوية الخاصة أول الخلفاء الأمويين

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية ص. 101.

قال: «كان إذا صلى الفجر جلس القاص حتى يفرغ من قصصه، ثم يدخل فيؤتى بمصحفه فيقرأ أجزاءه، ثم يدخل إلى منزله فيأمر وينهي، ثم يصلي أربع ركعات، ثم يخرج إلى مجلسه فيأذن لخاصة الخاصة فيحدثهم ويحدثونه، ويدخل عليه وزراؤه فيكلمونه فيما يريدون من يومهم إلى العشي، ثم يؤتى بالغداء الأصغر: وهو فضلة عشائه من جدي بارد أو فرخ أو ما يشبهه، ثم يتحدث طويلاً، ثم يدخل منزله لما أراد ثم يخرج فيقول: يا غلام أخرج الكرسي، فيخرج إلى المسجد فيوضع، فيسند ظهره إلى المقصورة ويجلس على الكرسي ويقوم الأحداث فيجلس إليه الضعيف والأعرابي والصبي والمرأة ومن لا أحد له فيقول: ظلمت. فيقول: أعزوه. ويقول آخر: صنع بي فيقول: أنظروا في أمره. حتى إذا لم يبق أحد دخل فجلس على السرير؛ ثم يقول ائذنوا للناس على قدر منازلهم ولا يشغلني أحد عن رد السلام. وإذا استووا جلوساً قال: يا هؤلاء! إنما سميتم أشرافاً لأنكم شرفتم من دونكم بهذا المجلس، إرفعوا الينا حوائج من لا يصل الينا...

ثم يقول: أعطوهم، اقضوا حوائجهم، اخدموهم.

ثم يؤتى بالغداء ويحضر الكاتب فيقوم عند رأسه ويقرأ كتابه. فيأمر فيه أمراً... فيقوم ويتقدم آخر حتى يأتي أصحاب الحوائج كلهم. وربما قدم إليه من أصحاب الحوائج أربعون أو نحوهم على قدر الغداء. ثم يرفع الغداء ويدخل منزله وينصرف الناس، فلا يطمع فيه طامع حتى ينادىَ بالظهر. وهكذا يتكرر الأمر في الغذاء والعشاء فيؤذن للخاصة وخاصة الخاصة والوزراء والحاشية فيؤامره الوزراء فيما أراد صدراً من ليلهم، ويسمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها، وسياستها لرعيتها وسائر ملوك الأمم، وحروبها ومكايدها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة. ثم تأتيه الطرف الغريبة من عند نسائه من الحلوى وغيرها من المآكل اللطيفة. ثم يدخل فينام ثلث الليل، ثم يقوم فيقعد، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات ثم يخرج فيصلي الصبح ثم يعود فيفعل ما وصفنا في كل يوم»[1].

(1) مروج الذهب ج 2 ص 70.

قصر الخليفة الأموي في دمشق:

تشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم، فكان قصر الخليفة في دمشق غاية في الفخامة والأبهة. فجدرانه ازدانت بالفسيفساء، وأعمدته بالرخام والذهب، وسقوفه بالذهب المُرصع بالجواهر. ولطفت جوه بعض النافورات والمياه، وزادت جوه رونقاً وجمالاً الحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة.

أما الخليفة فكان يجلس في البهو الكبير وعلى يمينه أمراء البيت المالك، وعلى يساره كبار رجال الدولة وقواد البلاد، ويقف أمامه كل من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء المداحون والفقهاء المتكسبون وغيرهم ممن يبغي التقرب من السلطان.

وكما وجدنا في دمشق العاصمة نجد أيضاً الثراء والترف، في الكوفة فقد جمعت الأسر البارزة فيها مبالغ ضخمة مما كانت تدره عليهم الغنائم والأعطيات السنوية، حتى أن كوفياً رحل إلى الحرب ومعه أكثر من ألف جمل لحمل حاشيته ومتاعه[1].

ولم يكن التأنق في الدور والقصور مقصوراً على الخلفاء فقط، بل نجد الأمراء كذلك وكبار رجال الدولة يتنافسون في تجميل دمشق وغيرها من المدن العظيمة. فقد شيد حفيد (مروان بن الحكم) الحر بن يوسف، والي الموصل في عهد هشام بن عبد الملك، داراً منيفة فخمة من الرخام الخالص والمرمر، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش الجميل والزينة البديعة، كما بنى فنادق فخمة للغاية في الموصل.

ولما رأى ما يعانيه أهل هذه المدينة من الصعوبة في الحصول على ماء الشرب شق قناة لهم أوصل بها المياه إلى المدينة ما تزال باقية حتى اليوم، وغرس الاشجار على ضفتها حتى أصبحت بمثابة حديقة عامة يقصدها المتنزهون ليتمتعوا بجمالاتها ومناخها الرطب أيام الصيف الحار. وكانت قصور الأغنياء من الشاميين تؤلف من طبقتين أحياناً، وعلى يمين وشمال الأبهاء أبواب تكسوها ستور كثيفة تؤدي إلى الحجرات الأخرى.

---

(1) الطبري ج 1 ص 806.

أما في الشتاء فكانت أرض الايوان الرخامية تكسى بالطنافس الثمينة، وتدفأ الحجرات بالموقد. أما في الصيف فكانت النافورات في باحة البيت والنوافذ المزدانة بالورود تلطف حرارة الجو.

والسقوف كانت مطلية بالذهب ومزدانة بالنقوش على الطراز العربي لكنهم في الغالب لم يكن عندهم مقاعد، وإذا كان صاحب الدار من أصحاب المراكز المعروفة وضع في الدار الطنافس بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد مرتفع.

اللباس:

كان الزهد في عهد الرسول ﷺ وعصر الخلفاء الراشدين من أبرز صفاتهم ولما قدم ملوك اليمن إلى أبي بكر وعليهم الحلل الموشاة بالذهب ورأوه يلبس العباءة والشملة بكل زهد وتواضع نزعوا ما كان عليهم من أفخر الثياب وذهبوا مذهبه، وقد روى المسعودي عن ذي الكلاع ملك حمير انه ذهب يوماً إلى سوق المدينة ليقضي حاجاته وعلى كتفه جلد شاة فلامته عشيرته وقالوا له: «لقد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار، قال لهم: فأردتم أن أكون ملكاً جباراً في الجاهلية جباراً في الاسلام؟ لا والله لا تكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد في هذه الدنيا»[1].

وعمر كان متواضعاً خشن الثياب كان يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل بالعباءة ويحمل القربة على كتفه، وقد اتبعه عماله في سائر أفعاله وأخلاقه مع ما فتح الله عليهم من البلاد وأوسعهم من الأموال.

وعلي عرف بزهده وتواضعه قال فيه عمر بن عبد العزيز: ما علمنا أحداً كان في هذه الأمة أزهد من علي بن أبي طالب بعد النبي ﷺ»[2] وقد لقب بأبي تراب لكثرة زهده قال: «يا دنيا غرّى غيري،! أإليّ تعرضت أم إلي تشوفت!؟ هيهات هيهات! قد باينتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك قليل. آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق»[3].

وكان سلمان الفارسي عامل عمر بن الخطاب على المدائن يلبس الصوف ويركب الحمار ويأكل خبز الشعير. وأبو عبيدة بن الجراح يخرج بين الناس وعليه

(1) مروج الذهب ج 1 ص 413.

(2) علي من المهد الى اللحد السيد محمد كاظم القزويني ص 240.

(3) علي امام المتقين عبد الرحمن الشرقاوي ص 19.

الصوف الخشن، فلاموه على ذلك وقالوا له: إنك بالشام وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك فقال: ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر الرسول ﷺ[1].

وكان البدو يرتدون العباء فوق القباء المصنوعة من وبر الجمل، أما في الحرب فكانت أرديتهم خاصة يلبسون السروال ورداءً قصيراً بدلاً من الثياب الفضفاضة المتدلية ويركبون الخيل التي كان لها دور هام في حروبهم. وفي السلم يلبسون العمامة على رؤوسهم، كل واحد منهم قدر سنه ومركزه العلمي. وفوق العمامة كانوا يلقون الطيلسان، وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقي الرقبة من حرارة الشمس. ولم تكن الأردية نفسها عند جميع الناس بل كانت تختلف تبعاً لثروة الناس المالية ومراكزهم الاجتماعية والأعمال التي يمارسونها فشيوخ القبائل وغيرهم من أعيان القوم يرتدون قباء يصل إلى الركبتين يعلوه جلباب فضفاض يتدلى إلى أسفل القدمين، وعلى الوسط يشده حزام من الحرير، وفوق ذلك الجبة.

وكسوة الفقيه والكتاب والأدباء تختلف عن ثياب الجند وثياب القضاة وثياب الخلفاء.

أما ملابس المرأة العربية فكانت من سروال فضفاض، وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق، هذا إذا بقيت داخل المنزل، أما إذا خرجت من بيتها فإنها ترتدي الحبرة، وهي ضرب من برود اليمن. تغطي جسم المرأة وتقي ملابسها من الغبار والطين. وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة يختلف لونه ونوعه تبعاً للمراكز الاجتماعية والثروة المادية.

ومن عهد إلى عهد، عندما توسعت الفتوحات شاع الوشي والتطريز والزركشة، وخاصة في عهد عبد الملك بن مروان وابنه سليمان من بعده. هذه الأردية الجميلة كانت تجلب من اليمن والكوفة والاسكندرية. ولشدة ولوع الخليفة بالوشي والزخرف كان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه ورجال بلاطه إلا في الثياب الموشاة، وإذا جلس على كرسي الخلافة أو ركب الجواد أو ارتقى المنبر يلبس الوشي .

---

(1) مروج الذهب ج 1 ص 418.

وكان طبيعياً أن يظهر الترف في بلاس الأمويين، وقد بالغوا كثيراً في نوعها وزخرفتها وزركشتها. «حتى إن عامة الناس أخذوا في تقليدهم مما أدى إلى رواج الملبوسات الموشاة وانتشارها بين جميع طبقات المجتمع»[1].

ومن الترف في الملبس إلى الترف في المأكل:

الطعام:

كانت معيشة العرب في بادىء الأمر غاية في البساطة من جميع جوانبها، في المسكن والملبس والمأكل وهذا بطبيعة الحال انعكس على أدبهم وشعرهم وتاريخهم.

كانوا يكتفون بالقليل من الطعام الذي لم يكن ليتجاوز لوناً أو نونين، وخير طعامهم اللحم. هذا عند سكان البادية أما سكان المدن فكانوا أقرب إلى العناية بالطعام والتفنن فيه من سكان البوادي.

ولم يكن تقشفهم في الطعام نابعاً من فقر أو شح ولكن زهداً في هذه الدنيا الفانية. وقد ظهر هذا الزهد بصورة واضحة عند الخلفاء الراشدين الذي وصفهم صاحب الفخري بعبارات طويلة نختصر منها: «واعلم أنها دولة هي بالأمور النبوية والأحوال الأخروية أشبه. والحق في هذا أن زيها قد كان زي الأنبياء وهديها هدي الأولياء فاما زيها فهو الخشونة في العيش والتقلل في المطعم والملبس.

وكان طعامهم طعام فقرائهم... وقد كانوا يفعلون ذلك مواساة لفقراء رعيتهم، وكسراً للنفس عن شهواتها، ورياضة لها لتعتاد أفضل حالاتها. وكل واحد منهم كان صاحب ثروة ضخمة ونخل وحدائق وغير ذلك من الأسباب. لكن أكثر خرجهم كان في وجوه البر والقرب»[2]. كانوا يأكلون بأيديهم لعدم وجود الملاعق والشوك عندهم، كما كانت الحالة في أوروبا وغيرها من البلاد الأخرى إلى عهد قريب. وما زالت هذه العادة حتى اليوم في بعض البلدان العربية يفضلون الأكل بالأيدي مثل دول الخليج بصورة عامة.

لكن العرب اشتهروا بالكرم يجودون بطعامهم ولا سيمّا سكان البوادي

---

(1) حضارة العرب للدكتور مصطفى الرافعي ص 166.

(2) الفخري في الآداب السلطانية ص 70.

فكانوا يوقدون النار طوال الليل حتي يهتدى بنورها الضيوف الغرباء. قال أحد الشعراء:

وإني لمعط ما وجدت وقائل لموقد ناري: ليلة الريح أوقد

«وكانوا إذا أكلوا جميعاً بسطوا سماطاً على الأرض ثم جلسوا صفين من حوله كما نجلس نحن اليوم حول المائدة»[1]. وقد بقيت هذه الطريقة حتى عصرنا الحاضر، ومن أطعمة العرب المشهورة ما جاء في المخصص.

قال ابن سيدة: «من ألوان الطعام عندهم القديد والصفيف فإذا شرح اللحم وقدد فهو القديد، وإذا شرح عراضاً فهو الصفيف. والشواء والبسيسة وهي الدقيق أو السويق يلت بالسمن أو الزبد ثم يؤكل ولا يطبخ. والخزير: وهي الحساء من الدسم والدقيق. والخزيرة أيضاً يقطع اللحم قطعاً صغيرة في القدر فإذا نضج در عليه الدقيق[2].

ومما يبدو أن الخضار لم تكن مستعملة عند العرب في طعامهم كما هي عندنا اليوم لأنهم لم يهتموا بالزراعة بصورة عامة وعلى الأخص في البوادي لندرة المياه وظروف الحياة المعتمدة على الترحال والغزوات.

وينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا أن العرب لما خالطوا الأمم الأخرى تغيرت أطعمتهم، وازدادت عن ذي قبل تنوعاً، وأصبح طهاتهم أكثر تفنناً في طبخ اللحوم واستعمال التوابل.

وفي العهد الأموي اقتبس العرب كثيراً من ألوان أطعمتهم عن الفرس البيزنطيين، كما اقتبسوا عادة الجلوس على الكراسي حول الموائد وفرشها بأغطية من القماش المطرز، واستعملوا-الفوط والملاعق التي كان تصنع غالباً من الخشب والفخار وتجلب من بلاد الصين.

وعامة الخلفاء الأمويين كانوا يكثرون من الطعام ويقبلون عليه إلى درجة النهم، فمعاوية بن أبي سفيان كان «يكثر من الطعام حتى قيل إنه كان يأكل في كل يوم خمس أكلات»[1]. ومن الذين اشتهروا بحبهم للطعام سليمان بن عبد الملك فقد

---

(1) تاريخ الاسلام السياسي للدكتور حسن ابراهيم حسن عن زاد المعاد ج 4 ص 308.

(2) المخصص لابن سيدة ج 4 ص 120 وما بعدها.

كان أكولاً نهماً يتفنن في اختيار ألوان الطعام وأفضل طعامه الدجاج يأتيه الطباخ بالدجاجة فيأخذها ويفصلها على السفافيد. روى الأصمعي قال: «ذكرت للرشيد نهم سليمان وتناوله للفراريج بكمه فقال: قاتلك الله! فما أعلمك بأخبارهم؟ إنه عرضت علي جباب بني أمية فنظرت إلى جبة سليمان، وإذا كل جبة منها في كمها أثر دهن فلم أدر ما ذلك حتى حدثتني بالحديث ثم قال: عليّ بجباب سليمان فأتى بها فنظرنا، فإذا تلك الآثار ظاهرة، فكساني منها جبة. فكان الأصمعي ربما يخرج أحياناً فيما يقول: هذه جبة سليمان التي كسانيها الرشيد. ثم يزيد فيقول:

وكان للأكل مع الخلفاء والأمراء آداب مقررة، فينبغي ألا ينبسط الشخص في الطعام لأن الأكل مع الملوك للشرف لا للشبع مع ما في الانبساط من الجرأة وسوء الأدب»[2].

ومن عادات الفرس التي تسربت إلى الأمويين وآدابهم وتقاليدهم منع الكلام في حضرة الخليفة، ومخاطبته كما كان يخاطب أسلافه، وصار الخلفاء ولا يسيرون إلا بموكب يحيط به الحرس والحجاب وتحيط به الأبهة والعظمة.

أما الشراب الذي حرمه الاسلام تحريماً شديداً في عصر الخلفاء الراشدين فقد أخذ يغزو المجتمع الأموي شيئاً فشيئاً، فيشربون سراً في منازلهم وفي أديرة المسيحيين. أما يزيد بن معاوية فقد «تجرأ على الشرب جهراً واستجلاب المغنيات لاقامة مجالس اللهو والطرب. وقد نسج على منواله فيما بعد عبد الملك بن مروان ويزيد الثاني وهشام بن عبد الملك والوليد الثاني الذي أسرف في الشراب واللهو وأسرف كذلك في بذل الأموال وإنفاقها على مشاهير المغنين والموسيقيين الذين كان يستقدمهم من مختلف أنحاء الامبراطورية»[3]. وكما نلاحظ بوضوح بعد هؤلاء عن الخط الاسلامي وتشبههم بملوك فارس والبيزنطيين.

أنواع التسلية:

عرف الخلفاء في العصر الأموي أنواعاً من التسلية لتمضية فراغاتهم كالصيد وسباق الخيل ومجالس الغناء والطرب. وأول من أولع بالصيد يزيد بن

(1) مروج الذهب ج 2 ص 163.

(2) تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم حسن عن التاج في أخلاق الملوك للجاحظ ص 11.

(3) حضارة العرب للدكتور مصطفى الرافعي ص 167.

معاوية، كان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلاجل المنسوجة منه، ويخص لكل كلب عبداً يقوم على خدمته ويسوسه في كل حاجاته[1]. والصيد بالنسبة لهم هام جداً إذ كان يرمي إلى تمرين العساكر على الركض والكر، يعودهم على الفروسية، والرمي بالنشاب، والضرب بالسيف، ويفيدون منه في القتل وسفك الدماء وعدم المبالاة بإراقة الدماء وغضب النفوس.

وكذلك أخذوا يستكثرون من الخيول ويتفننون في تضميرها وأول من اهتم من خلفائهم بالسباق وركوب الخيل معاوية بن أبي سفيان ثم هشام بن عبد الملك الذي كان يبذل في شراء الخيول أموالاً طائلة وهو أول من أقام حلبات للسباق، وقد اشترك في عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء، حتى إن المسعودي يقول: إنه لم يسبق هذا السباق مثيل وبالاضافة إلى الأمراء كانت الأميرات يتدربن أيضاً على ركوب الخيل ويشتركن في السباق. وكذلك كان الوليد الثاني مغرماً بسباق الخيل وله في حفلات السباق أخبار مذكورة[2].

كان سباق الخيل أهم تسلية للشعب على اختلاف طبقاته وقد أنشأوا له ميادين عديدة أهمها: الميدان في الرصافة من أرض الشام.

ومن أنواع التسلية المعروفة عندهم: الكرة، كانوا يتدافعونها بالصوالجة والقلة والمقلاة: وهما عودان يلعب بهما الصبيان، فيرمي الصبي بالقلة في الهواء ثم يضربها بمقلاة في يده، وهي خشبة طولها ذراع، فستمر القلة في حركتها، وإذا وقعت كان طرفاها مجانبين للأرض فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع، ثم يعترضها بالمقلاة فيضربها في الهواء فتستمر ماضية[3].

---

(1) الفخري في الآداب السلطانية ص 54.

(2) مروج الذهب ج 3 ص 188.

(3) المخصص لابن سيدة ج 3 ص 17 وما بعدها.

فهرس المصادر والمراجع

ـ أ ـ

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ الاحكام السلطانية للماوردي مطبعة الوطن بمصر 1298 هـ.

3 ـ أعلام النساء لعمر رضا كحالة.

4 ـ الأغاني لابي الفرج الاصفهاني دار الكتب المصرية المؤسسة العامة المصرية.

5 ـ الامالي لأبي علي القالي دار الكتب بالقاهرة 1926 م.

6 ـ ايران في عهد الساسانيين ترجمة الدكتور يحيى الخشاب القاهرة 1957 م.

ـ ب ـ

7 ـ بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب لمحمود شكري الألوسي مطبعة دار السلام بغداد.

8 ـ البيان والتبيين للجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) تحقيق عبد السلام هارون ط الحلبي مصر 1945 م.

ـ ت ـ

9 ـ تاريخ الاسلام السياسي د. حسن ابراهيم حسن. مطبعة النهضة المصرية 1964 هـ.

10 ـ تاريخ ابن خلدون مؤسسة الاعلمي. بيروت. لبنان.

11 - تاريخ الأدب العربي د. عمر فروخ.
12 - تاريخ الحضارة الاسلامية . أبو زيد شلبي . مكتبة وهبة 1383 هـ.
13 - تاريخ التمدن الاسلامي . جرجي زيدان دار مكتبة الحياة بيروت.
14 - تاريخ الطبري مؤسسة الاعلمي . بيروت.
15 - تاريخ العرب المطول . فليب حتي .
16 - تاريخ اليعقوبي . دار بيروت . 1400 هـ.
17 - تاج العروس . الزبيدي.
18 - تفسير الكشاف.

- ج -

19 - جمهرة رسائل العرب . أحمد زكي صفوت .

- ح -

20 - حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر القاهرة 1969 م.
21 - الحضارة الاسلامية . آدم متز . القاهرة . لجنة التأليف والنشر.
22 - حضارة العرب في العصر الجاهلية د. حسين الحاج حسن . المؤسسة الجامعة بيروت 1984 م.
23 - حضارة العرب د. مصطفى الرافعي دار الكتاب اللبناني 1978 م.
24 - الحيوان للجاحظ (عمرو بن بحر) تحقيق عبد السلام هارون ط. الحلبي 1945 م.

- خ -

25 - الخراج لابي يوسف المكتبة السلفية القاهرة 1952 م.
26 - الخراج ليحيى بن آدم القرشي تحقيق أحمد شاكر القاهرة 1347 هـ.
27 - خطط المقريزي طبع مصر 1270 هـ.

28 ـ خزانة الأدب . عبد القاهر البغدادي . ط. بولاق مصر 1299 هـ.

29 ـ الخمائل للشاعر اليا أبي ماضي.

ـ د ـ

30 ـ دائرة المعارف الاسلامية.

31 ـ ديوان الأخطل.

32 ـ ديوان جرير.

33 ـ ديوان الفرزدق.

34 ـ ديوان عمر بن أبي ربيعة.

ـ ر ـ

35 ـ رحلة الشعر د. مصطفى الشكعة عالم الكتب بيروت.

ـ س ـ

36 ـ سيرة ابن هشام . البابلي الحلبي 1348 هـ.

ـ ش ـ

37 ـ الشعر والشعراء . ابن قتيبة الدينوري تحقيق أحمد شاكر . دار المعارف مصر 1967 م.

ـ ط ـ

38 ـ طبقات ابن سعد . دار صادر . بيروت 1376 هـ.

ـ ع ـ

39 ـ العقد الفريد لابن عبد ربه . لجنة التأليف والنشر . 1950 م.

40 ـ علي من المهد الى اللحد السيد محمد كاظم القزويني دار التيار الجديد . بيروت.

41 ـ علي امام المتقين . عبد الرحمن الشرقاوي مؤسسة الوفاء بيروت.

42 ـ علم الاجتماع الأدبي . د. حسين الحاج حسن . المؤسسة الجامعية بيروت 1983 م.

43 ـ العمدة لابن رشيق القيرواني . ط. دار السعادة مصر 1955 م.

ـ ف ـ

44 ـ فتوح البلدان للبلاذري . مكتبة النهضة المصرية 1956 م.

45 ـ فجر الاسلام لاحمد أمين . مكتبة النهضة المصرية 1961 م.

46 ـ الفخري في الآداب السلطانية لابن طباطباط. شركة طبع الكتب العربية بمصر 1317 هـ

47 ـ فنون الاسلام لزكي محمد لجنة التأليف والنشر 1936 م.

48 ـ الفن ومذاهبه . د. شوقي ضيف . دار المعارف بمصر.

49 ـ الفهرست لابن النديم ط. التجارية القاهرة 1348 هـ.

ـ ك ـ

50 ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ط. نهضة مصر 1349 هـ.

ـ ل ـ

51 ـ لسان العرب لابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن المكرم الانصاري بولاق 1300 هـ.

ـ م ـ

52 ـ المخصص . ابن سيدة . ط. الاميرية بولاق 1321 هـ.

53 - مروج الذهب للمسعودي . المطبعة البهائية المصرية 1346 هـ.
54 - المعارف لابن قتيبة.
55 - المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم وضعه محمد فؤاد عبد الباقي.
56 - المعجم الوسيط دار إحياء التراث العربي . بيروت.
57 - مسند الامام أحمد القاهرة 1313 هـ.
58 - المستطرف للابشيهي تحقيق د. عبد الله الطباع دار القلم . بيروت.
59 - الموشح للمرزباني. ط. نهضة مصر 1965 م.
60 - المقدمة لابن خلدون القاهرة 1322 هـ.

- ن -

61 - نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب . النويري ط. دار الكتب المصرية 1929 م.
62 - النظم الاسلامية د. صبحي الصالح دار العلم للملايين 1978 م.
63 - نقد الحديث في علم الرواية وعلم الدراية د. حسين الحاج حسن مؤسسة الوفاء بيروت 1985 م.

- و -

64 - الوزراء والكتاب للجهشياري.
65 - وفيات الأعيان لابن خلكان تحقيق إحسان عباس ط. دار الثقافة بيروت.

فهرست